روايات الهلال

عدد ممتاز

الحرية أو الموت

نيقوس كازانتزاكيس



الفصل الأول

أخذ الكابتن « ميخايليس » يجز على أسنانه كما هى عادته كلما استشاط به الغضب ، ثم رفع أصابع يده اليمنى وكأنها مخالب ، إلى شاربه الأسود يعبث به ، كان جديرا بلقب « الخنزير البرى » الذى يعرف به فى ميجالوكاسترو ، فقد كان ما يتصف به من ثورات الغضب ، وكانت عيناه العميقتان الداكنتان المستديرتان ، وعنقه القصير الصلب وأصابعه الطويلة كالمخالب وجسده الثقيل العريض .. كل ذلك كان يشبه بحق خنزيرا بريا انتصب على ساقيه فاتحا ذراعيه للربيع .

كان الكابتن مطبقا بقبضة يده على رسالة مالبث أن دسها فى ثنايا حزامه العريض بعد أن أمضى وقتا طويلا وهو يتهجى حروف كلماتها ويبذل جهدا خارقا فى فهم معانيها .. إنه لن يحضر هذا العيد أيضا (هكذا فهم) : وهكذا فإن أمه المريضة التى تحتضر وأخته المسكينة .. لن تتاح لهما رؤيته لأنه ـ كما يقول ـ لايزال يدرس .

بحق الشيطان .. ماهو الذى يدرسه ؟ أسيظل يدرس هكذا إلى الأبد ؟ ! أم أنه لم يعد له وجه يعود به إلى كريت بعد أن تزوج من يهودية ولم يتزوج من امرأة قروية من بلدنا ؟ هذا ما وصل إليه حال ولدك المفضل يا شقيقى كوستا ! آه لو كنت حيا لترى ! آه لو كنت حيا لتمسك به من كاحليه وتعلقه فى دعامة خشبية ورأسه إلى أسفل وكأنه غرارة حبوب ! .

وانتصب واقفا كمارد ممشوق فكادت رأسه تلمس سقف الدكان ، وكانت العصابة السوداء التى يعصب بها جبينه قد ارتخت فوق ظهره فجذبها وأعاد تثبيتها حول جبهته البارزة العظام ثم اتجه نحو الباب باحثا عن نسمة هواء .

وكان الصبى القروى شاريتوس النيت البرى ذو الشعر البنى والعينين المرتعدتين الراعشتين والأذنين المطرقتين ، متقوقعا خلف لفة من حبال السفن ونظراته تطوف بأشرعة السفن وألواح الخشب وعبوات الدهان والقار والسلاسل الثقيلة والخطاطيف الحديدية وكل مايلزم السفن من عدد وآلات ، ولكنه ـ من شدة خوفه ـ لم ير سوى « الريس » الذى كان يقف على عتبة الدكان وقد ملأ كل فراغ الباب وهو يحدق صوب الميناء ، كان الكابتن ميخايليس عمه ، .. ولكنه لم يكن يناديه إلا بكلمة « الريس » .. وكان يرتعد بمحضره .

وقف الكابتن يغمغم فى غضب : « كأنما لا يكفينى مالقيت اليوم من منغصات ما الذى يريده هذا الكلب حين يطلب منى أن أتوجه إلى منزله التعس هذا المساء ، ويجيء ابن أخى أيضا ليزيد طين المنغصات بلة ! سوف تطلب منى أمه أن أكتب إليه .. ولقد سبق أن فعلت ذلك ، ولكنه لم يكلف نفسه عناء الحضور ! » .

ثم التفت إلى اليسار نحو الميناء شاخصا ببصره تجاه البواخر والسفن والبحر ، وكانت الأصوات تتناهى من حاجز الأمواج مختلطة بأصوات الباعة والبحارة ، بينما كان الحمالون المنتشرون بين براميل الزيت والنبيذ وأكوام المخلفات يصيحون ويلعنون أثناء قيامهم بالشحن والتفريغ وهم فى عجلة من أمرهم لينهوا أعمالهم قبل غروب الشمس وقبل أن تُغلق أبواب القلعة ، وكان البحر يشيع جوا حارا رطبا فى المكان الذى تفوح منه روائح البرتقال المتعطن والشلجم (اللفت) والنبيذ والزيوت ، بينما كانت هناك اثنتان أو ثلاث من السيدات المالطيات يثرثرن بأصوات مبحوحة وقد ابتلت ثيابهن برذاذ الماء وهن يلوحن لباخرة مالطية عريضة الصارية كانت قادمة وهى تحمل شحنة من الزجاجات .

واختفت الشمس وراء سماء حمراء ، وانتهى آخر يوم فى شهر مارس ، وهبت ريح شمالية باردة رعشت لها ميجالوكاسترو ، فأخذ أصحاب الحوانيت يدلكون أياديهم ، ويحكون أقدامهم .. ويتناولون الأشربة الدافئة أو « الروم » . وعلى مدى البصر كانت تبدو قمم جبال « استرومبولاس » مكسوة بالثلوج ، وجبل « سيلورتيس » وردى اللون تتخلله زرقة معتمة ، وكتل الثلوج المتجمدة تلمع بيضاء بين الأخاديد العميقة التى تقيها

الرياح .. بينما السماء صافية زاهية .

والقى الكابتن ميخايليس بنظرة إلى برج « كيول » .. ذلك البرج العتيد الضخم الرابض إلى يمين مدخل الميناء ، وفى مواجهته أسد فينيسيا الرخامى ضاما أجنحته . كانت ميجالوكاسترو محاطة بأكملها بالأسوار المنيعة والأبراج الحربية التى أنشأها حكامها فى العصور الذهبية للبندقية . والتى خضبتها دماء البنادقة والأتراك واليونانيين ، وفى كل مكان كانت بقايا الطابع القديم لاتزال واضحة ، فهذه هى الأسود المنحوتة من الحجارة تحمل الانجيل بين فكيها ، وتلك آثار ضربات الفئوس التركية تبدو واضحة على الحصون منذ ذلك الخريف الدامى الذى سحق فيه الأتراك ميجالوكاسترو بعد أعوام طويلة من الحصار اليائس .. وفى كل مكان ـ وبين الأطلال ـ تنتشر أشجار التين والأعشاب الشوكية والشجيرات الجرداء .

وخفض الكابتن فيخايليس بصره وأخذ يحدق فى أسفل برج « كيول » وقد نفرت العروق فى جبينه وأخذ يتنهد بعمق : هناك ، وفى داخل هذا القبو الذى تتكسر عليه الأمواج كان السجن اللعين الذى قضى فيه أجيال من المحاربين نحبهم مكبلة أيديهم وارجلهم بالسلاسل : « حقا إن أجساد ابناء كريت قوية ، ولكنها أبدا لاترقى إلى قوة مشاعرهم » .. واسترسل يقول لنفسه وكأنه يهذى : « إننى اتهم الله .. اتهمه بانه لم يمنح ابناء كريت أجسادا من فولاذ تمكنهم من الصمود مائة عام او مائتين أو حتى ثلاثة حتى تحرر كريت .. وبعدها ليكن مايكون .. حتى ولو تحولنا إلى تراب أو رماد » .

ثم ارتفع غضبه عندما تذكر ابن أخيه الذى يعيش فى الخارج كافرنجى ، يقول إنه متعلم .. ما الذى يتعلمه بحق الشيطان ؟ .. سوف يعود ولاشك مثل عمه تيتيروس المدرس ! .. مخلوقا عليلا .. بعوينات وأرداف .. خنزيرا ممتازا .. اللعنة ! .. ميوعة .. ! » .

وبصق بصقة بعيدة .. ثم تردد لحظة قبل أن يتجه إلى حانوت للعطارة يملكه « ديمتريوس » ..

ومضى يحدث نفسه : « لقد جئت إلى هذه الدنيا جسورا .. من صلب جدنا الجسور ميخايليس المجنون الذى لم يكن يخشى الأتراك ! » .. وقفزت إلى ذاكرته صورة جده التى كانت تبعث الرعب فى القلوب ، كيف

تموت ذكرى هذا الرجل الذى ترك كل هؤلاء الأولاد والأحفاد ؟ . إن كبار السن هنا وهناك يعرفونه ويذكرون كيف كان يقف على شاطىء كريت محدقا مظللا عينيه بكفه ، كان يترقب ظهور إحدى السفن الروسية فى البحر عند خط الأفق وهو يحرك طربوشه فيميله إلى ناحية من رأسه ، ويظل يسير فى تكاسل جيئة وذهابا بحذاء أسوار ميجالوكاسترو وينحنى أمام برج « كيول » اللعين ويغنى فى وجوه الأتراك : « الموسكوف قادمون ! » .. كان شعر رأسه طويلا ولحيته مسترسلة ، وكان ينتعل حذاء برقبة طويلة تصل إلى حزام الوسط ، ويقال إنه لم يكن يخلعه عن قدميه ، ويرتدى قميصا أسود طويلا علامة على الحداد على كريت التى ترسف فى الأغلال ، وكان يخرج عقب القداس فى أيام الآحاد ويتجول هنا وهناك وفى يده قوس جده وعلى كتفه جعبة مملوءة بالسهام .

وزمجر الكابتن ميخايليس ، وقطب عن جبينه وهو يقول : « كان هؤلاء رجالا حقا ، كانوا جبابرة ، ولم يكونوا مثلنا كالديدان . وهكذا كان نساؤهم أيضا ، بل لعلهن كن أكثر منهم توحشا ! آه .. ! ، لكم تنحدر طبيعة الرجل مع الزمان .. تنحدر إلى الشيطان ! » .

وارتسمت صورة جدته ـ بعد صورة جده ـ بأظافرها المتسخة ، كانت قد غادرت بيتها ذا الجدران الخشبية عندما بلغت من السن عتيا ، وخلفت فيه أولادها وأحفادها وأولاد أحفادها ، ومضت إلى واحد من الكهوف العميقة التى فى أعلى القرية .. ودفنت نفسها فيه وظلت بداخله طوال عشرين سنة ! .. وكانت إحدى حفيداتها ـ ممن تزوجن من رجال قرية « يسيلوريتيس » .. تحضر لها كل صباح قطعة من خبز الشعير وقليلا من الزيتون وقنينة من النبيذ (وكان الماء متوافرا بالكهف) ، وكانت تحضر لها فى كل عيد فصح ، بيضتين مصبوغتين باللون الاحمر فى ذكرى السيد المسيح .. وكانت العجوز تظهر كل صباح على مدخل الكهف بوجهها الأبيض الشاحب كالشبح ، وبشعرها وأظافرها الطويلتين وثيابها المهلهلة .. وتظل تحدق فى الشمس ملوحة بذراعيها النحيلين طويلا .. داعية أو لاعنة ، ثم تعود تدلف إلى كهفها فى بطن الجبل .. هكذا .. طوال عشرين سنة ! حتى إذا كان صباح يوم ما .. لم يرها أحد .. وأدرك الجميع ماحدث . فاستدعوا قسيس القرية الذى صعد إلى الكهف وفى يده شعلة مضيئة ليجد عظام العجوز قابعة فى إحدى الحفر وقد تشابكت ذراعاها .. ودفنت رأسها بين ركبتيها ..

وهز الكابتن ميخايليس رأسه وهو يبعد عينيه عن السجن فى محاولة لأن يبعد عن ذاكرته صورة الأموات .

وفى حانوت صغير على جانب الطريق : كان « ديمتريوس » يجلس ناعسا فوق أريكة ضيقة وقد أمسك بمذبة من شعر حمار يحركها فى خمول من ناحية لأخرى ليطرد الذباب عن الأكياس الصغيرة التى تحتوى على القرنفل وجوز الطيب واللادك والقرفة .. وعند الزجاجات الصغيرة المملوءة بزيوت شجر الغار والريحان .. وكان ديمتريوس هذا يبدو دائم الكآبة بسحنته الصفراء وأنفه الذى يشبه الخيارة ! .. وبينما كان يتثاءب ويرمش بعينيه من حين لآخر - إذا لم يكن قد استغرق فى النوم بعد - لاح له الكابتن « ميخايليس » كما لو كان متجها نحوه .. فرفع يده بتحية المساء ملوحا بمذبته ، إلا أن هذا الجار النشيط أدار وجهه فى الاتجاه الآخر .. فعاد ديمتريوس إلى نعاسه ..

دس الكابتن ميخايليس يده فى حزامه العريض فوجد الخطاب المكرمش ، فانتزعه ومزقه إلى مئات القطع .. وأخذ يحدث نفسه :

- « كان مدرسا واحدا ليس كافيا لكى توصم أسرتنا بالغباء ! الآن أصبح لدنيا الثانى .. وابن من يكون ؟ ! .. إنه ابنك يا شقيقى كوستا - أنت الذى انتزع شعلة وأضرم بها النار فى الحانوت فالتهمت دير « أركادى » بقديسيه وصلبانه ورهبانه وكل من فيه .. مسيحيين وأتراكا ! » ..

وكان « ڤيندوسوس » فى ذلك الحين يقف على رصيف الميناء مرتديا سترة من الصوف .. كان قد أوصى « كيزاموس » أن يوافيه ببرميل من النبيذ لحانته وهو الآن فى انتظار أن يتسلمه ، ولكنه حين رأى الكابتن ميخايليس على بعد وقد أسدل غطاء رأسه على حاجبيه ، تبين ماهو عليه من غضب فاستدار وقال لنفسه : « إن التنين فى حالة هياج هذا المساء .. وخير لى أن أسلك طريقا آخر » ..

وبدأت الشمس تغيب خلف مرتفعات « استرومبولاس » .. وبدأت الظلال تملأ الشوارع .. وبدت المآذن البيضاء فى لون وردى ، وأخذ عمال الميناء والنجارون وعمال الشحن والبحارة ينهون عمل اليوم .. وأخرج الكابتن ميخايليس كيس التبغ من حزامه ولف لنفسه سيجارة .. وبدأ غضبه يهدأ مع نفثات الدخان .. وأخذ يداعب ذقنه الداكنة بأصابعه المخلبية البيضاء وهو يحدث نفسه :

- « يجب أن يعيش ولدى « تراساكى » لكى يعيد وجوهنا نظيفة من جديد .. لابد وأن يضرب مثلا لعمه « تيتيروس » ولابن أخى .. ذلك الحكيم جدا ! الذى لم يخجل من خلط دمائنا بدماء المرابين ، لابد أن يرتفع ولدى بمستوى أسرتنا ! » .

وفجأة أحس بأن الحياة بخير .. وأن الله عادل .. وأنه لا عتبى عليه بعد الآن .

واقترب تركى عجوز حليق الراس يرتدى ثيابا بالية ، ورفع بصره إلى الكابتن ميخايليس وهو يرتعد .. فبادره هذا فى حدة : « ماذا تريد يا على أغا ؟ » .

وكان « على أغا » أحد جيران الكابتن ميخايليس الذى لم يكن يطيق رؤية وجهه الذى تشمئز منه نفسه ، فقد كان يبدو له هشا كالقوقعة الرفيعة ، نصف رجل ونصف امرأة .. يقضى أمسياته مع جاراته من النساء اليونانيات ويشاركهن ثرثرتهن .

وتمتم العجوز قائلا :

- سيدى .. لقد أرسلنى « نورى بك » .. وهو يحييك ويسألك ما إذا كان من الممكن أن تسعده هذا المساء بزيارته فى قصره ..

- حسن .. سبق أن تلقيت هذه الرسالة من خادمه الأسود ، وتستطيع أنت أن تنصرف .

- إنه يقول : إن الأمر عاجل للغاية ..

- قلت لك أغرب الآن عن وجهى :

فقد كان يضايقه سماع الصوت النسائى لذلك المملوك ..

وعض « على أغا » على لسانه واستدار لائذا بالحائط .. ثم مضى من حيث أتى .

- وماذا أفعل فى بيوت الأتراك ؟ ! .. ماذا يريد منى هذا الكلب ؟ ! .. ولماذا لم يأت إلىَّ بنفسه ؟ ! .. لن أذهب إليه ! .

والتفت فجأة .. ونادى : « شاريتوس ! أدخل وأسرج فرسى » ..

فقد خطر له فجأة أن يمتطى فرسه فى نزهة تنسيه جدته وجده وابن عمه ونورى بك أيضا ! ولعله بذلك يزيح عن كاهله الكثير .

وبينما هو يمد ذراعه ليلتقط المفتاح ويغلق حانوته ، إذا بصهيل فرح منعش يتناهى إلى سمعه داويا فى الشارع ، إنه ليميز هذا الصوت تماما .. صوت ذلك الجواد الأسود المتألق ذى الملمس الناعم الرقيق ! !

والتفت الكابتن ليرى ذلك الجواد الأصيل الأنيق يتقدم فى خيلاء وقد أمسك بلجامه غلام تركى عارى القدمين ليقوده فى مسيرة بلا سرج فى شوارع ميجالوكاسترو ليهدى من أنفاسه اللاهثة .. لابد أنه كان يعدو قبل قليل ، فلا يزال الزبد ظاهرا على فمه وصدره ، وتحت كتفيه ، ولكن قوته لم تكن تبارى .. كان لايزال ينفر بقوة فيتناثر الزبد رذاذا حول عنقه وهو يقفز متبخترا بين اللحظة والأخرى ضاربا الأرض بساقيه الأماميتين الرشيقتين .. وهو يصهل :

وصاح أحد الواقفين خارج حانوت الحلاق « باراسكيڤاس » .. الرجل القادم من جزيرة « سيرا » :

ـ انظروا يا أولاد .. ها قد أقبل جواد نورى بك !

واندفع إلى باب الحلاق خمسة أو ستة لم يحلقوا بعد ذقونهم ، وواحد غطت ذقنه رغوة الصابون .. وأخذوا يحدقون فى الجواد بأفواه فاغرة وأعناق مشرئبة .. وصاح شاب رخو ذو لحية شعثاء كلحية الجدى ..

ـ وحق روحى ذاتها ، لو أن أحدا سألنى ما إذا كنت أختار جواد نورى بك أو زوجته .. لاخترت الجواد .

وصاح « ياناروس » معلم البياض ـ والذى كانوا يسمونه بـ « قرون الخنزير » .. بسبب شاربه الكث ـ صاح ضاحكا :

ـ إن لك عقلا مثل عقل فرشاة البياض تماما .. ! أيها الأحمق ، إن أمينة هانم جميلة وفى العشرين من عمرها .. امرأة متوحشة .. فليقع اختيارك إذن عليها هى فقط أيها المسكين حتى تمنح جسدك شيئا من المتعة ! .
وأجاب الشاب :

ـ قلت لك إننى أفضل الجواد .. ولا أحب الدنس .

وتدخل السنيور « پاراسكيڤاس » الذى كان قد اندفع بدوره نحو الباب والمقص فى يده .. وقال بصوت مرتفع :

ـ لا أيها القروى الطيب .. لا الجواد ، ولا الهانم ، إن المتاعب التى تكمن وراءهما أكثر مما يستحقان .

واستدار الشاب ذو اللحية التى تشبه لحية الجدى .. وقال :

ـ أيها التافه من « سيرا » ! إن الحياة كلها متاعب ، وليس يريح المرء سوى الموت .. أنا أريد الخير لك ـ لا تتكلم بهذه الطريقة أمام الكريتيين ، فقد نسىء فهم ما تقصد فندفنك حياً ..

وارتعش رجل « سيرا » المسكين ، إنه ـ وهو العاقل ـ لم يعد يذكر ما الذى قذف به إلى كريت ليحلق ذقون هؤلاء الوحوش ، كل حين يقدم إليه واحد من هؤلاء الكريتيين الذين يعيشون فى الجبال .. ويدلف إلى الحانوت فيقفز هو فى ذعر ليرى ما يريده .. من أين يا ترى يبدأ المسكين ؟ ! لعل شهورا طويلة قد مضت منذ آخر مرة اغتسل فيها أو حلق ذقنه مثل هذا الرجل الجبلى ؟ ولعل سنين كاملة قد مضت منذ آخر مرة قص فيها شعره .. ! وإنه ليعد المنشفة ، ويمسك بمقصه ويتحرك فى نشاط حول المقعد الذى يجلس فيه مثل هذا الكريتى وهو يتطلع فى إعجاب إلى وجهه المضحك فى المرآة : وإنه ليبدو أمامه كما لو كان Wether ، أو كما لو كان القديس « ماماس » الراعى الضخم الذى رآه السنيور « پاراسكيڤاس » مرّة فى إحدى الصور المقدسة بلحية كهذه وعوارض لا يستطيع عشرة من الحلاقين أن ينالوا فيها حقا أو باطلا ! .

إن مقصه ليتضاءل فى يده فجأة .. من أين يبدأ فى هذه اللحية الخنزيرية ؟ .. ثم إنه ليتنهد .. ثم يستقر رأيه فى النهاية على أن يبدأ باسم الله برغوة الصابون ! وتراجع المسكين فى ذعر وهو يتساءل :

ـ حيا ؟ ! .. ولماذا يا صديقى الطيب تدفننى حيا ؟ ! ..

ـ هل تعرف بم نسمى أولئك الذين يتكلمون بهذه الطريقة ؟ ! .. موتى ! ..

وابتلع رجل « سيرا » المسكين لعابه ، وتظاهر بأنه لم يسمع شيئا .. واستدار يدخل حانوته .

وفى تلك اللحظة وصل الكابتن « ستيفانس » ، ربان السفينة « داردانا » التى أغرقها الأتراك خلال ثورة ٧٨ .. كانت إحدى قذائف سفينة تركية قد اخترقت سفينته وحطمت ركبته ، ومنذ ذلك الحين لم يعد يصلح لشىء سوى أن يضغط على الأرض الصلبة بعصاه ويعرج فى مشيته حول حى الميناء ، وكان له عصوان : إحداهما مستقيمة يستخدمها عندما تسير الأمور فى كريت سيرا عاديا ، والأخرى مقوسة يستخدما عندما تضطرب الأمور وتشتم رائحة البارود فى الجو ، وإنه اليوم ليستخدم العصا المقوسة وهو مقبل يستمع إلى ما يقال :

قال « ستيفانس » :

- لا تتشاجروا يا شباب .. فالأمر يسير .

- قل لنا أنت يا كابتن « ستيفانس » : أيهما تختار لنفسك ؟ ! .

- أيها الحمقى ، أنا أختار الاثنين معا ! جواد نورى لكى أمتطيه ، وأمينة هانم لتركب خلفى فوق مؤخرته - مثل القديس چورچ !

وصاح الكريتيون ، الحليق منهم وغير الحليق :

- ونحن أيضا .. نحن أيضا .. نحن أيضا يا كابتن ستيفانس ، وعسى الله أن يستجيب !

ورفع الكابتن ميخايليس بصره : كان الجواد قد أصبح قريبا منه رائعا .. ناريا كبجعة سوداء بعنقها ترفعه عاليا .. واستدار الجواد نحوه وبرقت عيناه كما لو كان قد عرف الكابتن ميخايليس ، واهتز لحظة وصهل وتقدم الكابتن نحوه بالرغم منه - ومرت لحظات وهو واقف أمامه ويداه تتحرقان لأن تلمسه وتتحسس حرارة جسده والزبد حول فمه .. ورآه الصبى التركى ووقف ساكنا .

وبدأت يد الكابتن ميخايليس تجوس خلال الصدر العريض الذى بلله العرق وأحاطته قلادة من الأحجار الزرقاء الخفيفة محلاة بهلال من العاج .. وأخذت يده فى لهفة تربت العنق والخياشيم والرأس ، وتضرب بحنان معرفة العنق ، وتنتقل فى اشتياق إلى الظهر والفخذين (crupper) ، وتدور حول البطن المضطربة دون أن تكتفى ، كانت يده كأنما تريد أن تبتلع الجواد كله .

اما الجواد الرائع المدل بروعته ، فقد أحنى عنقه وهو يحس بمتعة شرهة فى دغدغة اليد الحانية ، ثم أدار رأسه ذات العينين الداكنتين الواسعتين كحبتي خوخ (plum) .. ونفر بحرارة فوق رأس الرجل وبدأ فجأة يتراقص .. واندفع يرفع عصابة رأس الكابتن ميخايليس السوداء ، ويلوح بها فى الهواء دون أن يدعها تسقط ، وعيناه تتابعانها فى غنج ودلال ، واحس الرجل بقلبه يرق ، أبدا لم ينظر إلى آدمى بهذه السعادة الرائقة ! .. ألفى نفسه وقد بدأ يهمس فى أذن الجواد بكلمات الود والاعزاز ، وخفض الجواد عنقه كما لو كان يستمع ثم مسحه فى كتفى الرجل ، وفجأة رفع الكابتن ميخايليس يده وجذب عصابة رأسه السوداء من فم الجواد .. وقد علاها الزبد ، ووضعها حول رأسه ثم استدار نحو الصبى التركى وأشار إليه أن ينصرف .

وقال وهو لايزال يتابع الجواد ببصره وقد اقترب من البوابة الرئيسية :

ـ سوف أذهب ..

كان قد قرر رأيه فجأة ، واستدار ليغلق دكانه وليأخذ طريقه نحو قصر نورى بك ولكن الكابتن ستيفانس الذى كان يراقبه وهو يربت على الجواد بذلك الاشتياق الزائد .. وقف أمامه متكئا على عصاه المقوسة يرجو له أمسية طيبة ، لم يكن ستيفانس يخشى هذا الصنف من الرجال الذين يكرهون الناس ، فقد كان هو نفسه رجلا بمعنى الكلمة .. كلب بحر قويا استطاع خلال ثورات ١٨٥٤ ، ١٨٦٦ ، ١٨٧٨ ، أن يخترق الحصار التركى بسفينته « داردانا » مرات لا يحصى عددها وينقل الطعام والذخيرة لكريتيين فى موانىء طبيعية منعزلة ، وعندما أصابوه وأغرقوا سفينته ، نزفت الدماء من ركبته المنسحقة ولكنه سبح فى خليج القديسة پيلاجيا وهو يمسك بين أسنانه فوق الأمواج بالرسائل التى بعثت بها اللجنة الاثينية إلى القائد الشهير كابتن « كوراكس » .. زعيم مقاطعة « ميسارا » ومنذ ذلك التاريخ .. عاد إلى الأرض أعرج فقيرا مهلهل الثياب منتعلا حذاءه الذى رتق مرة ومرات ، يدور كل يوم حول الميناء وهو يتطلع إلى السفن الأجنبية فى إعجاب ، ولكن بقلب مكلوم ، ويشم رائحة القطران ويسمع أصوات التحية المتبادلة وضجة الخطاطيف المرتطمة بالأعماق البعيدة ، كان الجسد ضعيفا .. والجيوب خاوية .. ولكن الروح كانت شامخة داخل صدره

وهو يحدق فى صفحة البحر كأنه رأس وحش خرافى .

واستند إلى عصاه المقوسة ، ووقف ثابتا فى مواجهة الكابتن ميخايليس وتكلم :

ـ هيه .. كابتن ميخايليس .. هل التقطت أذناك ما يقوله الناس فى الميناء ؟ ! . إنهم يتساءلون ! إذن أنت خُيرت بين جواد نورى بك .. وبين أمينة هانم .. فأيهما تختار ؟! ..

وقال الكابتن ميخايليس :

ـ انا لا أهتم بهذه الثرثرة المخجلة :

ثم اتجه إلى دكانه دون أن ينظر إلى ربان السفينة ، ولكن البحار العنيد لم يستسلم .. ظل يتفحص الكابتن .. وقال وكأنه لم يسمع شيئا :

ـ لقد جلبها نورى بك من القسطنطينية ، وهى شركسية كما يقولون ، جمالها يكفى خمس نساء .. متوحشة ـ من آكلات لحوم البشر بحق ! .. إن جاراتى « العوانس العجائز » يسمعن من جاريتها السوداء التى أحضرتها معها ، عما يجرى خلف أبواب القفص الذى وضعها فيه البك ، ثم ينشرن حفظ الله ألسنتهن الصغيرة ! ـ مايسمعن ..

وقال الكابتن ميخايليس فى شىء من الغضب :

ـ كابتن ستيفانس .. قلت لك إننى لا ألقى بالا إلى هذه الثرثرة المخجلة .. ولكن البحار العنيد لم يتزحزح .. لا .. لن يجبره على أن يغلق فمه .. إن الخوف لم يعرف إليه طريقا وهو فى مواجهة البحرية التركية ، فكيف يخاف إذن من هذا الرجل ؟ ! .. سوف يسمعه كل مايريد أن يقوله سواء أراد أم لم يرد .. تابع كلامه فقال :

ـ إن نورى بك أخوك فى الدم يا كابتن ميخايليس ، لاتنس ذلك ، ومن ثم فإنه من حقك أن تعرف ما يجرى داخل بيته .. إنهم يقولون إن هذا البك المتوحش يجلس إلى أقدامها محدقا فى عينيها ، وإنها تضغط سيجارتها المشتعلة فى عنقه وهى تقهقه ، ويقولون أيضا إنها تتذكر بلادها أحيانا .. تتذكر الخيام ورائحة الروث واللبن وصهيل الخيول ـ وتستبد بها الذكرى فتحطم أكواب « البورسلان » وتسكب زجاجات العطر على الأرض .. وتلهب ظهر جاريتها بالسوط .. » ..

وأمسك الكابتن ميخايليس بالمفتاح وأزاح بيده الذئب البحرى العجوز عن الباب وهو يهدر مثل كلب مسعور ، حتى يتمكن من إغلاق دكانه .. ولكن البحار لم يكن يستطيع الآن أن يمسك لسانه ، صحيح أنه كان من الأفضل ألا يدخل فى نقاش مع وحش مفترس كهذا ، ولكن الأمر كان قد انتهى وأصبح متورطا فى الحديث .. فلتمض السفينة إذن ناشرة قلاعها وليكن ما يكون ! وليسرع فى إنهاء حكايته ..

ـ ويقولون أيضا .. إن الهانم تغار من جواد نورى بك ، وأنها دفعت نورى بك بعيدا مساء أول من أمس عندما حاول هو أن يحتضنها وقالت له : « افعل أولا شيئا من أجلى » ، وقال هو : « كل ما تطلبينه يا عشيقة قلبى .. كل ما تطلبينه مجاب » .. « أحضر جوادك إلى الفناء ، واشعل المصابيح حتى أستطيع أن أراه .. واذبحه أما عينى ! » .. وتنهد البك وأحنى رأسه وانطلق يعدو خارج الحجرة وأغلق على نفسه باب حجرته وظل طوال تلك

الليلة يذرع أرضها جيئة وذهابا وهو يهدر ، أنا أحكى لك ما سمعته حتى يكون لديك به علم ، فقد أرسل يطلبك لأنه محتاج إليك ، لا تحاول أن تنكر فقد أخبرنى على أغا ، ومن ثم فمن الأفضل قبل أن تذهب ، أن تعرف حال الزوجين العاشقين فى تلك المقلاة !

ومسح ستيفانس يديه الجامدتين ، سعيدا بأنه قال كل ما يريد دون أن يغلبه الخوف ..

ـ نعم يا كابتن ميخايليس ، هذه هى الحقيقة ، وإذا كان ما قيل كذبا ، فالأفضل إذن أن تتحرى العوانس العجائز الأمر ! .

وتحرك الكابتن ميخايليس ، وصفق باب الدكان فأغلقه ، ودس مفتاحه فى حزامه ثم استدار إلى الكابتن الصفيق وقال فى غضب :

ـ أنت أيها المخلوق البحرى لا تعرف شيئا عن احترام النساء .

وانطلق فى طريقه :

وصاح ستيفانس يرد فى ضيق :

ـ وأنتم يا فرسان الأرض تعرفون كل شىء فى هذا الصدد ! دائما تجدفون وسط روث الخيل !

.. قالها واندفع يتوكأ ليختفى خلف الناصية وكأنما استبد به الخوف فجأة .

شد الكابتن ميخايليس عصابة الرأس السوداء إلى جبهته حتى غطت ذؤاباتها عينيه كأنما لا يريد أن يراه أحد أو أن يرى هو أحدا ، واتجه نحو الحى التركى وهو يتنفس بقوة .

كانت الشمس قد غابت ، وبدأت الطبول تدق .. وكان الحراس قد أحكموا إغلاق بوابات المدينة الأربع بالمفاتيح حتى لا يخرج أحد خارج حدود « ميجالوكاسترو » حتى شروق الشمس ، وليبقى الأتراك والكريتيون داخل أسوارها معا طوال الليل .

واشتدت الظلمة وامتدت لتغمر الأزقة ، واختفت النساء من الطرقات ، وأضيئت المصابيح داخل البيوت .. وصفت الموائد وهرع الرجال المحترمون إلى منازلهم ليتناولوا العشاء ، بينما توقف الرجال المرحون فى الحانات ليتناولوا كأسا أو كأسين ، وبدت ميجالوكاسترو وسط الظلام كأنها جوعى تهيىء نفسها لوجبة المساء .

وكانت تلك هى الساعة التى تبدأ فيها الشقيقات الثلاث المعروفات بالعوانس العجائز فى الوقوف خلف بابهن متجاورات ، كل تنظر من خلال واحد من الثقوب الثلاثة التى جعلت فى الباب ، يتطلعن إلى المارة ويعلقن على حسن هذا وقبح ذاك ، كن عجائز شعرهن ناصع البياض ، وكذلك حواجبهن ورموش عيونهن الحمراوات منذ يوم ولادتهن وكأنها عيون أرانب ، ولم يكن يخرجن من البيت طوال اليوم ، وقيل إنهن لم يكن يحسن الرؤية فى ضوء الشمس ومن ثم يترقبن المساء بفارغ الصبر حيث يقف ثلاثتهن إلى الثقوب الصغيرة الثلاثة ويشاهدن من خلالها العالم يمر أمامهن ، ومن خلال هذه الثقوب لم تكن ذبابة تستطيع أن تفلت من نظرهن ومن ألسنتهن الحادة المسمومة ، وكان بيتهن يقع على ناصية شارع السوق فى النقطة التى ينتهى عندها الحى التركى ويبدأ حى الكريتيين ومن ثم فقد كن يشاهدن كل شخص .. ويطلقن على كل شخص اسما لا يستطيع بمرور الوقت أن يفلت منه ، هن اللائى أطلقن على الكابتن ميخايليس اسم «الدب المفترس » ، وهن اللاتى أسمين شقيقه المدرس « تيتيروس » ، لأن أباه أحضر معه فى إحدى المرات قطعة جبن كبيرة من القرية ، فسأله ابنه

It rups eiuai apros , natep المتعلم باللغة اليونانية الكلاسيكية (أى صنف من الجبن هذا ، يا أبى ؟ !) .. وسمعته العجائز العوانس الثلاث .. وأصبح الاسم .. « تيتيروس » ! .

وطوال النهار ، كن يطبخن أو يحكن الثياب أو يكنسن ، فلم يكن لديهن شيء آخر يقلقهن ، ليس هناك رجال أو أطفال يولينهم عنايتهن ، أما شقيقهن ، الرجل الذهبى ـ هبة الرب لهن ـ السيد / أريستوطوليس الكيماوى .. فبالرغم من أنه لم يكن متزوجا . فقد كان يقضى اليوم كله مشغولا فى صنع المساحيق أو المراهم ، مريضا ضيق النفس مصفر الوجه متورم القدمين من طول الوقوف .. ثم يعود إلى شقيقاته حاملا معه سلة مثقلة بكل ما فى السوق ، وقد اختيرت له يوما ما ـ أيام كان شابا ـ فتاة من عائلة طيبة تملك دوطة محترمة ، وكان من الممكن أن يصبح السيد أريستوطوليس زوج ابنة ممتازا وسط هذه العائلة ، فقد كانت صيدليته تقع فى قلب ميجالوكاسترو وفى الميدان الرئيسى لها ، وكانت زاخرة بالزجاجات والقوارير والروائح وأنواع الصابون .. وكان المدرسون والأطباء يتجمعون عنده كل مساء يناقشون كل مشكلات الدنيا ، فلا يفعل السيد اريستوطوليس اكثر من أن ينصت إليهم بعينيه الصغيرتين الزرقاوين المرهقتين ثم يهز رأسه الجريئة وكأنما يقول لكل واحد منهم : أنت على حق .. أنت على حق ؟ بينما هو فى الحقيقة لم يكن يفكر فى غير أن حياته على ظهر هذا الكوكب فى الطريق إلى الاختفاء ، كان يريد أن يتزوج حقا ، ولكن ليس لأنه يهتم بالنساء ، فالله لا يحب ذلك ! كلا .. وإنما لمجرد أنه كان يريد أن ينجب ولدا يستطيع أن يدير الصيدلية بعده ، ولكن : .. أين تذهب شقيقاته ؟ ! لابد أولا أن يتزوجن ـ فذلك هو المألوف .. ومن ثم ، فقد مرت الأعوام ، وابيض شعره .. وتخلخلت أسنانه .. وانحنى ظهره وتهدل خداه اللذان كانا يوما ما شابين حمراوين ، أصبح السيد أريستوطوليس عجوزا .. وأصبحت حياته فارغة ، وأصبح لا يشغله سوى مضغ المصطكى .. وهكذا ، أصبح صانع المراهم يمضغ ويمضغ طوال اليوم ، وعندما يأتى المساء يستمع إلى المعلمين والأطباء وهم يتناقشون ويتجادلون حول الإرادة الحرة والروح الخالدة وما إذا كانت عوالم النجوم مسكونة .. بينما هو لا يفتأ يهز رأسه ويقول لنفسه : حتى لو أننى تزوجت الآن ، فليس باستطاعتى أن أنجب ولدا .. لا أستطيع هذا الآن .. لا

استطيع أن أنجب ولدا .. ! ثم يضع الهاون فوق المائدة ، ويتابع مضغ المصطكى .. وهو يدق مساحيقه حتى ساعة متأخرة فى حرص وعناية .

واليوم ، .. بكرت العوانس العجائز فى الوقوف فى مراكزهن ، كان البرد شديدا ، وكانت شعورهن غير ممشطة وأذرعهن وسيقانهن غلب عليها التعب ! .. ولكنهن رغم ذلك ظللن واقفات فى « رجولة » على أقدامهن ينتظرن وقد الصقن أعينهن الياقوتية بثقوب التلصص وثبتن نظراتهن على الباب الأخضر لقصر نورى بك .

وقالت « أجلاجا » - وهى أوسطهن :

- ثبتن عيونكن هناك .. هناك شىء يطهى ، تذكرن ما قالته المرأة البربرية أمس !

- لقد عاد البك من قريته هذا المساء غاضبا مهتاجا ، أنا رأيته كذلك ، رأيته يندفع عبر الباب بعد أن فتحه بعنف بالغ .. وبعدها مباشرة سمعت صيحات وصرخات وتأكدت أنه يضرب خدمه مرة أخرى .

وأدلت « فيروسين » بدلوها :

- ومن هناك غيرهم ليضربهم ؟ ! .. الجواد ؟ ! أمينة ؟ ! .. وليس بجسده براغيث فيصرخ ! ..

وبينما كانت العجائز العوانس الثلاث يتهامسن ، بدا الشارع أمامهن فجأة وكأنه قد ازداد ظلمة ، وتراجعن ، وقلن .

- الكابتن ميخايليس ! !

ثم اندفعن ثانية نحو ثقوب التلصص .

وفى مواجهتهن فى الشارع ، كان الرجل ذو اللحية الرمادية الداكنة المجعدة يسير فى مهل ولكن فى نشاط وخفة .. يتنفس بعمق ، وقد تدلت ذؤابات عصابة رأسه فوق عينيه ، كان يسير بحذاء الحائط ويده تستريح على حزامه العريض وقد أمسكت فى صلابة بخنجر ذى مقبض أسود ، واحتك جسده أثناء سيره بالباب الذى كانت العوانس العجائز يراقبنه من خلال الثقوب فيه ، وعندها استدار لحظة وكأنما أحس بأن هناك ست أعين تراقبه ، وبرقت عيناه فى الظلام ، وأصابت العجائز رعدة وهن يحبسن

انفاسهن .. ولكن الرجل تابع سيره فى بطء حتى إذا توقف فى مواجهة البوابة الضخمة رمى بنظره حوله ! وكان كل شىء ساكنا ولا مخلوق هناك ، وفى قفزة واحدة عبر الزقاق الضيق دفع بوابة قصر نورى بك .. ودخل .

وتراجعت العوانس الثلاث .. ورسمت « أجلاجا » علامة الصليب وهى تقول :

ـ « كيرى إليسون ! » .. « هل رأيتما كيف دخل ؟ مثلما يدخل اللص ! »

ـ ماذا يريد « الدب المفترس » من البك ؟ ! لابد أن فى الأمر شيئا ، أراهن على أنه يريد أن يبيع له الجواد ..

ـ .. أو أمينة !

وبدأ الثلاث : اجلاجا وثاليا وفيروسين يثرثرن مرة أخرى

تقدم الكابتن ميخاليليس يجتاز عتبة الباب بقدمه اليمنى وهو ينظر حوله فى كل اتجاه ، وحدق فى الزنجى الذى كان ينتظره خلف الباب .. ذلك العجوز الأسود الذى ورثه نورى بك عن أبيه ، والذى يظل قابعا خلف الباب كالكلب طوال النهار وحتى منتصف الليل .. ولمسه الكابتن ميخاليليس بأطراف أصابعه فتراجع الرجل وسمح له بالدخول ، وسار الكابتن فى بطء بين صفين من الأصص الضخمة المليئة بالورود ، ولابد أنه كانت فى مكان ما من الحديقة شجرة ليمون مزهرة . فقد انتشر أريج أزهار الليمون يعبق الجو مختلطا برائحة الأرض المسمدة بالروث والمروية حديثا وفى أقصى الحديقة حيث يقوم المنزل العتيق متلألئا فى الفسق تناهى صوت مجلجل كان لايزال يشقشق داخل قفصه ، وبدت أضواء من خلال الشباك الخشبى المرتفع وسمعت ضحكات نسائية .. وتنفس الكابتن ميخاليليس الهواء التركى بالرغم منه ، وقد أحنى رأسه وهو يحدث نفسه :

ـ ما الذى جاء بى إلى هنا ؟ .. النتن التركى !

ووقف ساكنا لايزال أمامه وقت كاف : لم يره أحد سوى الزنجى ، ولا يزال فى مقدوره أن يعود من حيث أتى ، ولابد أن « شاريتوس » قد أسرج الفرس الآن ، ويستطيع هو إذن أن يمتطى صهوتها ويسابق بها الريح حتى الميدان الكبير لكى يهدىء من غضبه .. ولكنه أحس بالخجل .

ـ سوف يقولون إننى خائف .. تقدم .. تقدم يا كابتن ميخايليس !

وتابع سيره فى خفة حتى أصبح أمام الباب الرئيسى الذى كان مفتوحا ، وقد تدلى من أعلاه مصباح كبير مضاء ذو زجاج أخضر وأحمر اللون وقف تحته نورى بك وقد انعكست عليه الأضواء الخضراء والحمراء ، كان قد سمع صوت الباب الخارجى وعرف لمن الخطوات المقبلة فتقدم ليحيى ضيفه :

رجل جسيم وقور جليل الايماءات ، تطل من رأسه المستدير ، عينان لوزيتان داكنتان ، وقد أضفت عليهما أضواء المصباح بريقا أخاذا .. شاربه الكثيف تتضح فيه الصبغة السوداء ، كانت الأناقة الشرقية ممثلة فيه ! كان يشبه ذلك الأسد ذا الوجه القمرى الذى كانت النساء التركيات فى الماضى يطرزن رسمه فوق الأقمشة الفارسية ، كان يرتدى سروالا طويلا من الصوف الأزرق ، ولكن حزامه كان أحمر قانيا ، وعمامته التى تغطى شعره بيضاء كالثلج ، وكانت كتفاه معطرتين بالمسك وكانت رائحته هو كرائحة وحش مفترس فى حر ربيعى ..

تقدم خطوة إلى الأمام مادا يده بأصابعها القصيرة .. وهو يقول :

ـ لا تغضب منى ، يا كابتن ميخايليس لأننى كلفتك المجىء إلى بيتى ، ولكن الأمر هام ، وسوف ترى بنفسك أنه كذلك ..

وهمهم الكابتن ميخايليس وتقدم خلف البك إلى مجلس الرجال دون أن يتكلم ، ثم توقف لحظة قصيرة عند المدخل وكأنه يفكر فى غضب ثم اختلس نظرة إلى الخلف وتأكد أن أحدا لم يكن هناك .. وكان ثمة مصباح ضخم مضاء أمام الديوات ، وفحم مشتعل داخل جمرة برونزية كبيرة الحجم تنتشر من داخلها رائحة قشور الليمون وعلى المائدة المستديرة فى ركن من أركان المجلس جرة من البورسيلان ذات عنق طويل مليئة بشراب « الراكى » .. وكوبان .. وبعض الحلوى ..

وجلس الاثنان متجاورين فوق مقعد صغير ، وكانت جلسة الكابتن ميخايليس بالقرب من النافذة المطلة على الحديقة ، وأخرج نورى بك من داخل حزامه صندوقا حديديا داكنا مليئا بالطباق ومحلى فى وسطه بهلال منقوش بحبات اللؤلؤ .. فتحه وقدمه لصديقه .

ولف الكابتن ميخايليس لفافة (سيجارة) وكذلك فعل نورى بك ، وأخذ الاثنان يدخنان وقد صمت كلاهما بعض الوقت ، ثم تنحنح نورى بك وكأنه لا يدرى كيف يطرح الموضوع دون أن يجعل ضيفه يخطىء فهمه فيفقد أعصابه ، فقد كان يعرف أن ضيفه هذا ليس بالرجل الذى يقبل أن يدع ذبابة تروح وتجىء فوق سيفه ! وكان يدرك فى الوقت نفسه أن ذلك الذى يريد أن يقوله هذا المساء .. شىء ليس سهلا الدخول إليه ..

ـ هلا شربنا بعض الراكى يا كابتن ميخايليس ؟ إنه صنف معتق وجيد مصنوع من الليمون أحضرته خصيصا من أجلك .

ووضع يده فوق الكوبين علامة على أنه لا يريد أن يشرب .. ثم تساءل :

ـ ماذا لديك لتقوله لى يا نورى بك ؟ .

وسعل البك وسحق سيجارته وسط رماد المجمرة وهو ينحنى فوقها فيبدو وجهه فى مواجهة الفحم المشتعل كالنحاس الأحمر ..

ـ إذا كان لابد أن أتكلم ، فلا تسىء فهمى يا كابتن ميخايليس .

وتوقف قليلا حتى يحث اليونانى الأسمر على أن يقول شيئا ، ولكن الكابتن ميخايليس ظل صامتا فوقف البك واتجه نحو الباب وفتح قميصه عند العنق ثم عاد فجلس ، وأحس فجأة بأن حذاءه أصبح ضيقا .. فتخلص منه بخلعه ووضع قدميه عاريتين فوق الأرض فأحس بالراحة .

واستدار إلى زميله الأبكم ، وقد استقر رأيه على أن يتكلم ، ورفع يده ليبرم شاربه ، ولكنه مالبث أن أنزلها .. الحرص ! فإن الكابتن السريع الهياج قد يسىء فهم هذه الحركة ، أخيرا قال وهو يتنهد :

ـ أخوك مانوساكيس يجعل من تركيا أضحوكة وسخرية : فأول من أمس ـ الخامس والعشرين من مارس ـ كان ثملا كعادته وأدخل حمارا إلى المسجد ، ولقد جئت من القرية فوجدت رجالى وقد تجمعوا ، ورجالكم أيضا تجمعوا مسلحين ، وقد بدت بوادر متاعب خطيرة ، أنا أقول لك ذلك يا كابتن ميخايليس حتى لا تنفجر فيما بعد ، لقد رأيت من واجبى أن أقول لك ومن واجبك أن تسمع ، فافعل ما يقودك إليه الله سبحانه .

وقال الكابتن :

ـ صب الشراب ..

وصب البك الشراب .. وانتشرت رائحة الليمون .

ـ فى صحتك الطيبة يا نورى بك .

وأجاب نورى بك فى هدوء وهو ينظر إليه ..

ـ وفى صحتك .. .

وضربا كأسيهما أحدهما بالآخر ووقف الكابتن ميخايليس وأزاح ذؤابات عصابة رأسه إلى الخلف .

أهذا ما كنت تريد أن تقوله يا نورى بك ؟ ! .. أمن أجل هذا أرسلت فى طلبى ؟

وأمسك به البك من حزامه فى رقة :

ـ إذا كنت حريصا فلا تذهب ، هذه شرارة .. نعم ، مجرد شرارة .. ولكنها قد تسبب نارا يمكن أن تحترق بها قريتنا ، مر أخاك ألا يهين حكومتنا ، نحن أبناء قرية واحدة ، أبناء أرض واحدة ، فاجلس ودعنا نبحث الأمر .

ـ إن أخى أكبر منى بستة عشر عاما ، وله أولاد وأحفاد ويستطيع أن يدرك ما يفعله وأمامه سبع سنوات أخرى على الأقل يحسن فيها التبصر أنه يفعل ما يريد ولن تجدى معه أبدا كلماتى .

ـ أنت فارس القرية .. إن الناس فيها ينصتون جيدا إلى ماتقول .

ـ الكلمات عزيزة يا نورى بك .. ولا تخرج بسهولة من بين أسنانى !

عض البك شفتيه ولكن قلبه قسا فجأة ، وأخذ يتفحص الكابتن ميخايليس الذى كان قد نهض وبدأ ينظر نحو الباب متهيأ للخروج ، « هذا الكافر قد جاء سلالة من جذع وحشى منتصب ، ولأبناء جنسى ثارات قديمة عند هذا الرجل ، اليس كوستاروس ـ دنس الله بالقار جثته ! ـ هو أخوه الذى ذبح أبى عند الصخرة ؟ ! كنت لا أزال طفلا .. ووطنت نفسى على أن أصبر حتى أصبح قادرا بعد على أن أثأر للدم ، ولكنى كنت سيىء

الحظ ، فقد قتل الرجل الملعون فى (أركادى) ـ نسف نسفا ، بينما كان أبنه لايزال جروا صغيرا من العار أن أفكر فى قتله ، ولقد انتظرت حتى يكبر هذا الجرو ، ولكنه ما إن طر شاربه حتى هرب ، ذهب بعيدا .. قالوا إنه ذهب إلى الفرنجة لكى يتعلم .. فمتى يعود يا ترى ؟ ! .. إن دماء أبى تصرخ ! » ..

ونهض واقفا واتجه نحو الباب فوقف تجاهه والغضب فى أعماقه يعلو ويهبط وهو لا يدرى من أين يبدأ ، وأضاءت لحية الكابتن ميخايليس الشائكة فى ضوء المصباح .. اللحية التى قيل إنه أقسم ألّا يحلقها حتى تتحرر كريت ، ولمعت عينا نورى بك فى احتقار ، فلينتظر إذن هذا الكافر إذا لم يكن ذلك يضايقه ، ولتطول حتى تصل إلى ركبتيه أو حتى إلى الأرض .. نعم ، .. لتصل إلى الأرض ولتضرب بداخلها جذورا .. ولكن كريت ـ أبدا لن ترى الحرية ! منذ خمسة وعشرين عاما قتل منا من قتل أمام حوائط فيجالوكاسترو قبل أن تسقط فى قبضتنا ، ولن ندعها تفلت ، ولن تدعنا هى نذهب ، لقد أصبحت جزءا من أجسادنا .

وتذكر أباه .. تذكر المسلمين الذين لقوا حتفهم فى الخنادق حول ميجالوكاسترو . إن نهرا من الدماء يجرى بينه وبين الكابتن ميخايليس ..

وقال الكابتن ميخايليس وهو يرفع يده ليزيحه جانبا ويخرج :

ـ دع الموتى يهدأون يا نورى بك وكف عن هذا الفحيح ! ـ إن ما تريد أن تفعله محال تحقيقه .

ولكن نورى بك كان رجلا ثابتا قويا ، فكظم غضبه ، وقال فى صوت رقيق :

ـ لاتذهب يا كابتن ميخايليس .. لاتذهب هكذا بهذه الأفكار الوحشية كما لو كنا قد تشاجرنا ، وإذا كنت ترى كلماتى قاسية فإننى أسحبها ، اعتبر أننى لم اقل شيئا وأنك أنت لم تسمع شيئا ، ألسنا صديقين لها لقد أرسلت فى طلبك لكى نشرب معا ونتذوق معا لقمة لذيذة ، إنها فطيرة من قريتنا ـ أحضرتها معى الآن ، ورأيت أن نأكلها معا ونحن نتذكر الأيام الخوالى .. أيام كنا صغارا .. أيام كنا نلعب معا .. الأيام الخوالى الحلوة فى قريتنا يا كابتن ميخايليس ..

ـ أنا لن آكل .. فهى أيام الصيام عندنا .

وأمسك به نورى بك بكلتا يديه وقال فى اعتذار شديد :

ـ أقسم لك بالرسول محمد أننى لم أكن أعرف ذلك ، ولو كنت قد عرفته إذن لكنت أعددت لك بعض الكافيار الأسود .

وملأ الكأسين .. وقال وهو يرفع كأسه :

ـ فى صحتك يا كابتن ميخايليس ، أنا سعيد لأنك قبلت المجىء هنا إلى بيتى لتشرب معى بعض الراكى .. انظر .. ! فليسل دمى مثل هذا إذا كنت أضمر لك أى شر .

قالها وهو يسكب بضع قطرات من الشراب على الأرض وتراجع الكابتن ميخايليس وجلس مرة أخرى فوق المقعد الصغير إلى جوار النافذة .

ـ أنا أيضا لا أضمر لك شرا يا نورى بك ، ولكن من الشرف أن يزن المرء كلماته .

ثم أفرغ كأسه فى جوفه .

وساد الصمت مرة أخرى .. وأحس البك بالحرارة فنهض وفتح النافذة ..

وفى الخارج ـ فى الحديقة ـ كانت نافورة صغيرة تنثر رذاذا باردا منعشا فيحمل معه إلى الداخل رائحة الورود وأشجار الليمون ومرة أخرى سمعت ضحكات نسائية من الحرملك ..

وظل الرجلان صامتين ، وأجهد نورى بك نفسه لكى يجد وسيلة يستأنف بها حديثا آخر جديدا بينما كان الكابتن ميخايليس ينصت إلى خرير الماء وإلى الضحكات .. ويستنشق أريج الحديقة ـ ومرة أخرى عاد قلبه يدق بقوة .. أهذه هى كريت ؟ ! ضحكات وعطر .. وأنت تشرب الراكى مع الأتراك ؟ ! .. كان يفكر .. وفجأة أغلق النافذة ..

وقال نورى بك وهو يملأ الكاسات :

ـ لا تغضب يا كابتن ميخايليس ، لقد فتحتها دون أن أسألك .

وانتبه الكابتن ميخايليس .. وحدق فى التركى ، لقد ولدا فى نفس القرية ، الأول بك له كل شيء ، والآخر « رعية » ـ أدنى من كلب ! .. كان أبوه ـ كابتن « سيفاكاس » يملك البيت المصنوع من الحجارة ، ولم يكن مسموحا له فى تلك الأيام بأن يمتطى صهوة جواد ، فكان يركب حماره الصغير ويسرع بالنزول من فوق ظهره كلما رأى عددا من الكريتيين ـ هانى على » والد « نورى » هذا .. لكى يسمح للرجل العظيم بالمرور ! وفى إحدى الأمسيات كان الكابتن سيفاكاس معتل المزاج فلم يترجل ، وهكذا ، رفع « هانى على » سوطه فنزفت الدماء من الرأس التى حاولت التحدى .. ولم يقل الرجل العجوز شيئا ! ولكنه ضم جوانحه على ألمه وظل ينتظر أن الكريتى ليس كالألبانى .. الكريتى يفكر جيدا ! وسوف يأتى اليوم الذى سيدفع فيه الثمن .. ولم يكد يمر عام واحد حتى اندلعت ثورة ١٨٦٦ ، وحتى تصدى ولده الأكبر « كوستاروس » فى إحدى الليالى للسفاح « هانى على » خارج ميجالوكاسترو فذبحه كما تذبح الشاة فوق صخرة فى كهف « بينديفيس » . ولكن : هاهو ذا ولده : يأخذ مكانه على العرش فى ميجالوكاسترو داخل هذا القصر الضخم ذى التحف والنافورات والشبابيك الخشبية ذى الضلف الشبكية ، يأكل ويشرب ويقبل النساء ويمتطى صهوة جواده فى الأمسيات الرائقة عبر الحى اليونانى وحوافر جواده تخرج الشرار من الأرض .

وأخرج صندوق الطباق ولف لنفسه سيجارة ، وامتلأت خياشيمه بالدخان ، ترى ، أهو يكره هذا التركى الجالس إلى جواره ، أم هو معجب به ! ! أهو يشمئز منه ؟ ! لقد طالما سأل نفسه هذا السؤال دون أن يصل إلى إجابة عليه وعندما يتقابل الاثنان مصادفة داخل أزقة ميجالوكاسترو الضيقة ، أو خارجها وهما على ظهور الخيل .. كان الكابتن ميخايليس يتطلع إلى وجه نورى بك الصافى السمح فيحس قلبه بالبهجة ولا يدرى كيف ! .. أيقتله أم لا ـ أيحتضنه كصديق قديم بأحسن لقاء ؟ !

كانا يوما ما طفلين صغيرين يلعبان معا فى قريتهما ، يثيران غبار الأرض ، ويتسابقان ويتصارعان ويلقى أحدهما بالآخر ويضحكان .. ويتشاجران .. وفى إحدى الأمسيات ـ عندما أصبحا رجلين ـ تقابلا وكل على ظهر جواده عند هذا الجانب من إقطاعية نورى بك التى تبعد ساعة عن ميجالوكاسترو وبالذات عند كهف « بينديفيس » .. لحظتها سارا صامتين

بعض الوقت .. ولكن في تبرم وضيق ، ففي تلك الأيام كان الاتراك الكريتيون يقتلون ، وكانت كريت قد اشتعلت نارا مرة أخرى حين حاولت « الرعية » مرة أخرى أن ترفع رأسها ..

سارا دون أن ينطق أحدهما بكلمة حتى لاحت للأعين تلك الحوائط الفينيسية المشهورة وقد اكتست بحمرة الشمس الغاربة ، ولحظتها قال الكابتن ميخاليليس لنفسه : « هذا الكلب .. لم أعد أستطيع أن أتحمل منظره وهو يمتطىء فرسه ليلهو داخل الحي اليوناني ويفتن النساء فيه » .. ولحظتها أيضا كان نورى بك يقول لنفسه : « لم أعد أحتمل هذا الكافر .. في كل مرة يستبد به السكر يخرج من بيته ، ويمتطى صهوة جواده ، ويهين الأتراك ، في العام الماضي أمسك بي من الوركين ورفعني مثل الغرارة حتى وضعني فوق سقف دكانه ، وجاء الناس يتقاطرون .. ! ووضعوا سلما كيما أنزل بينما ضحكاتهم ترتفع ! .

واحمرت وجنتا نورى بك .. واستدار في غضب نحو الكابتن ميخاليليس :

ـ كابتن ميخاليليس .. إما أن أقضى عليك ، وإما أن تقضى أنت علىّ ، لا مكان لنا نحن الاثنين معا في ميجالوكاسترو .

ـ اختر إذن سلاحك يا صديقى نورى بك ، هل اترجل حتى نبدأ ؟ !

ولم يجب نورى بك ، فقد استقرت نظراته فوق اليوناني الراكب إلى جواره ، وامتلأت عيناه بمنظره البطولى « ياله من رجل » ! ، ياله من كبرياء ويالها من شجاعة ! إنه أبدا لا ينطق بما لايلزم النطق به ولا يدعى ! إنه لا يتشاجر مع من هم أقل منه ، وهو لا يعرف الغدر ولا يحترم حتى الموت ، سعيد ذلك الرجل الذى عدوه من هذا الصنف من الرجال ! »

أخيرا .. تكلم :

ـ ليس بهذه السرعة يا كابتن ميخاليليس ، سوف يكون ذلك مؤسفا .... أنا اسحب ماقلت ، نعم : أنا أومن بأنه لا محمد ولا المسيح يريدان ذلك ، أنا أومن بأنك محارب أصيل ، وكذلك أنا .. وينبغى بالفعل أن تسيل دماؤنا .. ولكن بطريقة أخرى .

ـ طريقة أخرى ؟ !

ـ نعم .. لنصبح اخوين فى الدم ..

وتابع الكابتن ميخايليس سيره وقد أحس كأنما قلبه ينتفخ ويصعد إلى حلقه ، وظل لحظة لا يكاد يسمع سوى اختلاج الدم فى عروقه حتى إذا هدأ .. وعاد يدرك حقيقة ما سمع ، اجتاحه هياج شديد .. ربما كان سرورا لفكرة امتزاج دمه بدم هذا البك الشاب الذى تربى وبسط رائحة المسك ، فكرة الا يصبح بعد مجبرا على قتله ، وأن يقاوم دوما الاغراء الذى ينتابه كلما وقع عليه بصره .. بأن يشدد قبضته على خنجره .

كان الرجل رائعا حقا بصرف النظر عن كونه من الاتراك ، كان حقا فخر ميجالوكاسترو دون أن يعدو أحد الحقيقة فى ذلك ، كان عطوفا ، كريما ، نبيلا .. كان رجلا .. نعم رجلا عليه اللعنة !

ويشد إليه العنان فتوقف الفرس لحظة ، والهب نورى بك جواده فأدرك الفرس وراكبه ..

وقال الكابتن ميخايليس دون أن ينظر إليه :

ـ لا بأس ..

وتابع الاثنان سيرهما دون أن ينطقا بكلمة حتى بلغا اقطاعية البك ، ودخلا إلى فناء أسرع إليهما فيه أحد الخدم فساق الجوادين إلى الاسطبل بينما صفق البك بيديه فظهر خادم آخر .. وانحنى ..

ـ اذبح ديكا .. هذا الديك الكبير الذى يكسوه الريش تماما ، واحضر لنا بعض الخمر المعتقة .. وجهز سريرين وافرشهما بملاءات من الحرير ، سوف نأكل هنا وننام ليلتنا ، واذهب واغلق الابواب ..

وأصبحا وحدهما ، وركع الاثنان متجاورين ومتقابلين تحت شجرة الزيتون المثقلة بالبراعم والتى تنتصب فى شموخ وسط الفناء .. وكانت الشمس قد غابت ، وبدأت النجوم تتلألأ ويلوح لالأؤها خلال اوراق الزيتونة .

ونهض نورى بك واتجه إلى البئر يبحث عن الكوب البرونزى المعلق هناك ليشرب فيه المسافرون ويرفعوا الأكف بالدعاء لبانيه ، هانى على ، ثم عاد وجلس القرفصاء ، وقال وهو ينزع خنجره من حزامه :

ـ باسم محمد وباسم المسيح ..

ورفع الكابتن ميخايليس كم سترته الأيمن وكشف ذراعه المفتولة التى لوحتها أشعة الشمس ، وانحنى نورى بك إلى الأمام وغرس طرف الخنجر فى أحد عروق الذراع الثابتة فانبجس الدم حارا داكنا وتلقاه نورى بك بالكوب البرونزى حتى إذا بلغ سمك أصبع ، رفع عن رأسه عصابتها ولف بها الذراع المجروحة ..

ـ وهذا دورك يا كابتن ميخايليس ..

ـ باسم المسيح ومحمد ..

وأخرج خنجره وغرسها فى ذراع البك ، فانبجس منها الدم يتلقاه بالكوب البرونزى ، ثم نزع عصابة رأسه ولف بها الذراع ..

ووضعا الكوب بينهما .. وبدا يمزجان الدماء معا بخنجريهما ـ دون أن ينطق أحدهما بكلمة ..

وكان الليل يتقدم ، وارتفع الدخان من مدخنة الضيعة فقد كان الخدم يتناولون طعامهم فى المكان المخصص لهم .. ومسح كل منهما خنجره فى ثنايا شعره ثم وضعاهما فى حزاميهما ..

ـ إننى أشرب فى صحتك يا كابتن ميخايليس يا شقيقى فى الدم ! وأقسم لك ـ نعم اقسم بمحمد أننى ابدا لن أؤذيك ، لا بالكلمة ولا بالفعل ، لا فى الحرب ولا فى الرخاء ، الشرف بالشرف ، الرجولة بالرجولة ، الولاء بالولاء ! امامى يونانيون كثيرون آخذ بثأرى منهم ، وأمامك أنت أتراك كثيرون تأخذ بثأرك منهم !

ورفع الكوب إلى شفتيه وبدأ يشرب الدم المختلط .. قطرة قطرة ، حتى إذا أتى على نصفه مسح شفتيه ، وقدم الكوب إلى الكابتن الذى أمسك به بين يديه وقال :

ـ إننى أشرب فى صحتك يا كابتن ميخايليس ، يا شقيقى فى الدم ، وأقسم لك ـ نعم أقسم بالمسيح ، أننى أبدا لن أؤذيك ، لا بالكلمة ولا بالفعل ، لا فى الحرب ولا فى الرخاء ، الشرف بالشرف ، الرجولة

بالرجولة ، الولاء بالولاء ، أمامى أتراك كثيرون اخذ بثأرى منهم ، وأمامك يونانيون كثيرون تأخذ بثأرك منهم !

ثم شرب ما تبقى من دم فى الكوب دفعة واحدة .

فتح الكابتن ميخايليس النافذة وألقى بسيجارته فبدت كنجمة حمراء صغيرة ، فى إصيص ورود ، واضحة وسط السبخة المروية حديثا ، ثم نهض واقفا وقد بدا وجهه كالحا .. بينما مال البك بجسده إلى الوراء ثم نهض واقفا هو الآخر ..

ـ انا لم أنس ، ولعل ذلك هو السبب فى أن أحدنا لايزال حيا حتى الآن .. فقد عادت إلى ذاكرته كالبرق تلك الأمسية التى امضياها تحت الزيتونة .. ودور الشراب السعيد مع النبيذ المعتق .. والنوم العميق تحت الملاءات الحريرية .. ورفع الزجاجة ، وملأ كأسه وشرب .. وعاد فملأها وشرب .. ثم جلس وهو يقول :

ـ أليس عندك قزم فى هذه الدار ؟ ! مهرج ؟ ! فاطلبه إذن ومره بأن يرقص لنا أو يدق طبلة او يغنى .. سوف انفجر إذا لم يكن ذلك ..

وسعد نورى بك ، فقد رأى أن الهياج بدأ يأخذ مجرى طيبا ، ولعله أن يغرق فى الشراب ويدفن فيه ، لابد من رقية تقذف به بعيدا !

وأحس برغبة فى أن يفعل شيئا كبيرا ، شيئا من أجل شقيقه فى الدم لم يسمع بمثله من قبل .. شيئا يتجاوز الصداقة والحب يستطيع عن طريقه أن يستأنس هذا الرجل المكتئب ويبسط به أسارير وجهه ، وأخذ يعصر ذهنه ويجول وهو فى مكانه بكل ركن من أركان الدار لعله أن يعثر على شيء من أجل شقيقه فى الدم ، ماذا يعطيه يا ترى ؟ ! قطع ذهبية أثرية يخرجها من صناديقها أم أسلحة مفضضة من المعلقة فوق الحوائط ، أم قطع من القماش من الصوف والحرير ، أم دنان خمر معتقة من مخزن الخمور ؟ ! وفجأة استقر ذهنه عند تلك المشربيات التى ضربها حول أغلى كنوزه على الاطلاق ، واستدار إلى ضيفه وهو يضحك :

ـ سوف أفعل من أجلك الليلة شيئا يسرك .. شيئا لم يفعله تركى واحد من قبل إلا لأخيه ..

ونظر إليه الكابتن ميخايليس ولكنه لم يقل شيئا ، وعاد يملأ كأسه من جديد ، ووقف نورى بك ، واتجه إلى الباب القصير الذى يؤدى إلى الحرملك وصاح :

ـ ماريا !

وجاءت امرأة بربرية تهرول هابطة الدرج .. امرأة عجوز بلا أسنان . جافة كقش البقول وحول عنقها صليب .

ـ قولى لسيدتك أن تحضر الماندولين وتنزل إلينا .

ورفعت المرأة البربرية بصرها دهشة فزعة ، وحدقت فيه .

وصاح نورى بك وهو يدفعها :

ـ هيا !

وأعاد الكابتن ميخايليس الكأس التى لم تكد تلمس شفتيه ، واستدار نحو نورى بك وهو يغمغم :

ـ ماذا ؟ !

ـ أريد أن أسعد شقيقى فى الدم .. إننى أثق بك ..

ـ ليس فى هذا شيء يسر ، ليس فيه سوى العار لك ، والعار لزوجتك كذلك .. العار فى أن تسمح بظهورها أمام شخص غريب ، والعار لى أن أيضا حين أرفع بصرى لأنظر إليها ..

وقال نورى بك فى شيء من الاضطراب :

ـ أنا أثق بك .

وكأنى أحس لحظتها بالأسف لما أمر به ، ولكنه خجل من أن يتراجع عن قراره .

ووقف .. ووضع وسادة من الريش فوق أريكة فى ركن المكان ، وأخرى إلى الحائط من أجل الهانم لتستند إلى شيء ناعم ، ووقف الكابتن ميخايليس هو الآخر وخفض ضوء المصباح حتى يغمر الحجرة ضوء

هادىء رقيق ، ثم أخرج من منطقته مسبحة من الأبنوس اخذ يداعب حباتها فى عصبية وقد جعل بصره إلى الأرض .

وتعالت أصوات نسائية في الطابق العلوى مختلطة بوقع أقدام سريعة وأبواب تصفق ، وهرولة ، وماء يصب .. ثم ساد الصمت لحظة .

ورفع الكابتن عينيه وهو يفكر : « لن تأتى هذه الكلبة ، إنها متوحشة ، شركسية نافرة ، هذا افضل .. أفضل تماما .. اى روح شريرة تبقينى هنا ؟ سوف أخرج ! » .

وفى ذات اللحظة التى قرر فيها أن ينهض ليخرج ، سمع صرير درجات السلم ، درجة بعد درجة ، ولمع لألاء عقود واقراط ، وهرع نورى بك ليفتح الباب القصير .. ويضع يديه فوق صدره ثم ينقلها إلى شفتيه وجبهته مرحبا وهو يقول فى رقة :

- مرحبا بأمينة هانم .. مرحبا .. مرحبا ..

وفى إطار الباب ، وعلى الضوء الخافت الرقيق ، برزت فى لألائها سيدة شابة وجهها مستدير كالقمر مثل وجه نورى بك كشف لون جسدها الأبيض المشوب بالحمرة ، بعينين واسعتين ناعستين ، ووجنتين وشفتين علتهما الحمرة .. واهداب مكحولة .. ولوحت اظافرها ويداها مخضبة بالحناء وهى تمسك بماندولين براق كأنه الطفل بين ذراعيها ..

وتقدمت فى خطوات رشيقة بقدميها الصغيرتين بخفهما الأحمر الرقيق .. وهى تدير عنقها لترى ظل الرجل قريبا من النافذة ، ثم تصرخ فى فزع .

وأمسك بها نورى بك فى رقة وهو يقول :

- لا تخجلى يا حبيبة قلبى ، إنه شقيقى فى الدم الذى طالما حدثتك عنه ! الكابتن ميخايليس ! إن قلبينا مثقلان الليلة ، فهيا يا حبيبتى ومتعينا بالعزف على المندولين ، وغنينا من أغنيات بلادك من أجل هذا رجونا أن تنزلى إلينا يا حبيبة القلب .

وأنصت الكابتن ميخايليس وعيناه لاتزالان مثبتتين إلى الارض ، وقد قبض بمخالبه على المسبحة وكأنه يريد أن يفتت حباتها ، إنه طالما سمع

بجمال هذه البنت الشركسية وبوحشيتها وبغنائها فى الأعياد يتسلل عبر المشربيات الخشبية ويثير الاضطراب بين الجيران فيزحف الأتراك والكريتيون ذوو الجرأة إلى إركان الشارع وسط الظلام كى يستمعوا إليها وهم يتنهدون كالمراهقين حتى يبعدها نورى بك عن المشربيات وهو يضم صدرها إليه فيحس كأنه يضم الدنيا بأسرها !

وتناهت إلى خياشيمه رائحة المسك التى غمرت المكان بمجرد أن تقدمت الهانم نحو الركن الذى أعده البك لجلوسها .. ومرت بحذائه وهى ترميه بنظرة خاطفة في نفس اللحظة التى رفع فيها الكابتن ميخايليس عينيه .. والتقت النظرتان ، ثم انحسرتا على الفور .. كلاهما وحشية !

وجلست الهانم القرفصاء فوق الوسائد .. ثم غمغمت تريد أن يراها الاثنان جيدا :

ـ يا له من ظلام ..

ونهض نورى بك واقفا .. ورفع ضوء المصباح ، وغمر الضوء الحجرة ، وسقط رفيقا فوق وجنتى الشركسية ويديها وأحاطها بهالة من النور الأحمر .. واختلس الكابتن ميخايليس نظره إليها ، ولكنه سرعان ما خفض بصره وحبات المسبحة تئز تحت اصابعه .

وقالت الشركسية وقد ارتعشت خياشيمها :

ـ مساء الخير يا كابتن ميخايليس .

وجاء صوت الكابتن من ذات حلقه مرتعشا :

ـ مساء الخير يا أمينة هانم .. معذرة !

وضحكت الهانم ، فهناك فى بلادها تعمل النساء غير محجبات جنبا إلى جنب مع الرجال ، ويمتطين صهوات الخيل ، وهناك يستمتع الرجل بالمرأة وتستمتع المرأة بالرجل حتى يكتفى الاثنان ! .. ولكنها أخذت من هناك صغيرة حين باعها أبوها لأحد الباشوات المسنين فى القسطنطينية ، حتى اشتراها هذا البك الكريتى ، وكانت قد هيأت نفسها لئلا تعيش مع الرجال أو لمرآهم بهذه الصورة ، ومن ثم فإن خياشيمها كانت تهتز كحيوان جائع كلما التقت بأحد الرجال .

كانت طوال النهار ، تقبع خلف نوافذ المشربيات وترقب الشبان من الاتراك أو الكريتيين وهم يروحون ويجيئون فتحس بالألم فى صدرها ، وحينما كانت تخرج للنزهة فى حجابها الحريرى وبجانبها وصيفتها البربرية تتعثر خلفها .. كانت تستمتع بالمرور بحذاء المقاهى المليئة بالناس أو فى منطقة الميناء التى تزدحم بالحمالين والبحارة ، أو عبر بوابات القلعة حيث يمر الفلاحون الشعث الغبر الذين يسيل عرقهم ، وعندها كانت الشركسية تتنفس بعمق وقد أحست بأنها لم تعد تحتمل رائحة الرجل أكثر من ذلك !

ومرة استدارت إلى وصيفتها وهى تقول :

ـ وحق الله يا ماريا : لولا نتنهم لما كنت اجىء إلى هنا لأراهم !

ـ من تعنين ياطفلتى ؟ !

ـ الرجال . الرجال ! ترى ، كيف كان حالك معهم أيام كنت شابة ؟ !

وقالت المرأة البربرية وهى تتنهد :

ـ كنت أومن بالمسيح يا طفلتى ! !

ونظرت إلى الكابتن ميخايليس فى صمت ، لطالما حدثها البك عن الكابتن فى لهجة إكبار .. وها هو ذا يجلس أمامها ! أى شىء لم تسمع به عن أعماله الخارقة وسكره ووحشيته ؟ ! .. وعن أنه لا يحب الحديث عن النساء أو الاستماع إلى أحاديث عنهن .. وها هو يجلس أمامها ـ زوجها نفسه هو الذى جاء به إلى هنا ..

وقال نورى بك :

ـ أمينة يا حبيبة القلب ، غنى من أجلنا اغنية شركسية تنسينا هموم الدنيا . نحن رجلان .. فاشفقى علينا ..

وقهقهت الهانم ، وأرست الماندولين إلى حجرها ، وأصدرت عنه نغمات عالية سريعة .. ثم التفت براسها إلى الوراء وسألها البك فى سعادة :

ـ ماذا ستعزفين لنا يا زوجتى .

ـ سوف ترى .

وبدأت نغمات الماندولين تصبح أكثر سرعة ، وأخذت هى تتمايل وتترنح فى الضوء الخافت مثل وحش حبيس وهى تلهث ، وفجأة ، انطلق من أعماقها ـ وعبر حلقها المنتفخ ـ صوتها الهادر ! .. واهتزت الدار .. وأحس الكابتن ميخايليس بأن شيئا يخترق جسده .. اى ثورة ؟ ! .. أى نار يحس بها فى قبضتيه وفى حلقه وفى كل حنايا جسده ؟ ! الجبال ضحكت ، والسهول غدت قرمزية بالجنود الاتراك الذين يملأونها ، وفوقهم كان ينطلق الكابتن ميخايليس كالعاصفة وهو يمتطى صهوة جواد نورى بك ، وخلفه آلاف من أبناء كريت وحول جباهم عصابات الرأس السوداء ، ولا أحد أمامه ! القرى صاحت ! .. المآذن تقصعت مثل أشجار سرو ساقطة ! .. الدماء ارتفعت حتى بلغت بطن جواده ..

وشد الكابتن ميخايليس بقبضتيه على جسده ، وسكتت الشركسية فجأة ، وفجأة أيضا وقف العالم ثابتا أمام ناظريه ، كانت هناك كريت ، وكانت ميجالوكاسترو ، وكانت ضيعة البك ، وحدق البك هو الآخر فى أمينة .. وتنهد .. وشرب .. لقد نسيت الروح تهويمها ، وعادت مرة أخرى إلى سجنها .

وساد الصمت لحظات ، واخيرا ، تململت أمينة وهى تربت بيدها على المندولين المستقر فوق ركبتيها ، ثم قالت :

ـ كانت هذه أغنية شركسية قديمة ، الناس يغنونها هناك عندما يمضون إلى الحرب .

ونهض نورى بك واقفا وقد أخذت ركبتاه ترتعشان رعشة خفيفة واتجه نحو زوجته ورفع كأسه :

ـ فى صحتك يا أمينة ، هناك ثلاثة أشياء أحبها ، الرائحة الطيبة ، والمرأة والغناء ، وأنت يا أمينة تسعديننا بها كلها ، فلتعيشى لنا ألف سنة ـ بل ألفى سنة ... !

وأفرغ كأسه فى جرعة واحدة ، ومصمص شفتيه واستدار إلى الكابتن ميخايليس ، وقال وهو يملأ له كأسه :

ـ اشرب يا شقيقى فى الدم ! إشرب أنت أيضا فى صحتها .

ولكن الكابتن ميخايليس وضع أصبعين داخل الكأس المترعة ثم ضغط

بهما إلى الخارج فتحطم الكأس إلى قطعتين : وسالت الخمر فوق المائدة .. وصاح فى ضيق وعيناه مضطربتان :

ـ كفى !

وصرخت أمينة ، وقفزت من فوق الأريكة وهى تحدق فى الكابتن ميخايليس والدموع فى مآقيها ، أبدا لم تر مثل هذه القوة فى يد رجل من قبل . واستدارت إلى زوجها فى تحد وهى تقول لاهثة الأنفاس :

ـ هل تستطيع أن تفعل مثل ذلك ؟ ! .. هى تستطيع ؟ !

وشحب وجه نورى بك ، واستجمع كل قوته فى أصابع يده اليمنى ، وأوشك أن يضع أصبعين داخل الكأس الأخرى ليحطمها ، ولكنه تراجع والعرق البارد يتصبب منه ، فقد أحس بأنه يهان أمام زوجته ، وحدج الكابتن ميخايليس بنظرة حالكة .. ها هو مرة أخرى يجعل منه سخرية ! .. شىء لم يعد يحتمله !

وجذب أمينة من ذراعها وهزها بعنف كالمجنون .. وصاح :

ـ اصعدى إلى غرفتك .

وعادت أمينة تكرر ووجنتاها ملتهبتان :

ـ هل تستطيع أنت أن تفعل ذلك ؟ هل تستطيع أن تفعل ذلك ؟ ! .. هل تستطيع أنت أيضا أن تفعل ذلك ؟ ! .

وعاد البك يأمرها :

ـ اصعدى إلى غرفتك ! .

ثم جذب المندولين وضرب به الحائط فتناثر قطعا ..

وضحكت الشركسية ضحكة جافة ساخرة ..

ـ نعم ، هذا ما نستطيع أن تفعله ـ تحطم المندولين ، نعم ، « هذا » هو ما تستطيعه يا نورى ! .

وانسلت من فوق الأريكة وهى تمس الكابتن ميخايليس وثوبها يلامس ظهر يده ومرة أخرى فاحت رائحة المسك ، وأحس الكابتن ميخايليس كأنما

يده تحترق ، بينما رسمت هى بيدها الساخرة وهى تبتسم ـ دائرة حول نورى ـ مرة ومرتين ـ ثم دفعته مداعبة وهى تضحك .. وفجأة انطلقت تعدو نحو الدرج .. ثم اختفت .

وظل الرجلان واقفين تجاه أحدهما الآخر فى وسط الغرفة ، وداعب البك شاربه وصدره يعلو ويهبط فى عنف بينما كان الكابتن ميخايليس يعض على شفتيه الجافتين عابسا وهو ينظر إليه وقد وضع كل منهما يده على مقبض خنجره .

وأخيرا تكلم نور من بين شفتين حاقدتين نصف مفتوحتين .. قال فى فحيح :

ـ كابتن ميخايليس .. اخرج .

نورى بك .. سوف أخرج فى الوقت الذى يناسبنى .. خذ الكأس الصحيحة واملأها لى ..

وضغط البك على مقبض خنجره ورمى ببصره إلى المصباح ، وفكر لحظتها فى أن يطفئه ليصبح الاثنان وسط الظلام ، ثم يتصارعا حتى يموت أحدهما ، ولكن قلبه لم يحزم الأمر بعد .

وعاد الكابتن ميخايليس يقول فى بطء :

ـ خذ الكأس الصحيحة واملأها لى .. وإلا ، فلن أخرج ..

واستدار نورى بك إلى المائدة .. وتقدم خطوة واحدة ثقيلة كأنما رصاص يثقل ساقيه ، والعرق يغرقه .. ثم ملأ الكأس ويده ترتعش والشراب يسيل فوق الفطيرة .

وأشار إلى الكأس :

ـ اشرب ..

وقال الكابتن ميخايليس .

ـ ناولنى الكأس ..

ورفع البك الكأس وهو يئن من الغضب ، ودفع بها إلى راحة الكابتن ميخايليس الذى رفعها إلى فمه وهو يقول فى فتور :

ـ فى صحتك يا نورى بك سوف أفعل ما طلبته منى ، وسوف أخبر أخى بألا يتعرض لتركيا بالاهانة ..

ثم بلل شفتيه ، وأحكم عصابة الرأس فوق جبهته واتجه إلى عتبة الباب ..

والقى المصباح ضوءا أخضر وأحمر فوق الحديقة الساكنة المظلمة ، بينما كان الكابتن ميخايليس يسير فى هدوء وبطء فى اتجاه الباب المؤدى إلى الشارع دون أن ينظر حوله .

ساد الظلام .. وكانت ميجالوكاستررو تتناول وجبة العشاء وهى ، تتثاءب وترتعش وتغلق نافذة اثر أخرى .. وترسم علامة الصليب .. وتدلف إلى الفراش ، وكان هناك بعض الذين أخرتهم أعمالهم لايزالون يتحركون فى الطرقات .. وبعض العشاق يتعانقون تحت النوافذ المغلقة .. وهنا وهناك ، كانت الثرثرات المنهوكة تسمع من الأقباء المسكونة ، عمال الليل ..

وكانت العوانس الثلاث قد تجمدن من أثر وقفتهن يتلصصن خلف بابهن بينما كان الكابتن ميخايليس يسير الهوينا عائدا والظلام يشتد حلكة ، أما شقيق العوانس الثلاث فكان قد عاد إلى بيته عابسا منهوك القوى وجلس الأربعة إلى المائدة يتبادلون بضع كلمات قليلة ، ماذا سيأكلون غدا .. ليس هناك فحم كاف .. لازيت للسلاطة .. ولا زيت للمصباح .. كيف ينبغى على أريستوطوليس أن « يرم » عظامه ! .. تكلموا ، وأكلوا ، ثم رفعوا المائدة ، وأعدوا الشاى ليساعد على الهضم ، وارتدوا ملابس النوم الطويلة .. ورسموا علامة الصليب ، ولكن أفكار العوانس الثلاث كانت عند الباب الأخضر !

وتابع الكابتن ميخايليس سيره إلى البيت عن الطريق الأطول ، وقد أحس بأن الجدران الأربعة لن تقدر على احتوائه فى ليلته تلك ، وبأن قلبه منتفخ لم يعد فى جسده مكان له ، وبأنه حتى ميجالوكاسترو أصبحت أضيق من أن تتسع له .. تابع سيره والبيوت والأزقة والناس تبدو كما لو كانت جميعا تخنقه ، ثم أوسع الخطى وقد كشر عن أسنانه كوحش مطارد حتى وصل إلى الشارع الرئيسى الذى كان خاليا ومصابيح البترول على طوله تلقى بأضوائها الحمراء الشاحبة على الأرصفة ، ومر بحذاء السوق

وكان ثمة مطعم تركى لايزال يفتح أبوابه ، وكذلك مقهى وحانة أو حانتان ، وسمع شخصا يناديه ، وبدا الصوت كما لو كان صوت الكابتن بوليكسيجيس فأوسع الخطى أكثر حتى أصبح بحذاء باب قصر الباشا والنافورة المرمرية ذات الطراز البندقى والأسود المنحوتة عليها .. رفع بصره ورأى الأشجار العالية ـ الأشجار اللعينة ! .. واقترب .. ولم يكن ثمة أحد سواه ، ورسم علامة الصليب وهو يغمغم قائلا : « إلى أن نلتقى مرة أخرى فى بهجة أيها الآباء ! » .. منذ أجيال والباشوات يجعلون من هذه الأشجار مشانق للكريتيين الذين تجرأوا على أن يرفعوا رءوسهم ، وطوال الشتاء والصيف كانت الحبال ذات الخية تعلق إلى فروعها القوية ..

وأخذ يحدق فى غضب فى الاشجار وكأنما هى أمامه شخوص أتراك ، ليلة ما .. ككريتى ، سوف أثور ... سوف أرفع فأسا وأقطعك أيتها الأشجار الملعونة .

واختصر طريقه ، ودلف إلى زقاق طويل مظلم حتى وصل إلى الأقباء الثلاثة ، لا أثر لمخلوق ! .. حل أزرار قميصه الذى كان يخنقه وتنفس بعمق وهو يتطلع حواليه ، هناك إلى الشمال . تتلألأ صفحة البحر ويتناهى مديره .. وجبال أيوختاس وسيلينا وبسيلفورتيس تبدو على مرمى البصر ، وفى السماء كانت تتلألأ النجوم ، وظل الكابتن ميخايليس يروح ويجىء فى دائرة كأنه جواد ترى وصل إلى الخندق الذى يحيط بميجالوكاسترو ورأى أكواخ الطين المتناثرة التى تعلو ذلك التل المنعزل هناك ، تلك كانت « ميسكينيا » .. قرية المجزومين ، وعلى الشاطىء كان ثمة تل واطىء يسمى « تل الفئوس السبعة » وهو التل الذى اندفع منه الأتراك كالعاصفة ليحتلوا ميجالوكاسترو قبل مائتى عام .. وكانت هناك فئوس سبعة من فئوسهم لاتزال مغروسة فى الأرض ، وعلى مرمى البصر خلف هذا التل كانت تبدو جزيرة « ديا » المهجورة كأنها سلحفاة بحرية .

وسمع أصواتا نسائية خلفه ، وحفيف أثواب حريرية ناعمة ، ثم برز تركى أحدب يمسك بيده مصباحا ضخما وخلفه سيدتان تركيتان تثرثران خلف الحجاب الأسود .. وتناهت رائحة المسك .

ـ كل الشياطين يتعبوننى الليلة ..

ثم أدار بصره تجاه البحر حتى لا يرى الهوانم التركيات ..

ـ كل الشياطين ـ ولكنهم لن يفلحوا ..

وأحس لحظتها باشتياق إلى بيته ، ولكنه لم يكن يريد أن يرى أحدا هناك ، لسوف يسمعون وقع خطاه من بعيد .. وسوف يسعل ، فيفهمون ما يريد فيختبئون .. ولسوف يكون ذلك شيئا طيبا ، وما إن يضرب الباب بقدمه فيفتحه حتى يصبح وحده تماما ، لا زوجة ، ولا أولاد ، ولا كلاب .. وحده تماما ! .. ولحظتها ، سوف يتخذ قراره .

وتحت ضوء المصباح كانت زوجته كاتيرينا وابنته « رينيو » تنتظران « خلفهما ـ وعند حافة النافذة التى تأخذ الجانب الأكبر من حائط الديوان ـ المكان الذى يجلس فيه الكابتن ميخايليس ولا أحد سواه ، فعندما يكون خارج البيت لم يكن أحد يجرؤ على الجلوس هناك أو مجرد الاقتراب منه ، لازوجته ، ولا ابنته .. فقد كانا يحسان كما لو أنهما تلمسان جسده إذا هما اقتربتا من ذلك المكان .. فترتعشان وترتدان إلى الخلف فى ذعر .

كانت الأم تحيك جوربا ، وكان ضوء المصباح يسقط منحرفا فوق شعر بنى كث مسترسل ، وحاجبين فيهما كبرياء .. وخدين متماسكين .. ويكشف عن فم حزين ، وذقن عريض عنيد . كانت تلك المرأة تحمل سحرا غريبا ـ سحرا وصلابة وإرادة قوية ، كانت ابنة الكابتن « ثراسيبولوس روفاس » أحد الأبطال المرموقين الذى لم يرزق بغيرها فتمتعت هى بحرية وخطوة كتلك التى يتمتع بها صبى ، ولكن ما إن تزوجت حتى سقطت فى براثن أسد ، وفى السنوات الأولى لزواجها كانت تبدى تمردا ومقاومة ، ثم مالبثت مع السنين أن أحنت رأسها ، كان الكابتن ميخايليس ! .. ومن ذا الذى يستطيع أن يواجهه ؟ ! أنتهت القوة .. وانتهت الارادة الحرة وأصبحت رقيقة هادئة .

كانت تشتغل فى حياكة الجورب .. وتفكر . كانت حياتها تعبر من بين يديها مثل الماء .. وكانت أحيانا ترفع رأسها وتنظر حولها حيث علقت على الحوائط صفوف أبطال عام ١٨٢١ ـ وحوش برية ، بذقون كأنها فروة الأسد .. وفى منتصف الحجرة ـ وأمام صورة واحد من هؤلاء ـ أضيىء مصباح فضى ..

وهزت كاتيرينا رأسها فى صمت .. حياتها كلها ـ فى بيت أبيها أو فى بيت زوجها ـ عاشتها تحت السلاح ! قبل زواجها ، وخلال ثورة ١٨٦٦ ،

خرجت هى أيضا وقد تمنطقت بحزام رص فيه الرصاص .. وحملت بيدها بندقية واشتركت فى القتال لتمنع الأتراك من اجتياح قريتها ، حتى وهى طفلة ، كانت تمزق الكتب التى أحضرها القساوسة من الأبراشيات وتصنع من أوراقها صناديق لطلقات الرصاص مع غيرها من الفتيات الصغيرات ، كانت تعرف جيدا رائحة البارود .. وتحبها .. وكان الكابتن ميخايليس رجلا طيبا ـ نعم الرجل ـ وكانت هى تحبه ، ولكن حياتها التى كانت تحياها رغم ذلك .. كانت حياة قاسية بالنسبة لامرأة .. وكانت تحس فى مكان ما بداخلها أنها غير سعيدة .

وتركت الجورب من يدها ورفعت بصرها مرة أخرى ، فوق الديوان علقت صورة لشمشون مكبلا مهانا من الفلسطينيين ، كان يرى فى الوسط مكبل اليدين والقدمين بالحبال والسلاسل ، وخلفه جمع من الشباب يتجاذبونه ويضربونه ويسخرون منه ، وبأعلى الصورة ـ فى البرج ـ كانت « دليلة » تنحنى خلال فتحة مشربية صغيرة ناهدة الصدر ، تتطلع فى ضغينة واحتقار وتشف .

وكانت كاتيرينا تنقل بصرها من صورة إلى أخرى وكأنها تراها جميعا لأول مرة .. ثم تنهدت وهى تنحنى مرة أخرى على الجورب .

اما ابنتها السمينة النضرة ذات الخمسة عشر ربيعا بحاجبيها الكثيفين مثل أبيها وذقنها العريض العنيد كأمها .. فقد تركت ما بيدها ، ومضت تربت على ظهر القطة العجفاء المتوحشة التى تكومت عند قدميها كالكرة .

ـ لماذا تتنهدين هكذا يا أمى ؟ فيم تفكرين ؟ !

وفيم أفكر يا ابنتى ؟ ! فى حياتى .. وحياتك أيتها المسكينة .. حياتينا اللتين سقطتا فى براثن وحش مفترس .. فى الطفلة الذى ظللت أهدهدها حتى تنام وحتى لاتصيح فتوقظ كل الأرواح الشريرة داخل أبيك .. إ .. ثراساكى .. هو وحده الذى اطمئن إليه ـ لأنه مثل أبيه تماما ! ..

ونظرت إلى الدثار .. وأرهفت السمع :

ـ لقد نام .. الحمد لله ! .. إنه صورة من أبيه ! .. هل ترين كيف يغضب ؟ ! .. أو الطريقة التى يزوى بها حاجبيه ؟ ! .. كيف يضرب أصدقاءه ... ؟ .. كيف ينظر إلى النساء بوحشية ؟ ! ..

ولم تعلق « رينيو » .. كانت تخاف من أبيها ولكنها كانت تحبه وتفخر به ، وكان كل ما يفعله يبدو لها حقا ، وكانت تحس بأنها لو كانت رجلا لفعلت نفس ما يفعله أبوها ، كانت هى أيضا تتمنى أن يكون ابنها وحده هو الذى يجعل الفتيات يزحفن بعيدا كلما سمعن الباب يفتح عندما يحضر هو ! كان والدها قد منعها من أن تظهر أمامه بمجرد أن أصبحت فى الثانية عشرة .. ونما جسمها وتكور صدرها .. ومنذ ثلاث سنوات لم يقع بصره عليها .. وكانت هى دائما تجلس فى المطبخ أو تحبس نفسها فى حجرتها الصغيرة بالطابق العلوى مادام أبوها فى البيت . وأصبحت تميز وقع خطاه على بعد فتختفى على الفور .. حتى القطة كانت تفعل ذلك بأسرع مما تفعل « رينيو » .. ذلك واجب .. وأبوها على حق .. لم تكن « رينيو » تفكر فى كلمة « لماذا ؟ » ولكنها كانت واثقة من أن اباها على حق !

أمها أيضا كانت ترى ذلك ، ولكنها لم تكن ترتاح له ، إن زوجها صورة طبق الأصل من أبيها ، وكم من السنين ظل فيها الكابتن « روفاس » لا يرى ابنته ! كانت فى العشرين ولم تكن قد تزوجت بعد حين اقتحم الجنود الأتراك البيت : وقتل أبوها من قدر على قتله منهم .. ولكنهم كانوا كثيرين أخذوه معهم .. وأخرجوه إلى الفناء ، ثم وصلتهم الأوامر بأن يسلموه لباشا ميجالوكاسترو وخرجت كاتيرينا مع أمها إلى الفناء ورأته ممزق الثياب دامى الجسد .. ويومها رفع يديه وقال : « وداعا » .. ثم قال : « لاتحزن يا نساء .. وأخبزن كعك الجنازة بطريقة طيبة ، إننى أموت فى سبيل الحرية فلا تبكين ! واهتممن بأنفسكن ، اهتمى بنفسك يا كاتيرينا ، واحملى فى أحشائك طفلا ذكرا ـ وسوف يكون عندك إذن ثراسوس .. رجل مثلى ! »

وأخذوه إلى ميجالوكاسترو حيث أوقفوه أمام باب الباشا تحت الأشجار الطويلة ، ثم جاء حلاق تركى حلق له رأسه .. وبعدها ، أصبح مصطفى باشا يملك صندوقا للطباق مصنوعا من عظام جمجمة !

ذلك كله مر بخاطر كاتيريا وهى تحيك الجورب وتتنهد ، إن حياتها تمضى مع الكابتن ميخايليس على ما يرام ولم يكن هناك ما تشكو منه ، كان فارسا شريفا مشرفا .. وكان رجلا جادا .. لم يكن يلهث وراء النساء أو يلعب الورق ، ولم يكن شحيحا .. وكان يسكر مرتين فحسب كل سنة ليطامن من حدة ما يعتمل بداخله ، كان رجلا ، وليس فى ذلك عيب وليس منه ضرر ، الآخرون كانوا يرتكبون الحماقات ، بينما هو يسكر فحسب .. ولكن

الأمور فى هذه السنة كانت تجرى صعبة .. الطفلة التى ولدت له فى السنة السابقة ـ رفض الكابتن ميخايليس مجرد النظر إلى عينيها ! وكان يصيح كل صباح وهو يفتح باب البيت متوجها إلى دكانه :

ـ لا أريد أن أراها .. لا أريد أن أسمعها .. أى شيطان جعل لها هاتين العينين الزرقاوين ؟ !

إن أحدا فى عائلته ليس له مثل هاتين العينين الزرقاوين ، ولكن عينى هذه الطفلة زرقاوان ! من أين لها هاتان العينان ؟ ! .. لكأن شاة سوداء قد ضلت فدخلت بيته ولكأن دماءه قد دنست ، والكابتن ميخايليس لا يستطيع أن يحتمل هذه الفكرة ..

وابتلعت الأم سيئة الحظ دموعها ولم تقل شيئا ، فماذا يمكن أن تقول له ؟ ! .. صبرت ، وركعت أمام المذبح ـ أمام القديس ميخائيل ذى الأجنحة الذهبية والسيف الملتهب ، والروح الجديدة التى يقبض عليها بيده تبدو كطفل مرتعد .

.. كانت تنحنى أمامه فى ذل وضراعة ـ أليس هو حامى حمى بيتها ؟ ! ـ وتتوسل إليه أن يحادث زوجها .. أن يقتحم عليه أحلامه بالليل ويعاتبه .. ويطلب منه أن يكون قلبه رقيقا ولو قليلا ..

وكان الكابتن يقضى اليوم بطوله فى الدكان ، وكانت هى تبعث إليه بوجبة الغداء مع شاريتوس صبى الدكان .. ثم تضع الطفلة فوق ركبتيها وتظل تهدهدها وهى تبكى وتصرخ ، وعندما يقترب المساء تطعمها شيئا لتنام وحتى لا تستيقظ قبل صباح اليوم التالى .

وسمعت الأم وابنتها صوت « ثاراساكى » وهو يحلم فى الغرفة الأخرى ، وضحكت الأم :

ـ باركه الله ، إنه لا يريح نفسه حتى وهو نائم ! .. إنه يحلم دائما بأنه يصطاد ويقتل أو بأنه على رأس جنود يشبعون ذبحا فى الأتراك .. عندما يكبر سوف يفعل ما يحلم به الآن .. تماما مثل أبيه ومثل جده .. آه .. ! إن أحزان كريت لا نهاية لها ..

وساد الصمت .. وحدقت « رينيو » فى ظلام الليل من خلال النافذة ، وكانت تهب ريح شمالية تهز إحدى ضلف النافذة .. ولو أن المرء توقف عند

كل بيت من البيوت فى تلك اللحظة لسمع صوت أم تهدهد طفلها ، وأغلقت « رينيو » عينيها .. وأرهفت السمع وصدرها يرتجف .. ثم قالت بعد لحظة وكأنها تريد أن تقطع على أفكارها الطريق ..

ـ لقد تأخر هذا المساء .

ـ قالوا إن نورى أرسل فى طلبه ، ترى ماذا يريد منه هذا الكلب ؟ !

وضحكت « رينيو » ..

ـ سوف يرفعه أبى من حزامه الأحمر مرة أخرى ويضعه فوق السطح !

وهزت الأم رأسها :

ـ ولكنه بعدها سوف يقتنص عشرة من الكريتيين ويأخذ بثأره منهم ، قلت لك إن آلام كريت لا نهاية لها ..

ـ لقد قلت نفس الشىء عن أبى ، ولكن فى ليلة من الليالى ...... » .

وتوقفت وقفزت چوسيب ـ هكذا كان اسم القطة ـ على كتف رينيو .. ودغدغت أذنها .. وأرهفت الاثنتان السمع .. وسرعان ما التقطت « رينيو » الخيط والابر والمقص بينما كانت القطة قد اختفت داخل المطبخ .

وقالت رينيو :

ـ لقد وصل ..

ولحظتها سمع سعال خارج الباب .

ـ نعم .. هو ..

ثم وقفت وقالت :

ـ سوف أسخن العشاء ، فربما يريد ألا يرى أحدا ، من أجل هذا يسعل .. !

وفتح الباب الخارجى .. وخطا الكابتن ميخايليس إلى الداخل ثم أغلق الباب وراءه بالمزلاج وعبر الفناء ، ودخل وهو ينظر حوله : لا أحد .. رفع عصابة الرأس وخلع سترته التى بللها العرق ، وجلس فى مكانه على حافة

المقعد بالقرب من النافذة المطلة على الحديقة ، ثم أخرج من حزامه منديلا جفف به عرق جبهته وعنقه وصدره ، وفتح النافذة ليتنسم الهواء ..

وسمع صوت زوجته وابنته وهما تشعلان النار لتسخين العشاء ، وخيل إليه للحظة أنه سمع صوت الطفلة .. وأحس على الفور بأن دماءه تفور ، فأرهف السمع أكثر .. ولكنه لم يسمع سوى الصمت ! فأخرج علبة الطباق ولف سيجارة وأشعلها .. ولكنه أحس بمرارة فمه وكأنما هو ملىء بالسم فطوح بالسيجارة من خلال النافذة ..

ودخلت زوجته بالعشاء .. وقال الكابتن ميخايليس دون أن يرفع رأسه :

ـ لست جائعا ، خذى الطبق بعيدا !

ولم تقل الزوجة شيئا رفعت الطبق .. وخرجت .

وساد صمت ثقيل .. ونهض الكابتن ميخايليس وتناول سترته مرة ثانية ، وعاد فوضع العصابة حول رأسه واتجه نحو الباب ثم توقف لحظة يتطلع إلى صف المحاربين المعلقة صورهم على الحوائط من أبطال ١٨٢١ .. بسلاحهم .. أحزمة ذخيرتهم .. ومسدساتهم وشواربهم النافرة كالإبر وشعورهم المسدلة إلى أكتافهم ..

نسى للحظة ما كان يريد أن يفعله ، وظل يحدق فى كل واحد منهم ويحييه .. ولم يكن يعرف تماما هذه الوجوه ، ولا الأماكن التى حاربوا فيها .. ولا الأعمال التى قاموا بها .. ولا الأماكن التى جاءوا منها ـ روميليا ، أم موريا ، أم الجزر أم كريت ! ولكنه كان يعرف على وجه اليقين شيئا واحدا ، هو أن كل هؤلاء الرجال حاربوا الأتراك ، وكان ذلك يكفيه ، أما من عداهم فقد كانوا من طراز المدرسين ! .

وخرج إلى فناء الدار .. وأحس بالانقباض وهو يرى البئر وغصون الكرم وأصص الزهور .. واقترب من الحظيرة الصغيرة الملحقة بالفناء حيث الفرس الأبيض يلمع جسده فى الظلام ، وأرهفت الفرس السمع ثم أدارت رأسها ورأت سيدها فصهلت فى سرور .. واتجه الكابتن ميخايليس نحوها وأخذ يمسح على عنقها وبطنها وعجزها بيديه المفتوحتين .. مخلوقة دافئة معبودة .. مستعدة دائما بمجرد أن يأمرها سيدها .. مترفعة ومطيعة

لاتفسد أبدا عليه مزاجه ، معه دائما كما لو كانت جزءا من جسده حتى الموت .

وابتعد عن الفرس .. ثم تحسس حذاءه الطويل ثم رفعه إلى الركبتين ثم الفخذية .. وشد صدره كأنما يستقبل الربيع ، ووضع الحذاء داخل السرج ثم صاح :

ـ شاريتوس !

وخرجت زوجته .

ـ إنه نائم ..

ـ أيقظيه !

ثم لف وانتظر مكانه لا يتحرك ، وأخذ يدخن وهو لايعود يحس بمرارة فى فمه .. وينفث الدخان من أنفه وينتظر فى هدوء ..

وخرج « شاريتوس » يدعك عينيه النائمتين .. بشعره المشعث وعنقه الطويل وقدميه العاريتين مثل عنزة برية فى الثانية عشرة ، كان ابن أخيه ، فانوريوس الراعى ، وكان قد قدم من قريته بعد أن بعث به أبوه ليتعلم القراءة والكتابة ، ولكن الكابتن ميخايليس رأى أن تعلم الكتب عمل الحمقى الأغبياء ، هل تريدنى أن أجعل منك نبيلا جائعا ؟ أم مدرسا ؟ ألا ترى التعاسة التى يعيش فيها عمك المدرس « تيتيروس » الذى جعلت بلاده المدرسة من حياته عبثا ؟ سوف يضعف بصرك أيها الصبى ، وتضع على عينيك عوينات وتجعل من نفسك أضحوكة الناس ، أبق فى الدكان إذن .. وسوف تكبر .. وسوف يكبر مخك ، وسوف أمنحك أنا دفعة إلى الأمام حتى تستطيع أن تفتح لنفسك دكانا خاصا بك وتصبح رجلا » ..

وقال نفس الشىء لأخيه « فانوريوس » الذى أجابه بقوله :

ـ أفعل ما يحلو لك ، لك فيه اللحم ولى أنا العظم ، صفه على النحو الذى يروق لك واجعل منه رجلا » ..

وامسك به الكابتن ميخايليس من قفاه ، وهز قائلا :

ـ اذهب إلى البئر واغتسل وافق جيدا .. ثم عد إلى وتلق أوامرى ..

واتجه « شاريتوس » إلى الفناء ، وأخرج ماء من البئر واغتسل به ومشط شعره بأظافر يديه ثم عاد إلى عمه :

ـ ها أنذا ..

وضرب الكابتن ميخايليس بيده على كتفه ، وقال :

ـ امض إلى البيوت الخمسة التى تعرفها ، وأقرع باب كل منها حتى يفتح لك .. أقرعها بحجر إذا لزم الأمر . مفهوم ؟ !

ـ مفهوم ..

ـ ڤيندوسوس ، وفوروچاتوس ، وكاچابيس ، وبيترودولوس .. وإلى « التكية » حيث يعيش أفندينا ...

ـ أفندينا « روث الخيل » ؟ !

ـ وقل لهم : تحيات عمى إليكم ، وهو يخبركم أن غدا السبت .. وأن عليهم فى صباح الأحد المبكر أن تتفضلوا بالحضور إلى بيته .. مفهوم ؟

ـ مفهوم ..

ـ اذهب .

ثم نادى زوجته :

ـ اذبحى ثلاث دجاجات واطبخيها ، نظفى القبو ، وجهزى المائدة الكبيرة والمقاعد والكئوس ..

وودت زوجته لحظتها لو تكلمت وقالت : « إنها أيام الصيام الأربعة عشر ، ألا تخشى الله ؟ » ، ولكنه رفع يده ، فلم تقل شيئا ، وانصرفت وهى تتنهد .

وقالت لابنتها « رينيو » :

ـ سوف يكون عندنا لسوء الحظر عيد آخر ! .. علينا أن نذبح ثلاث دجاجات ونهيىء القبو كما أمر ..

وقالت رينيو :

ـ ما الذى حدث له ؟ ! إن الشهور الستة لم تنته بعد !

ولكن قلبها كان يقفز فى سرور ، فقد كانت تحب مشهد البيت عندما يصير كل شىء فيه مضطربا ، وعندما تروح وتجىء لذائذ الطعام وعندما يجلس الرجال فى الحجرة السفلية ويسكرون .

وغمغمت الأم :

ـ ها هو ذا قلبها مثقل من جديد .. إن الأرواح الشريرة قد دخلته مرة أخرى .

ثم رسمت علامة الصليب وقالت :

ـ أنا مخطئة يا ربى ، أنا أقول أشياء لم يكن ينبغى أن أقولها ، ولكننى لا أستطيع أن أحتمل أكثر من ذلك ، إنه يمتهن أيام الصيام الأكبر .. إنه لم يعد يخشى الله !

وتذكرت فى ثورة القديس ميخائيل هناك فى المذبح كم مرة قدمت ندمى أمامه وتوبتى ، كم صلاة قدمتها فى حضرته ؟ كم مرة ملأت مصباحه بالزيت وكم شمعة من أجله أشعلت ؟ ! .. وذلك كله ضاع هباء .. حتى « هو » أصبح الآن فى صفه !

ثم غمغمت :

ـ آه لو أننى كنت رجلا ، أقسم بخلاص روحى ، أننى كنت سأفعل نفس الشىء ، أنا أيضا كنت سأتخذ لنفسى خمسة أو ستة من الأصدقاء ، وعندما يضيق صدرى أدعوهم إلى القبو .. وأسكرهم .. وأطلب منهم أن يغنوا ويعزفوا على القيثارة ويرقصوا .. حتى أبعث السعادة إلى قلبى ، هذا حقا .. ما يفعله الرجل ! » ..

الفصل الثاني

هبط على « ميجالوكاسترو » ليل مشبع بجو ربيعى رطب وحار ، وكانت نسمات الشمال الباردة قد هبت قبيل منتصف الليل ، ثم مالبثت أن حلت محلها ريح رطبة دافئة تخللت فروع الأشجار فانتفخت ، ريح قادمة من الجزيرة العربية ، عبرت البحر الليبى واكتسحت سهول « ميسارا » من « تيباكى » و« جودهاربور » إلى « سانت باراباره » تاركة وراءها كروم « أرشانى » الشهيرة تتسلق أسوار القلعة وتتخلل شقوق الأبواب والنوافذ ، وتهبط فوق النساء كالرجال ، وفوق الرجال كالنساء .. تمنعهم جميعا من النوم . ابريل المؤذى حل بجزيرة كريت مثل لص بليل !

حتى الباشا ـ حاكم « ميجالوكاسترو » الرجل المسن القوى البنية ـ طار النوم من عينيه وهو يحس بالحرارة وبالشهوة تسريان فى جسده ، فصفق بيديه وبرز له خادمه العربى سليمان .

ـ افتح النافذة أو يغمى على ! .. ماذا أصابنى يا ترى ؟ وأى ريح هذه يا سليمان .

ـ ريح قادمة من الجزيرة العربية يا افندينا الباشا .. ريح حارة ولكنها لا تضر . فلا تخش شيئا .. نحن أبناء كريت نسميها ريح « الخيار » .. لأنها تنضج الخيار .

ـ ريح الخيار ؟ .. لم أعرف مثلها قط ! اذهب الآن ومر الجارية فاطمة بأن تكون مهيأة إذا احتجت إليها .. واحضر لى معك ابريقا من ماء الحوض ومروحة تمنحنى بعض الهواء البارد .. « كريت » هذه سوف تكون السبب فى موتى !

وحتى مطران « ميجالوكاسترو » المهيب الذى يخشى الله ذو الثمانين عاما واللحية البيضاء الناصعة كان يحترق من شدة الحر .. خلع ملابس النوم ونهض متجها إلى النافذة التى تطل على قصر الأسقف واستند اليها يتلمس بعض الهواء ، السكون موحش وعميق ! وكل البيوت غارقة فى ظلام دامس ، وشجرة الليمون العجوز تقف مزهرة فى الميدان الذى تطل عليه الكنيسة وتنشر حولها أريجا حلوا ، وفى قبة السماء مصابيح لا يحصرها العد تضيىء امام عرش الرب ، وغاب المطر عن ذاته أمام المشهد المهيب للسماء الزاخرة بالنجوم ، وظل لحظة واقفا بجسده الفارع الثقيل محوطا بسكون عميق من صنع الله ، ثم مالبث أن عاد مرة أخرى إلى الارض ليجد نفسه لايزال متكئا على حافة النافذة ، فرسم علامة الصليب على صدره وهو يحس بأن ريح الربيع الدافئة قد سكتت ، وبأن جسده أصبح باردا خفيفا ، فعاد إلى فراشه ليغرق بلا خطيئة فى أحضان الرب .

جذب الكابتن « ميخايليس » الملاءة وجلس على فراشه غاضبا : لابد أن الوقت الآن قد تجاوز منتصف الليل ، انحنى فى لهفة وأمسك بالابريق القريب منه وضغطه فوق شفتيه وجرع جرعتين كبيرتين او ثلاثا حتى يفيق ويبعد ذلك الحلم المخجل الذى أثقل عليه نومه ، ولكن الحلم ظل يتشبث به كامرأة لايريد أن يطلقه ، ودمدم الكابتن « ميخايليس » : « لعن الله النوم ! .. اللعنة عليه .. إنه يفتح الأبواب للأرواح الشريرة .. ومن خلالها تنفذ » .

ونهض واقفا وهبط الدرج حافى القدمين حتى أصبح فى الفناء فأخرج ماء من البئر وغمر رأسه فى الدلو ليطفىء اللظى ولكن اللعاب الحلو ظل داخل فمه والنعاس يثقل جفونه فعاد ليجلس مرة أخرى فوق الفراش وفتح النافذة القريبة ، ظلام حالك ! .. وأرهف السمع : ميجالوكاسترو ، غارقة فى النوم لا يسمع لأنفاسها صوت .. وريح غريبة حارة ترف وهى تمس الأرض والماء وأوراق الكروم وعريشها فى حفيف رتيب متصل .

واستند الكابتن ميخايليس بظهره إلى الحائط وبدأ يدخن وفى نيته ألا يستسلم للنوم مرة أخرى ، كان مخلوقا تركيا ذلك الذى رآه فى الحلم .. مخلوقا مجنونا لا يوثق به ، أخذ يدخن وهو يحدق فى ايقونة « ميخائيل كبير الملائكة » .. حامى قومه : غضب السماء بجعبته فوق ظهره ، وعلى يمين

الصورة تبرق غدارته الفضية التى ورثها عن أبيه وعلى يسارها الكيل الشرف الذى وضعه فوق رأسه يوم زفافه .. إكليل مصنوع من أزهار الليمون المكسوة بالشمع . وسمع للحظة زوجته « كاتيرينا » تتنهد فى الحجرة المجاورة .. ومن أعلى .. ووسط عروق الخشب ـ كان فأر يقرض .. وفجأة اندفعت قطة إلى الخارج تصعد الدرج فى خفة دون أن تحدث صوتا .. ثم ساد صمت عميق .

ظل الكابتن ميخاليليس يدخن دون أن يزايله القلق أو الخجل ـ ظل هكذا وهو يتنفس بعمق وقد ثبت نظراته بالنافذة .. ينتظر طلوع النهار ..

وفى الطرف الآخر من « ميجالوكاسترو » قريبا من « البوابة الجديدة » كان العم « يانيس » متجها إلى بيته غارقا فى عرقه وقد شمر أكمامه وامسك بيده قنديلا يضاء بالزيت تتراقص ذبالته ، ومضى يتعثر على طول الزقاق الضيق وهو ينعى حظه ، فالناس يصرون على أن يحرموه من الشىء الوحيد الذى بقى له بعد وفاة زوجته ، النوم ، فهو لا يفتأ يكد ويكدح منذ الصباح الباكر وهو ينقل الماء لسكان « ميجالوكاسترو » فى الشتاء يوفر لهم مياه « ساليبى » العذبة الصافية لتبعث فيهم الدفء ، وفى الصيف يوفر لهم الشراب البارد ، فهل نعم فى حياته باغفاءة ؟ لقد كان يؤدى ايضا عمل القابلة ! فربما يجىء المخاض إحدى جاراته أو قريباته : « اسرع يا عم يانيس المسكين .. أسرع بتوليدها ! » .. لقد تعلم هذه الحرفة عن أبيه المرحوم الذى كان حدادا .. وكان يقوم بتوليد الأفراس وإناث الحمير ، ولكن العم « يانيس » نقل فن أبيه من الأفراس وإناث الحمير إلى النساء ! ومساء أمس فقط ، قام بتوليد ابنة اخته المسكينة « پيلاجيا » ولم يكن الأمر سهلا ظلت ثلاث ساعات تعانى آلام الطلق ، ولكنه استطاع فى النهاية أن يخرج الطفل ، طفلا ممتلئا أسود فى لون القار .

وها هو الآن يحدث نفسه وهو ماض فى طريقه يلعن حظه ، وتناهى إلى سمعه وقع حوافر جواد خلفه ، ولكنه لم يكن واحدا من هذه الجياد التى نعرفها والتى تأكل الشعير ! ... وقد عرف العم يانيس هذا الجواد من وقع حوافره التى كأنما كانت مكسوة بالقطن ، ومن الشذا المقدس الذى انتشر فى الهواء .. وفهم العم يانيس ، فلم تكن تلك أول مرة ، والتصق بالحائط ورسم علامة الصليب على صدره .. وانتظر ، واقترب الضوء ، واقتربت الخطوات السابحة أكثر واكثر ، واصبح الشذا اكثر نفاذا ..

وتمتم العم « يانيس » : « اذكرني أيها الرب ، عمت مساء يا قديسى « ميناس » ، عمت مساء ياقديسى » .

وفتح عينيه في سعادة ، فهناك فى الطريق ظهر القديس « ميناس » حامى « ميجالوكاسترو » ـ البطل ذو الشعر الرمادى ـ ممتطيا صهوة جواد أحمر اللون فى سمرة ، يتلألأ وسط الظلام كعادته كل مساء حين يقوم بجولته وهو يرتدى صديريته المدرعة الفضية ويضع حربته الطويلة الحمراء فوق كتفه ، ففي منتصف الليل ، وعندما تخلد المدينة إلى النوم ، يخطو القديس « ميناس » خارج ضريحه ليطوف بالحى اليونانى يغلق أبواب البيوت إذا كانت مفتوحة ، ويتوقف إذا لمح ضوءا ينبعث من نافذة أحد الكريتيين المرضى .. يدعو الرب من أجل شفائه ، وليس لعيون الناس قدرة على أن تتعرف عليه ، ولكن الكلاب فقط هى التى تهز ذيولها ، ورغم ذلك فهناك رجلان فقط فى المدينة استطاعا أن يرياه رؤية العين : « باربايانيس » ، و« افنديناً روث الخيل » ضعيف العقل .

وعندما كان القديس ميناس ينتهى من جولته عند مشارف الفجر ، كان يعود مرة ثانية إلى أيقونته ومزاره ، ولايشك أحد فى أن أمورا خفية قد حدثت بالليل إذا اكتشف « مورزوفلوس » ـ الذى يضيىء المصابيح وينظف الكنيسة فى الصباح ـ العرق يبلل جسد جواد القديس « ميناس » ..

شاهد العم « يانيس » القديس « ميناس » وهو يختفى فى الظلام فرسم علامة الصليب وهو يتمتم : « الليلة رأيته مرة أخرى ، عظيما فى جلاله ولسوف تتحسن أحوالى ولاشك » .. ثم جذب من سترته كعكة حصل عليها كأجر مقابل جهده في توليد « بيلاجيا » وبدأ يقضمها فى ارتياح حتى وصل إلى كوخه فأطفأ القنديل .

وظل الكابتن « ميخاليس » يدخن وهو يروح ويجىء وذهنه يطن مثل الخنفساء وهو يسترجع كل مارآه وعاناه وأحبه وكرهه فى حياته : قريته ووالده وبيته والناس والأتراك والكريتيون ، ثم استجمع كريت كلها من « جرابوسا » إلى « توبلومو ناسترى » .. من الصخرة إلى الأخرى .. ومن تمرد إلى تمرد . ولكن أفكاره لم تكن تتوقف ولو لحظة عند شيء معين ، وإنما كانت تلهث فحسب ثم ترتد كل مرة إلى فم يجلله العار فلا تغادره ..

وظل يذرع الحجرة فى اهتياج وهو يرمق صورة الملاك ميخائيل فى وحشية وكأنه يسأله أن يتخلى عن وجوده السلبى فى الصورة ليخرج ويفرض النظام ، ثم استدار على عقبيه وحدق فى السماء من خلال النافذة وقد بدأ الظلام ينحسر شيئا ما ، ثم قال وكأنه يخاطب السماء : « بدأ الضوء يظهر .. وسوف يكون فى مقدورى أن أرى إلى أين أذهب » .. وأسرع يهبط إلى الفناء ، وغمر رأسه مرة أخرى فى الدلو ، ثم استراح قليلا .. ثم جلس القرفصاء عند عتبة البيت .. وانتظر ..

كان الكابتن ميخايليس فى صراع مع نفسه مثل الثور ، ولكن « نورى بك » هو الآخر أمضى الليل بطوله يذرع جناح الرجال ، ويخرج مرات إلى الحديقة ليشم بعض الهواء ثم لا يلبث أن يعود ، ويدخن سيجارة فى عقب أخرى ، ويشرب كوبا بعد آخر .. ويجأر بصوته ، ثم رفع بصره إلى الباب الخشبى وكانت المرأة الشركسية قد أغلقته دونه ورفضت أن تسمح له بالاقتراب منها وصاحت فيه من خلال ثقب المفتاح : « لا أريدك لقد جللت نفسك بالعار .. ولم تعد تصلح لى » ..

كانت هى الأخرى عاجزة عن أن تغلق عينيها ، فقد اتجهت إلى النافذة وهى نصف عارية ومدت ذراعيها فى لوعة تجاه الحى اليونانى ، ورأت وسط الظلام حاجبى الكابتن « ميخايليس » الداكنين ولحيته ويديه القويتين ، ثم أنت مثل أنثى الخيل .

وغمغم « نورى بك » وقد بدأ يبكى : « إنها على حق .. ولسوف أذهب أنا إلى الكلاب مثل أفنديتا ، ولسوف يستدعينى الكافر أنا أيضا كلما أولم وليمة لكى ألعب من أجله دور القرة قوز » .. وفى الصباح وجد الخادم البربرى سيده مكوما على عتبة البيت وقد غاب عن الوعى من كثرة ما شرب ، بينما كان شاربه وصدره وسترته جميعا ملوثة بالقىء والخمر ورماد السجائر المحترقة .

وفى اللحظة التى خطر فيها ببال « نورى بك » كان « أفنديتا » نائما على ظهره يبتسم فى سعادة ، فقد تناهت إليه الأنباء فى وقت متأخر من المساء ، هناك عيد آخر سوف يستغرق ثمانية أيام ، وسوف يأكل لحم الخنزير والسجق الذى سينزلق إلى داخل بطنه مثل الزبد ، وسوف يكون هناك خمر .. وسوف ينسى بؤسه طيلة ثمانية أيام .. نعم .. وإلى الجحيم

كل شيء ! .. إلى الجحيم أيضا .. الحرام والحلال ! .. وأغلق عينيه وأخذ يتحسس ذقنه بيده حتى راح في النوم .

وفي نفس اللحظة التي خطر هو فيها ببال « نورى بك » كان أفنديها يحلم .. فتح الباب ودخل خنزير سمين أحسنت تغذيته وفوق رأسه طربوش مثل الأتراك وقد تدلت من رقبته مدية كأنها تميمة ، وعندما نظر إليه « أفنديها » وقف على قدميه الخلفيتين وقدم له التحية على الطريقة التركية ، ثم مالبث أن تناول المدية وغرسها في عنقه وأخذ يتدحرج فوق الأرض ، بينما انحنى « أفنديها » فوقه ، ثم مالبث أن رآه مشويا طازجا مكسوا بأوراق الليمون وقد انبعثت منه رائحة شهية ، وأطلق أفنديها صيحة فرح .. واستيقظ من حلمه ولعابه يسيل !

وهناك ، فوق الأرض .. كانت مخلوقات بشرية بائسة تحترق وتبحث متعانقة في عذاب عن وسيلة تخمد بها النيران .. كان قبو السماء يدور ، والنجوم تسبح في مداراتها . وفجأة ، وخلف قمم « لاسيثى » ، قفز نجم الصباح إلى الأمام وأخذ يطن وسط الريح ، وفتح الديك الكثيف الريش في فناء بيت الكابتن « ميخاليليس » عينيه ليرى ما يدور في السماء ، ثم أخذ يضرب بجناحيه وينفث بصدره .. ويصيح وهناك ، بعيدا في فناء المزارع الثرى « كراسوجورجيس » كان الحمار القبرصى الشهوانى يستنشق الهواء بقوة ويتشمم رائحة العشب اللذيذ المندى .. بينما رفعت الحمارة الكريتية ذيلها في صلابة وبدأت تنهق !

استيقظت « ميجالوكاسترو » من أول الشارع إلى آخره ، ومن بئر « إيدومينا » إلى مخبز « تولوبانا » ، وبدأت الحياة تدب في حى الكابتن « ميخاليليس » .

بادىء ذى بدء ، حررت زوجة « ماستراباس » زوجها ـ ذلك الرجل المقدس ـ من قوائم السرير الذى تعودت أن تربطه إليها بإحكام كل مساء من شدة غيرتها عليه ولكى تمنعه من الهبوط ليلا يتحسس طريقه إلى الخادمة السمينة « أنيسينا » بصدرها البقرى ! حيث تنام في المطبخ الكائن في الطابق السفلى ، كانت تربطه جيدا كل مساء ولا تخفف قيوده قليلا إلا إذا استيقظ لقضاء حاجة بالليل ، وحتى في مثل هذه الحالة كانت

تبقى الحبل حول كاحله وهي تمسك بطرفه جيدا حتى لا يحاول سجينها الإفلات !

وكان الكابتن بوليكسيجيس قد عاد قبل قليل من مغامرته الليلية مرهقا تفوح منه رائحة المسك ، أما السيد « ديمتريوس » فقد كان يتثاءب وهو مستلق إلى جوار زوجته « بنيلوب » التى كان مزاجها معكرا مرة أخرى ! .. وقد ألقت جانبا بملابس النوم وهي تدمدم : « أحقا أنا في الخامسة والعشرين ؟ أحيانا أحس بأن جسدي يحترق ، وأحيانا أحس كما لو كنت سلحفاة ! » وفي هذه اللحظة بالذات من الفجر الرمادي ، كان جسدها يحترق ! .. وجلست في حدة وحدجت زوجها المتثائب « ديمتريوس » بنظرة جانبية مليئة بالكراهية .. ثم نهضت .. وخرجت ..

وبدأت صفحة السماء تشحب ، واستيقظت الطيور المغردة فوق حواف الأسطح وتحتها ، وفي بيت « كراسوچورچيس » كان الطائر الأسود يغني في قفصه ، وغمغمت « بنيلوب » وهي تتنهد « محظوظة » زوجة كراسو چورچيس .. فهو مزارع غني .. ولكنه لا يزال يحتفظ بحيويته ونشاطه ، وهو أبدا لا يخيب أمل زوجته ! » ..

وأرهفت السمع ، وتناهت إليها أصوات من البيت القريب حيث كان « كراسو چورچيس » السمين مستلقيا على ظهره وقد ارتفع شخيره وانبعثت من شاربه رائحة النبيذ والبصل ، وارتفعت أنفاسه الثقيلة ، وكأنها صادرة من أعماق قبو ، وإلى جواره زوجته الصغيرة « كاتينيسنا » لاتزال نائمة « كاتينيستا » ابنة « باربايانيس » .. المخلوقة الطروب البادية الصحة والتي تعشق الشراب ، كانت تبتسم وهي تناغي مثل القمرى ، فقد كانت تحلم لحظتها بأنها في رفقة شاب تمسك هي بيده ويخطران معا داخل حديقة ذات أسوار وهو يضع ذراعه حول كتفيها ، ولم يكن ذلك الشاب زوجها السمين ! ولكنه كان ممشوق القوام .. لبقا .. ذا شارب دقيق وشعر مسترسل أسود ، وفي منطقته غدارتان فضيتان .. ومع أنفاسه تنبعث رائحة القرفة .. كان شبيها بهذه الصورة التي يعجب بها كل من يزور بيت الكابتن « ميخايليس » والتي كتب تحتها « أثاناسيوس دياكوس » - وهو اسم بطل مشهور من أبطال النضال من أجل الحرية - وكان يضع ذراعه حول كتفيها تحيط بهما مثل سياج أثقلته عناقيد داكنة ، وكانت هي تسير إلى جواره وقد أفعمتها السعادة وهي تبتسم وتناغي كالقمرى .

ولكن الشيطان أفسد كل شيء ! سمعها « كراسوچورچيس » ، فاستدار نحوها وفتح عينيه وصاح :

- هيه .. يا زوجتى ! .. ما كل هذا الابتسام والمناغاة فى الصباح الباكر؟ أهى قطعة من خبز الجنزبيل تلوكينها ؟ .. أعطنى إذن قطعة منها ! ..

ولكنها أولته ظهرها غاضبة وهى تقول :

- لاتقلقنى .. دعنى لحالى فأنا نائمة !

ثم أغمضت عينيها وحاولت أن تجد حلمها مرة أخرى .. مع رجلها الصغير ! .

وفى مخبز « تولوباناس » ارتفعت سحابة إثر سحابة من الدخان الأول الأزرق الشاحب ، واستيقظ الخباز العجوز المتجهم الوجه الصامت أبدا ، وبدأ العمل وحده فى معجنه حتى ينسى متاعبه ، ولكن أيان له النسيان ؟ كان له ولد عزيز وحيد فى العشرين من عمره أشقر وسيم تفانى هو دائما فى كسوته ورعايته ، وفجأة ، ومنذ ثلاث سنوات ، بدأ يصاب بالأورام ، واكتسى وجهه بالبثور ، وتعفنت أطراف أصابعه .. وسقطت أظافره .. والآن ، بدأت شفتاه تتقيحان ، وأبوه وأمه يرفضان إرساله إلى ميسكينيا حيث مستعمرة المجذومين ، فكيف يطيقان فرقة ولدهما الوحيد ؟ ومن ثم فقد فضلا أن يبقياه رهين حجرته حتى لاتقع عليه عين إنسان .. كيف إذن يستطيع « تولو باناس » العجوز أن يهنأ بالنوم .. ولماذا يفتح فمه ليتكلم ؟ ينحنى فوق المعجنة .. ويدفع بالعجين إلى داخل الفرن .. ويخرج الخبز الذى نضج ، ثم يبدأ جولته فى الشوارع ليبيع الأرغفة المستديرة كالحلق ، والفطائر المحشوة بالسبانخ ، وليجهد نفسه فى عمله لعله ينسى ، ولكن كيف ينسى ؟ كيف ينسى وهو فى كل صباح يدخل لرؤية ولده .. فيضطر إلى أن يرى كيف تسوء حالته .. وكيف يزداد التهرؤ والتعفن يوما بعد يوم ؟ !

مضى « تولوباناس » العجوز فى عمله أمام الفرن وهو يتنهد ، وعندما رفع بصره لحظة ورأى الضوء لايزال ينفذ من خلال نافذة فى طابق أعلى .. هز رأسه وتنهد : « مسكينة أيتها المرأة الفرنسية .. ! أنت أيضا تعانين .. تعانين سوء حظك .. لا.. أبدا لا تستطيع قلوب الرجال أن تجد الراحة » ..

والحق أن الضوء لم ينطفىء طوال الليل ، فالمرأة الفرنسية المسكينة لم تذق طعم النوم ، كانت تسعل وتبصق وتئن ، جاء بها الطبيب « كاساپاكيس » يوما ما زوجة له من باريس ثم زرعها فى هذا العش التركى فى آخر الدنيا ! كانت فى البداية تتنهد ثم أصبحت تسعل .. ثم انتهى بها الأمر الآن إلى أن تبصق دما ، وقيل إن زوجها الطبيب لم يكن يستطيع أن يقربها ، ومن ثم فقد كان على علاقة بخادمته الشابة القادمة من « أوركالوخورى » .. وعندما قدمت المرأة الفرنسية لأول مرة ، ظلت تعول وتصيح طيلة أسابيع : « أين الخط الحديدى الذى قلت لى إنه يمر أمام بيتنا ؟ .. ليس هذا ما وصفته لى ونحن فى باريس ؟ » ، وكان زوجها الطبيب السمين يضحك ويقول : « فى ميجالوكاسترو » نحن نسمى حميرنا .. السكة الحديد ! ! » .

جلس الكابتن « ميخايليس » القرفصاء صامتا ساكنا وسط الفناء .. ينتظر مرة أخرى أن يزداد ضوء السماء ، وعندما سمع صياح الديك رفع بصره ، وكانت السماء قد بدأت تشع بالضياء ، فقفز واندفع إلى حجرته وارتدى ملابسه على عجل ، ولف الزنار الواسع حول جسده عدة مرات ، ودفع بالشىء الأسود الملفوف داخله ، ثم تناول زجاجة الزيت الصغيرة المعلقة أمام إطار الأيقونة وملأ المصباح الصغير الذى كانت ذبالته قد بدأت تخفت ، وحدق فى ميخائيل كبير الملائكة زعيمه ورئيسه .. وهو يقول له : « أنا ماض الآن .. وكل ما ينبغى أن يقال .. قلناه ، وهكذا فأنا ماض الآن .. فتول أنت رعاية البيت ! » .

ثم هبط إلى الفناء وفتح الباب المؤدى إلى الشارع ، وأسرج جواده وامتطى صهوته متجها إلى المستشفى وقد طلع النهار .. وأخذ الجنود المفاتيح ، وتهيأوا لفتح أبواب القلعة الأربعة ، وكانت البيوت لاتزال مغلقة ، ولكن بعض المواقد كانت تخرج دخانها ، وكان « باربايانيس » قد خرج ينادى على ما معه من ماء الشعير الممزوج فى وفرة بالفلفل .

وكز الكابتن « ميخايليس » مهرته وانطلق مارا بالشجرة الضخمة المنزوع لحاؤها ـ أكلة أبناء كريت ! ـ ثم استدار متجها إلى ميدان السوق حتى وصل إلى « الأقباء الثلاثة » فتوقف لحظة وأجال البصر حوله ، كانت خطوط الجبال تتوهج باللون الأحمر الوردى ، وفى مواجهته كان « الجبل

الغاضب » هوة عارية ، وخلفه جبل « سيلوريتيس » السيد الجليل بقمته الثلجية .. وعلى يمينه التنين الرخامى « لوختاس » ، وهناك بعيدا ، لاح البحر أزرق متألقا فى شحوب .. مرقطا قليلا هنا وهناك بالزبد الأزرق المخضوضر ، والسفن المالطية السوداء ذات الشراع الأحمر قد بدأت عملها فى البحر ، والشمس تبرز من بين الأمواج لترتفع وسط ضباب متوهج ، وأدارت المهرة راسها ورأت الشمس ، فتألقت عيناها ومالت إلى الخلف بعنقها .. وصهلت تحييها .

ارتفعت دقات الطبول وارتفع العلم التركى فوق ساريته ، وفتحت أبواب القلعة الحديدية فى صريف مسموع ، واندفع الفلاحون الذين ظلوا ينتظرون بالخارج منذ لحظات الفجر الأولى .. اندفعوا إلى الداخل على الفور يطأون أقدام بعضهم البعض ، وحميرهم وبغالهم محملة بالأخشاب وفحم الحطب وزجاجات الخمور والزيت وسلال الخضراوات والفاكهة والجرار النحاسية المملوءة بعسل النحل ، وكان عليهم لكى يدخلوا القلعة أن يمروا عبر السرداب المظلم الذى يخترق كل الجدران الفينسية الكثيفة ، وفى داخل هذا السرداب ، وتحت الأقباء الصخرية ارتفعت الأصوات واللعنات والنهيق ووقع اقدام الحيوانات والبشر ، وامتزجت أصداؤها جميعا ، وعادت هذه الرقبة الأرضية تضج بالطنين .

وشق الكابتن « ميخايليس » طريقه وسط هذه القافلة الصاخبة حتى خرج إلى الحقول وامتطى فرسه منحدرا إلى الساحل ، فأصبحت « ميجالوكاسترو » خلفه وسلك طريق الشاطىء متجها إلى « الجبل القاسى » مارا « بالتلال الحمراء » ، وعلى يمينه أرض خضراء داكنة تنشر عبقها ، وعلى يساره البحر والشمس لماتزل قريبة من خط الأفق ملعقة كأنها تميمة ذهبية فوق صدر المدينة .

وغمغم الكابتن « ميخايليس » وهو يرسم فوق صدره علامة الصليب ، « باسم السيد المسيح .. وباسم ميخائيل كبير الملائكة » ..

ارتفعت الشمس وفاضت بأشعتها على « ميجالوكاسترو » فى البداية ، انعكست أشعتها على المآذن ثم على قبة القديس ميناس ثم على أسطح المنازل ، ثم مالبثت حدتها أن خفت وسط الأزقة الرطبة ، وفتحت الفتيات نوافذهن ليستقبلنها .. ومن خلالها نفذت الأشعة ، وانطلقت النسوة

العجائز إلى أفنية دورهن يلتمسن الدفء ، ويرسمن علامة الصليب ، ويقدمن الشكر إلى الرب على انتهاء مارس .. ذلك الشهر الملعون من الرب والذى تبتلى به العجائز .. لقد بدأت أطرافهن الآن تبث فيهن الدفء ، مرحبا بإبريل .. ومرحبا بالقديس جورج ..

ومرت حمير كريت عبر كل بوابات القلعة وهى مبتهجة خفيفة الحركة ترفع ذيولها ، وتنهق وكأنما تعلن للسكان عن مقدم الربيع .

وعادت « بنيلوب » إلى الفناء .. وتمطت فى قوة حتى « طرقعت » عظامها ، كانت امرأة نصفا ، صدرها وعجزها ذوا حجم مضاعف ! .. تأكل جيدا ـ فهى ممتازة الشهية ! ـ تغسل بنفسها جسد زوجها السيد/ ديمتريوس وتحك جلده وتطعمه وتطمره مثل الحصان ، وفى كل مساء تحاول جاهدة أن تنعشه ! ولم يكن لديها أطفال ، فكانت تحب القطط وطيور الكناريا وقبرات الربيع .

وفى هذا الصباح كانت « بنيلوب » تحس بما يشبه وخز الإبر والدبابيس فى ظهرها ، ولو كان لها ذيل هى الأخرى لرفعته مثل الحيوان لتعلن لكاترينا عن قدوم الربيع ! ولتعلنه أيضا لزوجتى كراسو چورچيس وماستراپاس ولزوجة الطبيب ولكل الجيران لماذا لايزلن نائمات إلى الأبد ؟ لابد أن ينهضن لكى يدعن الشمس تلمسهن ، وتجعلهن جميعا ينهقن ويعفرن أنفسهن فى الحقول ! .. الربيع جاء ! واليوم لن تسعها جدران حجرتها الأربعة ، أعدت طبيخها بسرعة .. وأرسلت خادمتها الصغيرة لتطرق باب « كاترينا » زوجة الكابتن التى تسكن فى مواجهتها .. وتقول لها : « تحيات سيدتى بنيلوب زوجة ديمتريوس .. وهى تقول لك ـ إذا أنت أحببت ـ فسوف نحمل غداءنا ونخرج إلى الحقول ونتناوله هناك ..' وهى تقول لك ، لقد جاء الربيع » .. ولكن كيف تغادر زوجة الكابتن بيتها وهى تعده لاستقبال خمسة رفاق بشوشين فى الصباح الباكر لليوم التالى ؟ لقد كانت تعد الدجاج كوجبة لذيذة للمأدبة ، واحدة ستسلق ، والثانية سوف تتبل بالدقيق المسكر ، والثالثة سوف تشوى على السفود .

ـ لن نستطيع ، قول لسيدتك إننا لن نستطيع ذلك اليوم ، ونرجو أن تعذرنا ولكن إذا أحبت أن تتفضل بزيارتنا هذا المساء ومعها أدوات الحياكة ، فسوف الجارات أيضا .. وسيحضر كذلك (على أغا) لكى

يسلينا ، قولى لها إن الكابتن سوف يغيب عن البيت اليوم بطوله ، فلا تخشى شيئا .

وقطبت « بنيلوب » جبينها ، وأرسلت خادمتها الصغيرة إلى جارات أخريات ، إلى زوجة « ماستراپاس » وزوجة « كراسوچورجيس » إلى شقيقه « بوليكسيجيس » .

الكابتن ميخاليس اليوم بطولة .. فلا ينبغى أن تخشى شيئا .

وقطبت بنيلوب جبينها وأرسلت خادمتها الصغيرة إلى جارات أخريات ، إلى زوجة ماستراياس وزوجة جراسوچورچيس وإلى شقيقة « بوليكسيجس » ولكن الأولى قالت أنها تتوقع قدوم الأسقف ليطرد الأرواح الخبيثة من بيتها ، وقالت الثانية أنها تعانى من الصداع والدوار ، أما شقيقة « بوليكسيجس » فقد قالت أنها تخبز مسبقا للعشاء ، وان قدميها متورمتان ولا تستطيع الحركة ..

وزمجرت بنيلوب فى هياج : « سحقا لكم أيتها الغبيات الفاسدات .. ! الا تفتحن ابدا جحوركن لترين مايدور خارجها ؟ أم أن ذلك يجعلكن تشعرن كما لو أصبحتن عرايا ؟ تعالى يا ماروليو ، واذهبى إلى « مارسيلا » زوجة الطبيب ، بالرغم من أنها فريسة فسوف تفهم ماذا يعنى قدوم الربيع ، وسوف تحضر ! .. »

كان اسمها « مارسيل » وليس « مارسيلا » ولكن بنيلوب كانت تمزح معها بسبب يونانيتها « المكسرة » ! ولأنها كانت تتميز بادعاء أبناء المدينة الكبيرة ، كانت « باريسيا » ـ وهكذا كانت تنطقها ـ أكبر من « ميجالوكاسترو » .. وهناك نهر يجرى وسط شوارعها ، ونساؤها يغشين المقاهى ويتبادلن الحديث فى جرأة مع الرجال .. ويظهرن أقدامهن حتى كواحلها ، وكانت تلك حكايات أشبه بالأساطير ، ولكن هذه الفرنسية الضالة لها أسلوب رشيق فى الحديث عن ذلك كله .. اسلوب يدل على أنها هى نفسها تصدق ما تقول ، كثيرا ما رأيت عينيها كابيتين .. ما الذى يمكن أن تأخذه من زوجها هذا الوقح بنعومته وإدعائه ؟ ، يا للعار ! إلى الجحيم هذا الزوج ! إنه لا يخجل من أن تكون له علاقة بفتاة من أركالوخورى .. لابد أن تخرج هذه المرأة المسكينة إلى الحقول ، ولسوف ننطلق فى سرعة القديسة (ايرين) قديسة الجداول الأربعة ، ولسوف يزيل هذا سأمها » .

ولكن الخادمة الصغيرة عادت مطأطئة الرأس : « إنها لاتستطيع .. قالت إنها ظلت تسعل طوال الليل ولم تذق طعم النوم ربما تستطيع فى يوم آخر .. ولتعذريها ! » ..

وسبت بنيلوب ولعنت ، واستعرضت فى ذاكرتها كل جاراتها ، هل ـ لا سمح الله ! ـ تدعو زوجة « كوليڤاس » ؟ ، إن زوجها حفار قبور .. وهى نفسها ممسوسة ترى الأشباح ، وكل الموتى يرفرفون فوق وسادتها ويخدمونها بإخلاص ، لماذا يجردهم زوجها من أكفانهم ويكسوب بها زوجته ونفسه ويترك الموتى عرايا فى رطوبة الأرض غضبانا ولهم كل الحق فى أن يغضبوا ؟ .. كلا .. لا ينبغى أن تدخل بيتها زوجة « كوليڤاس » فهل تبعث مرة أخرى إلى « أركوندولا » .. هذه البندقة المرة لتسألها إذا كان من الممكن أن تتفضل بالخروج مع بنيلوب زوجة البقال ! وهذه أيضا يقولون إن أباها كان ترجمانا فى القسطنطينية ، وكان يلعب الورق مع البطريرك : وعندما مات أبوها أصبحت تتلقى من البطريركية كل عام حقيبة ملأى بالجنيهات الذهبية من البطريركية ، وكانت تأكل الكافيار بالملعقة ! كلا .. إن طعام الآخرين لا يناسب وزيارات الموظفين والباشا لم تكن تفيدها ! .. وعندما كانت لاتزال صغيرة ، وجدت أن رجلا قد تبخر وآخر تعفن ، هذه المخلوقة المغرورة ! فلتنضخ الآن فى عصارتها وهى تجلس فوق الصندوق الذى يضم جهاز عرسها ، ولتدفع الثمن عن نفسها .. ولتدفع الثمن عن أخيها أيضا هذا الأصم الأبكم ، فالآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون ، فقد حدث أن سيق كريتى إلى القسطنطينية ليشنقوه هناك حيث قيل أنه قتل رجلا تركيا .. ولقد كان أبوها الترجمان ـ اللعنة على عظامه ! ـ يعرف الحقيقة ، فالقاتل لم يكن ذلك الكريتى ولكنه كان شخصا آخر .. كان أحد البكوات .. ولكن هل هناك شىء يمكن أن يجعل هذا الترجمان الثلاب يفتح فمه ليتكلم ؟ ، كان مذعورا .. وظل كالأخرس لاينطق .. ومن أجل هذا فإن ولده الوحيد أصبح أخرس لا ينطق .. لا .. لن تخرجى مع الآنسة « أركوندولا » .. لا .. حتى ولو أرادت هى ذلك .

وقفزت خواطرها بعيدا عن هذا البيت الكبير المتعالى .. بعيدا .. « فهل ياترى اسأل ڤانجيليو ؟ ولكنها هى الأخرى لن تحضر ولأنها مشغولة ولاشك بإعداد جهاز عرسها ، ففى عيد الفصح سوف تتزوج من « تيتريوس » المدرس بحق الشيطان ، كيف اختارت الفتاة هذا الرجل ؟

هذا الرأس الأصفر .. هذا المعلول ذا العوينات ؟ أحقا هى تحبه كما كانت تقول ؟ ولكن لا غرابة فهناك لعنة حلت عليها هذه المسكينة ، فاخوها هذا الوسيم الفاسد بساعته الذهبية ، قد أهدر كل نقودها على الحلى والفجور » ..

وبعد طول بحث وتمحيص ، وصلت بنيلوب إلى قرار ارتقت حوض الأعلاف وأمسكت قبضة من أوان التكعيبية واتجهت إلى المطبخ ولفت الطعام فى أوراق العنب وملأت سلة بالخبز والزيتون وبرتقالتين وزجاجة صغيرة من النبيذ وبرقوق بيضاء بالكحول وبن وسكر وسكين وشوكة ومنشفة ، ثم خرجت إلى الفناء وصاحت فى خادمتها الصغيرة : « تعالى معى يا ماروليو » .

وأغلقت الباب المطل على الشارع .. وانحدرت نحو الميناء بجسدها السمين وكتفيها العريضين ومشيتها المترجرجة وكأنها نوع خاص من الخراف ذوات « اللية » السمينة التى وصلت أخيرا إلى كريت من آسيا الصغرى ! وتملك الارتباك السيدة المسكينة وهى تحس بنصفها الأسفل يتأرجح ، ولكن ماذا كان بمقدورها أن تفعل ؟ .. هكذا قالت وهى تشعر بشىء من الارتياح ، فحتى هذه « الغريبة » من صنع الله ! ..

من حسن حظى أن ساقى ليستا متورمتين مثل قدمى الآنسة « كريسانتى » شقيقة « بوليكسيجس » ولازلت والحمد لله قادرة على استخدامهما ، ولازلت أصدر أوامرى إلى هذا الخنزير زوجى أنا التى أقوده وليس هو الذى يقودنى ، فأنا أساوى عشر فتيات ، وعشرة شبان لا يستطيعون اسقاطى على الأرض ، أنا حقا كما وصفونى .. السيدة القوية » ..

وبعد طول تعثر وانحدار عبرت الشارع العريض الذى كان يعج بالحمالين والعمال والمزارعين أى ضجة هذه وأى صخب ! يا للكريتين وأعناقهم الغليظة كأعناق الحمير ! هكذا كانت بنيلوب تقول لنفسها وهى تزم شفتيها ، ذلك لأنها كانت من « ريثيمنو » .. وكانت تفخر بذلك : « كاينا » للأسلحة ، و« ريثيمنو » للكتب .. و« ميجالوكاسترو » للكيزاك ! وفى كل مساء لا يكاد أبناء ميجالوكاسترو ينتهون من أعمالهم حتى يترهلون داخل الحانات ويشربون بشراهة ويزدردون الاسماك المجففة واللحوم المشوية

على السفافيد وقد فاحت منهم رائحة النبيذ والعرقى واللحوم ، أما أبناء « ريثيمنو » فهم على النقيض من ذلك بمشيتهم المحترمة وانحناءاتهم العميقة ، واحتفالاتهم الرفيعة ! زوجها ديمتريوس فقط كان يختلف عن باقى أبناء « ميجالوكاسترو » ولكنه ـ باركه الله ! ـ كان نصف جسد ! .. لماذا لا تستطيع أن تبعثه إلى الحياة بالليل ؟ .. كل محاولاتى ضاعت هباء ! .. نعم آه لو كان من أبناء « ريثيمنو » .... » .

تنهدت وتابعت سيرها حتى أصبحت قريبة من الميناء : « سوف يكون جالسا هناك كعادته يلهو بمذبته ، نعم .. » ..

ولكن ديمتريوس كان قد تعب من اللهو بمذبته منذ فترة ، وغرق بين دفتى مجلد ضخم كان يسجل فيه بلونين من الحبر ـ أحمر للحوم .. وأزرق للباقى ـ الطعام الذى يأكله كل يوم . وكان قد استغرق فى مراجعته ، يقرأ عن الأطباق .. ويتذوقها بخياله حتى سال لعابه وبدأ يتصفح صفحات بضعة أيام مضت .. يتهجى ماكتب فيها ببطء ويستطعم وكأنه يمضغ الطعام ، ٢٠ مارس ١٨٨٩ فاصوليا طازجة بالخرشوف والبصل الأخضر ، كمية من الزيت تخلط جيدا ، ٢١ مارس ، خيار بالثوم يشويه البائس « تولوباناس » ..

وأقبلت فتاة صغيرة إلى مدخل الدكان :

ـ « سيدى ديمتريوس : أرسلتنى سيدتى زوجة كريستوفاكاس » ـ لكى تعطينى ست أوقيات من المصطكى لزوم الطهو » ..

ـ أعرف ما تريدينه يا ابنتى .. ولكنه هناك .. فى مكان عال .. !

ومط الكلمة الأخيرة كأطول ما يستطيع حتى يشير إلى أن المصطكى هناك فى مكان ما فى آخر الدنيا ! ..

وانصرفت الطفلة بينما عاد السيد ديمتريوس ليغرق مرة أخرى فى دراساته ، ٢٥ مارس العنوان : السمك البكلاه بالليمون .. البكلاه بالبقدونس ، البكلاه المشوى بالثوم ، سلاطة الخيار ، لذيذ الطعم للغاية » ..

ولكنه الآن كان قد « درس » بما فيه الكفاية ، فعاد إلى المذبة وهو يتنهد

ويغمغم : « أنا ، ابن الكابتن لينبوتوم الشهير ، الأم انتهى بى الأمر ؟ كان جدى يمتلك سفينة حربية يضرب بها سفن الأتراك ، وكان أبى يمتلك بندقية وكان يقتل بها الأتراك ، أما أنا ، فلا أملك سوى هذه المنشة .. أقتل بها الذباب ! لعن الله وجهى ! » .. ثم لطم وجهه الصبوح براحته وهو يرى دكانه قد أصبح ضئيلا بالنسبة إليه بعد أن خطر أبوه بذاكرته .. ويبسط ذراعيه ولمس بأصابعه الحوائط يمينا ويسارا ومثل شمشون ، ود لو دك هذه الحوائط حتى يجعل الدنيا أمامه أكثر اتساعا لا يحس هو .. « ديمتريوس لينبوتوم » بالضيق ..

وفى ذات اللحظة التى كان ينذر فيها نفسه ليدك الحوائط إلى شطرين ، أظلم الدكان ، فقد وقفت ببابه « بنيلوب » طويلة مستديرة سمينة لاهثة الأنفاس ، وعندما رآها مستر « ديمتريوس » أغبر وجهه : « ماذا تريد منى بحق الشيطان ؟ .. الا يكفى الليل بطوله ؟ من أين لها هذا النشاط .. هذه المرأة التى لا تستحى ؟ هل وضع أحد ما بترولا فى أردافها ؟ .. آه ! أين هى من سيدات ريثيمنو المحترمات ! » ..

ثم قال فى صوت عال وهو يفتح الكتاب بسرعة « مرحبا » ! ..

وصاحت زوجته : « انهض يا ديمتريوس .. انهض ! سوف نمضى معا إلى الريف ! لا تتعفن هكذا ، أعط عظامك فرصة الدفء ، بارك الله فيك ! ها أنت مثل الضفدعة بمستنقع هيا وأخرج نفسك من هذا المستنقع ! لقد أحضرت غذاءنا معى .. طبقك المفضل ... » ..

ثم أنحنت نحوه تهمس فى أذنه : « كفته ملفوفة بورق العنب .. وضعت فيها كمية كبيرة من الفلفل .. سوف ترى كيف يلذ مذاقها فى الريف ! » ..

وهز السيد ديمتريوس كتفيه وصاح : « لن أذهب .. لن أذهب .. » . ثم تشبث بمقعده ..

– « قم يا ديمتريوس .. يا عروستى الصغيرة .. قم ! اعمل معروفا ، وأعدك بألا انتهرك » ..

ولكنه اشاح بقوة كما لو كانت « بنيلوب » ذبابة ، أو خادمة يريد أن يطردها من الدكان ، ثم صاح ثانية : « لن أذهب ! لدى عمل كثير اليوم الا ترين بعينيك ؟ أنا أسوى حساباتى .. مالى وما علىّ حتى أعرف فوق أى أرض نقف .. اذهبى أنت .. فهناك ملاك فى رفقتك ! » ..

وأمسكت « بنيلوب » خادمتها من عنقها وصاحت « هيا ياماروليو ! .. سوف تمضين معى وكأنك جارتى وزوجى ! .. هيا بنا .. وسوف نتناول غذاءنا معا تحت أشعة الشمس ، ثم أدارت ظهرها للسيد / ديمتريوس وانسحبت وهى تغمغم :

« كان أفضل لو تزوجت سكيرا ، هاوى محظيات » .. أنجب له دستة أطفال قبل أن يستطيع ترويضى ، وكان أفضل لو عشت فى ريثيمنو ، حيث يعيش عليه القوم ، وليس هنا مع هؤلاء الحمير ، أبناء ميجالوكاسترو ! » ..

... وتحركت فى هياج : وكان الجوع قد استبد بها .. ورأت الشمس ترتفع أكثر فى كبد السماء .. وأحست بخياشيمها ترتعش ـ لقد بدأت تشم رائحة العشب .. وكانت لاتزال ممسكة بخادمتها الصغيرة « ماروليو » من قفاها تجرها معها بقوة والفتاة تتعثر معها وهى تلهث وتئن تحت ثقل السلة الموسوقة .. وبين الحين والآخر ينزلق « شبشبها » من قدميها .. حتى اضطرت إلى أن تخلعه وتضعه فوق الخضراوات فى السلة .. وبعدها بدأت تركض إلى جوار سيدتها ..

وعندما وصلت « بنيلوب » إلى كنيسة القديس « ميناس » توقفت ثم رسمت علامة الصليب وغمغمت : « عزيزى القديس ميناس .. أنت تعرف ما أريده .. ساعدنى ! » ..

وارتفعت صرخات وضحكات ، وامتلأت الساحة بالأطفال .. فقد دق الجرس .. اندفع التلاميذ إلى المدرسة ، وقفز قلب « بنيلوب » . وظلت واقفة مكانها تنظر إلى الأطفال فى اعجاب ، وتقول : « آه .. لو لم يكن ذلك عيب ديمتريوس وليس عيبى أنا ! سامحنى يا رب ! » ..

وغامت عيناها للحظة ، مر بخاطرها أولئك الشبان الذين رأتهم فى الشوارع وفى القرى وفى الأحلام .. وتمتمت لنفسها : « سامحنى الله ، ولكنى أظن أن زوجة باربايانيس برجالها الذين يعدون بالألوف .. على حق .. ترى كم من الرجال انجبت منهم ! الله وحده يعلم وممن أنجبت جارتى كاتينيستا زوجة كرا وجورجيس ! وباربايانيس يحاول أن يسد أذنيه ، ولكن برغوثا يظل يطن فى أذنيه على الدوام ، كان يرى قرينه بعينيه ! ويلمسهما .. ويحس بهما ! .. ولكن .. ماذا كان بوسعه أن يفعل ؟ مرة واحدة فقط ـ عندما كان مريضا ـ استدعى زوجته وقال لها : « يا

زوجتى .. بحق الرب .. وبحق ما تؤمنين به .. أصدقينى القول : هل كل الأطفال الذين أنجبتيهم .. أولادى ؟ » ..

ولكن زوجته لم تحر جوابا ..

- « أخبرينى يا زوجتى .. أنت ترين أننى أموت .. مم تخشين إذن ؟ » ..

فقالت الزوجة :

- « وماذا لو لم تمت ؟ .. لنفرض أنك لم تمت ؟ » ..

وضحكت بنيلوب وهى تتذكر ذلك .. ثم أفسحت الطريق جانبا لكى يمر أطفال المدرسة ، ونظرت إلى « تارسوس » الصغير ، إبن جارتها زوجة الكابتن ، ونادته وهى تنظر نحو السلة لكى تعطيه برتقالة : « تارساكى .. تارساكى ! » ..

ولكن كيف يستطيع تارساكى أن يسمعها ؟ لقد كان يضع يده فوق كتفى زميليه .. « مانوليوس » ابن « ماسترایاس » عن يمينه .. و« أندريكوس » ابن « كراسوچورجيس » عن يساره .. وكانوا جميعا يغدون وهم يثرثرون ويضحكون وكأنهم لا يتعبون من اللهو ، بالأمس فقط قذفوا خردقة صغيرة على مدخل المدرسة فى اللحظة التى أدار فيها « تيتيروس » ظهره وتهيأ لتعليمهم الأغنية التى كان ينبغى أن يغنوها يوم الأحد التالى : « جاء الربيع ومرة أخرى عادت الزهور ! .... » ولحظتها ارتفع صخب التلاميذ .. ووجد « تيتروس » فيها صوت مادة للدعابة الهامة ، فرفع مقرعته وقال : « يا أولاد .. هيا بنا إلى الفناء .. جميعا .. ولتغنوا هناك ، حتى إذا كان بعد غد وذهبنا إلى الأقباء الثلاثة » .. لم نفضح أنفسنا .. إلى الأمام ! » ..

وقادهم بنفسه رافع الرأس .. ولكن ما أن خطا خطوتين فى صرامة عند مدخل المدرسة تزحلق وسقط فوق الأرض مثل الجرة .. وانسحقت عويناته الى قطع صغيرة ..

وتساءل أندريكوس ألم تتحطم عظامه أيضا ؟ ... وكأنه يريد أن يطمئن على أنها لم تخرج سليمة ! » ...

ولكن كارساكى أجابه مؤكدا : « لقد مات .. أقول لك إنه مات .. ألم

تسمع وقع السقطة ؟ .. لقد كان صوت عظامه » ..

وقال مانوليوس وهو يفرك يديه فى سرور : « وهل سمعت صرخته ... أوه ! .. لابد أن عظام وركه قد تحطمت ـ فهو لم يستطع النهوض ، لقد صرخ .. آه .. آه .. ، ثم أخذ يبحث عن نظارته » ..

ـ « ذلك يعنى أننا أحرار الآن نستطيع أن نفعل ما نريد .. اتفقنا ؟ » ..

وصاح الزميلان « اتفقنا ! » .. ومر بحذائهم كلب ، فالتقطوا حجارة من الأرض وانطلقوا خلفه ..

... وقريبا من « التكية » المجاورة للباب المؤدى إلى القديس ميناس ، سمعوا ضجيجا وصخبا .. فتوقفوا ...

وقال تارساكى : « حميده مولا تضرب أفندينا ؟ فلننتظر فقد نرى شيئا مسليا » ..

ووقفوا على أطراف أصابعهم ليتمكنوا من الرؤية من خلال الشباك فى الحائط .. وكان الفناء الفسيح المزروع بالأعشاب يمتد أمامهم .. وفى الوسط منه يقوم قبر القديس مزينا بأشرطة من أقمشة ملونة ، وبالقرب من الضريح كانت الأم المرسلة الشعر بأنفها الممتد كطرف حربة .. كانت تقبض على عنق ابنها بإحدى يديها .. وبالأخرى عصا ذات أطراف كالشوكة .. كانت تصيح فيه مهددة :

ـ الا تخاف الله ؟ أنت لازلت تتردد على بيوت هؤلاء اليونانيين حيث يقدمون لك لحم الخنزير ويجعلونك تشرب النبيذ ويدنسونك ، سوف أحبسك أيها الغبى الملعون وسوف اضربك بلا شفقة .. ولن تذهب ! » ..

وحاول أفندينا التملص والفكاك من مخالب أمه .. وصرخ كما لو كانت مقبلة على قتله وصاحت الأم وهى تهزه بعنف :

ـ « لن تذهب ! أنسيت العار الذى جلبته على نفسك فى كل مرة ذهبت فيها إليهم ؟ وعندما تفيق تعتذر وتعوى ! ثم تلقى قبعتك فتبدو القرحة ، فتلوثها بروث الخيل وتجرى فى الشوارع وتنهق كالحمير ، وهؤلاء اليونانيون يرجمونك بقشر الليمون ويطلقون عليك اسم امرأة .. انهم يسمونك أفندينا « أفندينا روث الخيل » ! .. ألا تخجل وأنت أمام هذا القديس .. امام جدك » ..

هكذا كانت تهينه بحدة وهى تشير إلى الضريح بخرقه الملونة البراقة وصاح أفندينا ويداه مرفوعتان :

ـ أنا أفكر فيه ليلا ونهارا .. أقسم انه لا يغيب عن بالى ليلا أو نهارا .

ـ لماذا إذن تدنس نفسك ! ..

ـ ألا تريدين أن أصبح قديسا ؟ قديسا مثل جدى ؟ كيف بحق الشيطان تتوقعين أن أصبح قديسا إذا انا لم أمارس الخطيئة ؟ إذا أنا لم أقع فى الخطيئة فكيف اعرف الندم ؟ وكيف أبكى ؟ وكيف أتوجه إلى الرب ؟ وكيف أظهر قروحى ؟ كيف إذن بحق الشيطان أصبح قديسا ؟ ..

ووقفت حميده مولا فاغرة فاها ، وبدأت تحدق فى ابنها ، ثم فى الضريح ثم لزمت الصمت ، ربما كان ابنها الأحمق هذا على حق .. ربما كان حقا هذا الذى سمعته عن الرجل العجوز .. القديس .. جد أفندينا .. لقد سمعت أنه قضى حياته منغمسا فى اللذات وعندما تغض وجهه وأصبح عاجزا عن تناول الخمور واللحوم والنساء .. سقط فى القدسية ! .. وقد ارتقى مئذنة « آجاكاترينا » ورفض أن يهبط أو يأكل ويشرب ، وظل يبكى ويضرب نفسه ويبتهل إلى الله ، ظل يصيح سبعة ايام بلياليها ، ثم صرخ صرخة قوية وقف لها شعر سكان « ميجالوكاسترو » وطارت الغربان فى السماء ، وأنزل الله عليه رحمته فأرسل اليه الطعام حتى يبعد عنه الموت .. الا يمكن أن تكون هذه أيضا هى نفس سبيل ابنها الى أن يصبح قديسا ؟

وأحست « حميده مولا » بالحيرة ولم تعد تدرى أتستمر فى ضرب عزيزها أو تجلس القرفصاء فى ركن فناء بيتها لتستمتع بالشمس وهى التى بدأت ترتعش .. وألقت العصا بالقرب من الضريح ، واسترخت أظافرها التى كانت تقبض عنق أفندينا ، ثم رفعت قبضتها ملوحة له .

ـ أغرب عن وجهى ! ليتخطفك الشيطان . افعل ما شئت .. كل واشرب وارقص هنا وهناك ، ثم عد وضع روث الخيل فوق قروح رأسك .. !

قالت ذلك واندفعت فى قلق نحو ركن الفناء المشمس ..

وقال « أندريكوس » :

ـ يا لسوء الحظ ، إنها لم تمزقه إربا ..

وقال « تاراساكى » :

ـ فقط انتظر .. وسوف يقوم أبى غدا بهذه المهمة ..

ثم وكز صديقه بكوعه وقال :

ـ هيا .. وغدا عند الغروب سوف نبرم ما اتفقنا عليه أنا أدعوك ، ولا تنس أن تحضر المقلاع وسوف أحضر أنا حبلا ..

قال « أندريكوس » :

ـ سوف أحضر عصا .

وقال « مانوليوس » :

ـ وأنا سأحضر وتدا .

ـ وسوف ندعو « نيكولا » أبن « فورد جانوس » أيضا فإن يديه قويتان ، وتساءل « مانوليوس » وقد توقف مكانه :

ـ ولكن ماذا يحدث لو أن أباها رآنا ؟

وقال « تاراساكى » فى ضيق :

ـ أف .. ! وماذا لو رآنا ؟ .. أهو قادر على أن يضرب أى شخص ! .. إنه ليس كريتيا ولكنه من « سيرا » ..

فقال « أندريكوس » :

ـ ولكن .. هل سنقدر على الإمساك بها ؟ إنها تزن طنا كاملا .. هب أنها صرخت ؟ ..

وعبس « تاراساكى » وقال :

ـ اسمع يا أندريكوس ، أمور كهذه تحتاججج إلى قلب ثابت ، أليس لك قلب ثابت ؟ إذا لم يكن لديك فاخرج من اللعبة .. وسوف أرى من يحل محلك .

فقال « أندريكوس » وقد أحس بأنه قد جرح :

ـ أنا ؟ إن قلبى مثل الجبل ..

فصاح تاراساكى وهو يحث الخطى :

- سنلتقى غدا ..

وأصبحوا قريبين من المدرسة فقال « تاراساكى » آمرا :

- أهدءوا الآن .. ولا تبح بكلمة واحدة ، وإلّا فسوف تندم ! غدا يسكر أبى ، وأصبح أنا حرا وأستطيع الخروج .. وقل انك ستخرج للخدمة المسائية ، وسوف تعطيك أمك نقودا ، توقد بها شمعة ، وسوف نشترى بها حمصا ..

وقال « ماتوليوس » مقترحا :

- ونأخذه معنا إليها ..

فصاح « تاراساكى » :

- غبى ... ! ولماذا نأخذه لها ؟ .. نأكله .. !

فى نفس اللحظات كان الكابتن ميخايليس يمر بمهرته بحذاء الجبل الظالم والعصابة التى يعصب بها رأسه قد انحدرت حتى حاجبيه ، وعلى يساره البحر المزبد ، وعلى يمينه صخرة .. صخرة كأنها الحديد .. الجبل الموحش العارى .. الجبل الملعون الذى حين يمر به الكريتى فيرسم علامة الصليب وهو يسب تركيا .. ذلك أنه فى أى ثقب منه ، وفى شق تبحث فيه ؟ .. سوف تجد عظام كريتيين ذبحهم الأتراك ..

ورسم الكابتن ميخايليس علامة الصليب على صدره ، فمنذ ثمانية أعوام مضت قتل أخوه « كريستوفيس » وولداه ، وبعدها ظل الناس أياما يتتبعون الغربان حتى وجدوا جثثهم الثلاث داخل ممر صخرى ضيق ملقاة احداها فوق الأخرى ، وكانت السنتهم مفقودة .. كانوا يركبون دوابهم كل إلى جانب الآخر فى المساء وهم سعداء ينشدون نشيد موسكو ، كان ذلك يوم تعميد « تاراساكى » وكان الأخوة وأولادهم فى الطريق إلى بيوتهم بعد أن شربوا وسعدوا بوقتهم ، ولحظتها لوحوا نحو الأفق ، وصاحوا يتمنون أن يدركهم الموسكوفيون .. وكان الأتراك فى انتظارهم .. فوثبوا عليهم من كمين أعدوه ، وقطعوا السنتهم .

وغمغم الكابتن « ميخايليس » وهو يلكز مهرته : « أيتها المنبوذة كريت !

كم من الأجيال انقضت وأنت تبكين أيتها الأرض سيئة الحظ .. ومن ذا الذى استمع إلى بكائك ؟ حتى الرب محتاج إلى تهديد لكى يصنع معجزته .. إن الأقوياء فوق هذه الأرض يحتاجون إلى تهديد جيد .. اقبض بيدك بندقيتك مرة أخرى أيها الأحمق ، فهى وحدها التى ستصبح الموسكوفيين المنقذين ! .. ولاشىء غيرها ! » ..

وتنهد .. أتابع سيره بعينين كابيتين ، بعيدا وفى بطء عن البحر داخل السهل ، ومن السهل داخل الجبل ، ثم مالبثت خياشيمه أن تمددت ، لقد تعطرت وهاد كريت بالصعتر والمريمية .

وغمغم الكابتن : « كم هى جميلة كريت .. كم هى جميلة ! .. آه .. آه لو لنت فسرا كيما أستمتع بمنظرها الشامل من ارتفاع شاهق .. » ..

والحق أن النسر يمكن أن يشاهد جمال كريت ويعجب به .. يعجب بالطريقة التى يرتفع بها جسدها المحبوك فى اتزان .. الطريقة التى يبرق بها سواحلها .. مرة فى رمل أبيض .. وأخرى بين رمل أحمر كالدم ، جبال خالصة داخل البحر ، ولسوف تغمره البهجة وهو يرى القرى والمزارع الضخمة والأديرة والكنائس الصغيرة التى تتوهج فى مواجهة الصخرة الحديدية الداكنة أو التى تقف ثابتة فوق التربة .. وفوقها كاتيا ، وريثيمنو وميجالوكاسترو .. مدن ثلاث معذبة ظلمها الأتراك بحوائطهم الفينيسية وبأعمالهم التتريك فى الكنائس ..

والله ايضا ـ وهو أعلى من كل بشر ـ لابد أن يرى نفس المشهد إذا لم يكن سبحانه قد نسى كريت أجيالا وراء أجيال وأسلمها روحا وجسدا إلى أيدى الأتراك !

لا .. بل أسلم الجسد فحسب ، فقد قاوم الكريتيون ، وغلوا دائما بالغضب .. ورفضوا أن يضعوا خاتمهم تحت خاتم الله ! فلم يكن ذلك من العدل فى شىء ! ورفعوا أيديهم إلى السماء وصاحوا « ظلم ! » ووطنوا انفسهم كمسيحيين طيبين على أن يرفعوا ذلك الظلم الإلهى الذى لايحتمل ، والله ذاته محارب أيضا .. أيكون مشغولا عنهم لأنه يدير حربا فى مكان ما ، فوق كوكب ما ، ضد أتراك آخرين ؟ ! .. لسوف نظل نناديه سبحانه حتى يسمعنا ..

هناك شعوب وآدميون يدعون الله بالصلوات والدموع أو بضبط النفس المنظم والمعقول .. بل ربما لعنوه .. أما الكريتيون فقد دعوه بالبنادق ، وقفوا أمام بيت الله وأطلقوا بنادقهم حتى يسمعهم سبحانه ، وأصاب « التمرد ! » السلطان في الصميم عندما سمع لأول مرة صوت الطلقات .. وسرعان ما انتابه الهياج والغضب وأرسل الباشوات والجنود والعصابات ، وصاح الفرنجة « إهانة ! » ، وأطلقوا سفنهم الحربية ضد اللحاء الهزيل الواقع بين أوربا واسيا وافريقيا الذى خاض فى شجاعة حرب الموت وأعولت « هيلاس » الأم المتسولة وهى ترتعد ، تذرعوا بالصبر ، ولا تلقوا بى فى مذبحة ! » .. وأجاب الكريتيون فى صوت يصم الأذان وهم أمام باب « الرب » « الحرية أو الموت » ..

فى البداية مدت ذلك مرة واحدة فى جيل واحد ، ولكن فى النهاية ـ وبعد الثورة الكبرى فى عام ١٨٢١ ، ارتفعت حدة الصخب ، وأسرع السخط خطاه ، وابتلع قلب كريت الاهانة والاحساس بالظلم ، والمعاناة حتى اتضح وفاض الكيل فى النهاية فانفجرت كريت فى وجه الوحش المخيف الذى تقبض مخالبه على سجينه ، فأفنت جسدها وأحرقت قرارها وخربت حقول زيتونها وعبئها ، وتكومت الجثث فوق سهولها العارية مرتفعة تصل إلى أعتاب الله ، ثم عادت .. تنزف من آلاف الجراح .. عادت إلى مخالب الوحش . كان ذلك فى سنة ١٨٦٦ فى زمن أركادى .. ثم حدث انفجار ثان فى سنة ١٨٧٨ وعادت كريت لتسقط مرة أخرى فوق الأرض ، وبدأت تصبح أكثر استعدادا لابتلاع الظلم والبؤس .. والآن ـ وفى بداية عام ١٨٨٩ ـ بدأ قلب كريت يقترب من الانتفاض والفيضان ، فى القرى كان الكريتيون يديرون وجوههم ويرفعون قبضات أيديهم ويحدقون فى اتجاه الشمال .. فى اتجاه اليونان .. وإلى أبعد من ذلك فى اتجاه موسكو ، استيقظ الآباء فى صدورهم فتململوا ولم يعودوا يحتملون البقاء داخل بيوتهم وقراهم فى راحة وسكون ، كان النوم قد جفاهم ، فى كل يوم أحد كانوا يستدعون المدرس والقسيس وعازف القيثار ليغنى لهم همومهم .. هموم كريت ، ولكى يذكى أوار غضبتهم ويقفز بها إلى الرؤوس ، ودائما عندما كان يهجم الربيع .. وعندما تمتلىء الحقول بالدفء ، وعندما تدفعهم القوة الفائضة .. كانت قلوب الكريتيين تزداد ضراوة .. وكان الاتراك يعرفون ذلك ويبعثون بالأوامر ـ وبالجنود ـ لابقائهم داخل بيوتهم .

وتورم قلب الكابتن ميخايليس ، ولم يعد قادرا على احتمال بؤس « كريت » أكثر من ذلك ، غرس المهماز في بطن المهرة وركض بها بحذاء « الجبل الظالم » حتى وصل إلى تربة حمراء ، ثم اتجه في طريق الشاطىء ، وأحس بالجوع ، فانحدر نحو فندق الأرملة ، وجاءت صاحبة الفندق ـ أرملة حاذقة طروب كثة سمينة فاحت منها رائحة الرطوبة .. رائحة البصل والكراوية وعبرها الكابتن ميخايليس بنظرته ، فلم يكن يحب النساء المتدللات اللائي يهززن أردافهن ، وظل يحدق في الطريق أمامه وفي البحر ..

وقالت الأرملة وهي تغمز له بفن : « مرحبا بالكابتن ميخايليس نحن لانراك إلا لماما ! إذا لم تكن على عجلة من أمرك فعندي أرنب مطبوخ بالبصل الطازج والكراوية » ..

وانحنت تجهز له مقعدا فانكشفت خطوط صدرها المرحب .. متدليا رطبا ..

قالت وهي تغمز له مرة أخرى :

ـ يجب أن تأكل لحما يا كابتن ميخايليس ، فأنت على سفر وهذه ليست خطيئة ولكن الكابتن ميخايليس كان غاضبا ، كان يكره هذه المرأة وطعامها .. وكره لحظتها حتى جوعه ، وقال :

ـ لن آكل شيئا لست جوعان !

ثم قفز فوق ظهر المهرة .. وحث الركض أسرع .. ترك الجبال خلفه ، وأصبح في السهل ، بخضرته الآمنة الجليلة ، وطنين النحل فيه ، وزقزقة الطيور وهي تعود في ثقة إلى أعشاشها الكريتية نفس أعشاشها في العام الماضي ، اليوم أول أبريل تشع كريت بالبهجة تحت أشعة شمس الربيع الناعم ، ولكن الكابتن ميخايليس لم يكن يرى ذلك حث الخطى إلى أين يا ترى ؟ من الذي كان يقتفي أثره ؟ لقد غطت مشاعره سحابة داكنة ، كان الساحل الذي تغمره أشعة الشمس مظلما ، وكان الطريق يمتد أمامه وكأنه النهر ، وكانت جبال « لاسيثي » تبدو أمامه متبخرة متماوجة كالدخان ، ومر به فلاحان فوق ظهري حماريهما ، ورفعا أيديهما إلى صدريهما يحييانه ، « أطال الله عمرك يا كابتن ميخايليس ! » ولكنه لم يرد على نظراتهما

وتحيتهما ، فقد كان ذهنه مشغولا وبقصر « نورى بك » ـ كان ذهنه يحوم حوله يمسح حوائطه العالية مثل اللص .. كان يحسب كيف وأين يستطيع أن يقفز من فوقها ليصبح فى الداخل ، ولكن ذهنه تعب ، ولم يعد يستطيع أن يعرف ماهى خطوته التالية إذا هو قفز وتسلل داخل الحديقة ! .. تحدر العرق على حاجبيه ، ودس يده فى زناره ولمس مقبض الخنجر وغمغم يقول لنفسه : « هذا الكلب على حق ، واحد أو آخر منا يعنى الكثيرين » ..

وعندما استل الخنجر وتسلق السور المرتفع فى جرأة وانحدر إلى الحديقة متسللا بين أوانى الأزهار حيث كان المصباح الأحمر الأخضر لايزال مشتعلا ، سمع فوق رأسه وخلف سلك الشباك ضحكة ، وفى الحال تصبب العرق غزيراً ، فوق عنقه من حاجبيه ومن كتفيه ووضح أمامه شىء أنه لم يقتحم المنزل ليقتل إن شيطانا قد تلبسه ! .. شيطانا جديدا يختلف تماما عن الشياطين من جنسه ، شيطان حقير يجلله العار وتفوح منه رائحة المسك ووجهه ـ يا للعار ! ـ وجه امرأة .

وغمغم فى أنين : « ألا تخجل من نفسك يا كابتن ميخايليس ؟ .. ماذا جئت تفعل ؟ ! » .

ورأى أجداده يقومون من قبورهم ليلعنوه فانكمش إلى الوراء ورفع قبضته وصاح : « أيها الأجداد فلتظلوا داخل حفركم فى الأرض ! أما أنا فحى أنا قائد ! .. لا تصرخوا فى وجهى ! » .

ومسح العرق من فوق حاجبيه بعصابة رأسه وتماسك ، وعادت الجبال أمامه واضحة المعالم ثابتة ، وعاد الساحل يتلألأ ، وانتصب النهر أمامه فأصبح مرة أخرى طريقا كما كان ، وعاد فتذكر لماذا اتجه إلى باب المستشفى وما الذى أراد أن يفعله ، لقد أعطى وعدا للبك ، وينبغى أن يفى ، كان فى طريقه ليرى شقيقه ماتوساكاس فى « آى ـ حانى » إلى هذه القرية الفسيحة بحدائقها والتى تبعد مسيرة ساعة من القرية الكبيرة ، « بيتروكيفالو » التى جاءت أسرته ، ألقت المقادير بشقيقه « مانوساكاس » منذ عدة سنوات مضت ، مثل حبة نبات وهناك ألقى جذوره وأينع ، والآن ـ ومثل شجرة البلوط بفروعها وأغصانها ، أصبح له أطفال وأحفاد يفرخون على طول القرية وعرضها ويستمدون الغذاء من تربتها ..

لى يوم لا ينسى ـ فى الرابع عشر من سبتمبر سنة ١٨٦٦ ـ وكان

« مانوساكاس » يمسح الأرض مع رفاقه بحثا عن الأتراك ، اقتحم قرية « آى ـ جانى » ووجد فى بيت فلاح هناك امرأة صغيرة مسدلة الشعر ، راكعة فوق الأرض ، وكان الأتراك قد ذبحوا زوجها للتو على عتبة البيت ، وكانت حديثة الزواج وكانت تلعن الرب ، إنه ظالم ، إنه يحب الأتراك ، وحدق « مانوساكليس » الذى كان فى الأربعين من عمره وكان قد فقد زوجته منذ سنتين ، حدق في الأرملة الصغيرة .. وأحس بأن قلبه قد ضاع منه ! ترك رفاقه ليستريحوا ويأكلوا فى الفناء بينما اتجه هو إلى البيت وقد لوثه البارود الأسود .. وطال شعره كالمتوحش . وعندما رأته الأرملة تملكها الفزع ، وصاحت وهى ترتعش وتخفى وجهها فى حجرها : « يا إلهى المقدس ! » .

ولكنه حاول قدر طاقته أن يبدو رقيقا .. ثم اقترب منها وقال :

« ابك يا امرأة .. ابك نفسك وخففى عن قلبك ، أنا الآخر كانت لى زوجة وقتلها هؤلاء الأتراك الكلاب ، أنا أيضا أعولت وذرفت الدموع وخففت من قلبى » ..

ثم تهالك بالقرب منها ، ولاحظ كيف أنها كانت تلطم وتعوى ، فانتظر ، ثم حدق فيها وبدأ يحس بقلبه يرتجف بالحنين ، آه .. آه لو استطاع أن يضمها بين ذراعيه ! .. لم يشعر « مانوساكاس » من قبل بشوق إلى امرأة مثلما أحس به وهو يرى هذه المرأة بعنقها العارى الساخن المهتز وهى

راكعة وألقى بيده فوق كتفها فى نعومة وحذر فى رقة :

« حسبك .. حسبك ، سوف تؤذين عينيك يا امرأة .. ألست آسفة عليها هاتان الجميلتان اللتان ، لم يخلق مثلهما في الدنيا .. اعلمى يا امرأة اننى عرفت الدنيا ـ أنا الكابتن مانوساكاس ، الذى يركع الآن أمامك لن أكون مدعيا ، ولكن تستطيعين أن تسألى عنى أى مخلوق ابتداء من كيساموس حتى سيثيا ، وسوف يخبرونك من أكون » ..

ثم سكت فقد خشى أن تبعد عنه كلمة زائدة واحدة ، هذه الأرملة إذا تملكها الرعب مرة أخرى ، ولكنه لم يكن يستطيع الاحتمال ، فاقترب منها أكثر وانحنى فوقها وبدأ يحكى فى صوت هامس كالغناء عن الأشياء التى رآها والتى عاناها وكيف أن كثيرا من الأرامل واليتامى تركوا يعانون نفس

العذابات ، وكيف أن دموعا عزيزة ذرفت .. من طرف كريت إلى الطرف الآخر ـ دموعا كالنهير .. كانت تلك محاكمات كريت ، وكل من ولد كريتيا ينبغى أن يعلم بها ولا يجفل .

ورفعت المرأة رأسها فى بطء .. وكأنها تاقت إلى أن تسمع عن المحاكمات وعن الآلام التى فى الدنيا ، وكان ذلك قد أسكن من روعها ، فمسحت عينيها ونظفت رقبتها وبدأت بدورها تحكى كيف قتلوا زوجها ، ثم رفعت يدها وأشارت إلى الدماء التى كانت لاتزال على عتبة البيت وقالت أنها تنوى ألا تغسل هذه الدماء حتى تظل دائما أمام بصرها .. فتتذكرها .. وتبكى أمامها ..

ولمسها « مانوساكاس » فى رقة .. لمس كتفها .. ثم شعرها .. ثم ركبتها .. فى رقة بالغة ثم قال :

ـ « أنت على حق يا امرأة ، أنا أيضا فعلت نفس الشىء على زوجتى الحبيبة ، لقد أغتالوها فى فناء البيت انتقاما منى لأن زوجها قائد ، وامتلأ الفناء بالدماء ، ولكن الأمطار جاءت وغسلت الدماء ، وعادت الصخور مرة أخرى بيضاء » ..

ثم تنهد وانحنى فوق الأرملة :

ـ « إن روح الرجل أيضا مثل الحجارة يا امرأة ، وشيئا فشيئا ، سوف تغسل الدماء .. وينسى كل شىء » ..

وعندما رأى المرأة وقد بدأت تغضب لمثل هذه الكلمات ، أمسك بعباءته الدافئة التى كانت تتصاعد منها رائحة البارود ، ثم وضعها حول كتفيها ، وقال :

ـ « لقد برد الجو .. دفئى نفسك حتى لاتصابى بالبرد » ..

ونظرت إليه .. وأحست بالخجل كما لو أن رجلا قد وضع نفسه فوقها ، وودت لو ألقت العباءة ولكنها كانت تخشى أن تؤذى مشاعره ، فانحنت وأحست فى البداية برعشة ، وشيئا فشيئا بدأت تحس باهتياج عاطفى عذب وهى تشم رائحة رجل تنفذ إليها من الرداء الصوفى وتتسلل إلى جسدها .. من كتفيها إلى ظهرها .. إلى فخذيها .. إلى كل قطعة من جسدها ، وتذكرت زوجها ، وأول عناق بينهما ، وذراعيه وكيف تسللت فى

نعومة وابتهال داخل جسدها فى الليلة الأولى ، وأحست بمزيد من الدفء والارتياح والعباءة تدثر كتفيها ، وأحست بأنفاس الرجل فوقها لاهثة بعنف وغلبتها عاطفة حلوة فاستدارت نحوه وقالت :

ـ « ليس لدى شىء تأكله ـ ولابد أنك الآن جوعان ، أنت قادم لتوك من القتال ، ولكن هؤلاء الكلاب الأتراك سلبوا كل شىء » ..

ـ « لا أريد أن آكل يا امرأة .. الله يأبى ذلك ! كيف آكل أنا وأدعك جائعة ؟ إذا لم تتذرعى أنت بالشجاعة وإذا لم نأكل معا فأقسم بالله الذى به أومن ـ أن أموت من الجوع معك » ..

وخشى أن تبعده عنها مثل هذه الكلمات القوية ، فسعل ، وهو يحس بأنه قد عجز عن أن يصلح ما قد يكون أفسده ، ثم مالبث أن قال :

ـ « لاتغضبى منى لحديثى معك بهذه الجرأة ، ولكن : ماذا أقول لك ؟ وكيف أقول ما أريد ؟ لن تصدقينى ! » .

ثم عاد فتنهد وبدأ يلف سيجارة ، ولكنه مالبث أن توقف فقد أحس بالحيرة والضياع ، ورفعت المرأة أهدابها الطويلة المبللة بالدموع وحدقت فيه ، كانت تريد أن تسأل ، ولكنها كانت خائفة ، وتاقت نفسها إلى أن تسمع ما يريد أن يقوله ، ولكنها كانت تحس بالخجل .

وعاد « مانوساكاس » يتكلم :

ـ « إنه لشىء مخجل حقا ، ولكنى لا أستطيع معه صبرا ، سوف أقول لك الحقيقة كل الحقيقة .. وبأمانة ، وأرجوك بحق الله ألا تسيئى التفسير ! وإذا كنت كاذبا فليعجل الله بصاعقة تحرقنى ! بمجرد أن جئت إلى هنا ورأيتك تبكين ، أحسست كما لو أن سكينا قد انغرست فى قلبى ، أنا أقول الحق يا امرأة ، لقد أصابنى الشلل فلم أر فى حياتى مثل هذا الجمال ! أنا أعنى تماما ما أقول ، لاتغضبى ، ولاتقومى وتهربى من أمامى ، هاك ، لن المسك ، معى ما أريد أن أقوله هو أن زوجك العزيز قد مات .. انتهى ، وزوجتى العزيزة أيضا ، قد ماتت وانتهت ، ولكن كلينا باق وحده فى هذه الدنيا .. تعالى حتى أرعاك ..

وبكت الأرملة الصغيرة .. ومالت منكبة فوق ركبتيها .. وكانت أسنانها

تصطك وجسدها يرتعش ، ونهض مانوساكيس واتجه إلى الباب ليدع المرأة وحدها لحظة يمنحها فيها الفرصة لتتماسك ورأى رفاقه ممدين فى الفناء ، وقد فتحوا زكائبهم ، وجلسوا يأكلون ، ووراء الفناء ، رأى الحقول الخصيبة ، وأشجار الزيتون ، اثقلتها الثمار ، وطواحين الهواء تدور وهى تئز في سلام ، وغمم « مانوساكاوس » وقد وصل إلى قرار :

ـ « ... هنا سوف ألقى جذورى ، هذه التربة جيدة ومثمرة ومثلها هذه الأرملة ، هى أيضا جيدة ، رطبة ومثمرة ، وسوف تلد أطفالا أقوياء ، أنا أحب هذه المرأة ، وهنا سوف ألقى جذورى ! فبحق هذه الشمس التى ترى فوقى كل شىء .. لن أتحرك من هنا ! » ..

وعندما عاد ليرى حال الأرملة الصغيرة ، وجدها قد أحكمت ازارها ونظمت شعرها ، وعضت شفتيها وبللتهما بلسانها لتبدوا حمراوين ، بينما العباءة لم تغادر كتفيها » ..

قالت فى خبث وهى تدير عينيها :

ـ « كابتن « مانوساكاس » .. ! هذا الذى قلته لم يكن ينبغى أن تقوله ، كذلك فاصفح عما قلته أنا أيضا ، وإذا كان ذلك صحيحا فهى خطيئة كبرى ، إن دم زوجى العزيز لايزال دافئا على عتبة البيت .. » ..

وتنهد « مانوساكاس » وخطا خطوتين ثم قال وهو يتهرب من ذلك الحديث :

ـ « لو كان لدى فقط قضمة خبز أو جرعة نبيذ ! ـ كذلك ـ إذا سمحت ـ فأنا قادرة على أن افعل ذلك بنفسى ـ ثبتى هذا الزرار المتدلى من سترتى » ..

وصمتت المرأة ، واحست بالأسى من أجل الرجل ، فنهضت واحضرت إبرة وانحنى الرجل قليلا أمامها ، ومسحت هى عينيها لترى افضل ، ثم بدأت تثبت الزرار .. وبينما كانت تفعل ذلك كانت تحس بقلب « مانوساكاس » يدق بعنف ورعشة داخل سترته ، وبأنفاسه الملتهبة فوق ركبتيها ..

وأحست بالخجل ، وانهت بسرعة تثبيت الزرار ثم نهضت واقفة ،

وفتحت الصندوق .. لم يكن صحيحا ما قالته ، فلم يسرق الأتراك شيئا ! وأخرجت غطاء منسوجا وبسطته فوق مائدة غطاء أبيض ناصع البياض كأنما أضاء البيت ، ثم مضت وأشعلت نارا وبدأت تطهو ، أما مانوساكاس فقد أشعل سيجارا وجذب مقعدا جلس فوقه بالقرب من عتبة البيت كما لو كان هو رجل البيت ، ثم ألقى بنظرة إلى الخارج ، ولكن أذنيه كانتا مرهفتين إلى داخل البيت ، سمع المرأة تروح وتجيء في انشغال تقلب النار ، وتطهو الطعام ، ثم تعود فتجهز السكاكين والشوك والأطباق ، وتعد المائدة سمع ذلك كله وسر قلبه ، ولم يحس فى حياته كلها بمثل هذه الراحة ومثل هذا الجوع .. ومثل هذا الصبر . إذن الآن يقينا ؛ أن هذه المرأة التى لوثها الدقيق .. والتى تطهو من أجله .. والتى سيجلس معها بعد لحظة ليتناولا وجبة طعام ، سوف تشاركه الطعام والفراش طوال العمر بعد أن تنتهى فترة الحداد على زوجها الميت ! .

هكذا كسب « مانوساكاس » زوجته « كريستينا » وهكذا ثبت جذوره فى قريتها ، كانت زوجة صالحة انجبت له أطفالا ، انجبتهم له توأما بعد توأم ، وامتلأ فناء البيت ، بل أنه الآن أصبح جدا - أصبح له أول حفيد - وشرب كثيرا فى الاحتفال بمقدمه .

لاحت « بيتروكيفالو » على بعد - فى سفح الجبل وبأعلى المضيق ظهرت « آى - جاثى » قرية « كريستينا » محوطة بالخضرة وحث الكابتن ميخايليس مهرته ، فصهلت وبدأت تعدو فى الطريق .. فقد عرفت القرية هى الأخرى ..

كان باب بيت « مانوساكاس » مفتوحا ، واشرأب الكابتن « ميخايليس » برأسه ، واندفع بمهرته ، ثم توقف فى الفناء وصاح :

- « أخى مانوساكاس »

وكانت الأسرة كلها تجلس بالداخل حول مائدة منخفضة تتناول الطعام ، وكان « مانوساكاس » يستند إلى الحائط وقد علق سوطه قريبا منه ، وفى مواجهته جلست زوجته « كريستينا » القرفصاء سعيدة شاكرة ، وبدت أسمن قليلا وان كان صدرها قد تهدل ، فقد أرضعت أطفالا كثيرين ، ولكن وجهها كان لايزال يتوهج مثل وردة كاملة الإزدهار .

سمع « مانوساكاس » صوت شقيقه فقفز واقفا وخرج إلى الفناء مادا

يديه الضخمتين ، وهو يقول : « مرحبا بأخى ، المائدة جاهزة .. زوجة أخيك تحبك .. انزل » ..

فقال الكابتن ميخايليس :

ـ « أنا على عجلة من أمرى ، أغلق الباب وسأتحدث معك .

وأغلق « مانوساكاس » باب البيت ليمنع أولاده وبناته من الاستماع إلى حديثهما ثم اتجه إلى شقيقه .

« استمع إلى ما أقوله يا « مانوساكاس » يا أخى ، إذا لم تكن تستطيع أن تصمد للخمر ، فلا تشرب منها شيئا » ..

واكفهر وجه « مانوساكاس » ..

ـ « لماذا توجه لى هذه الكلمة ؟ » .

ـ « لأن الله لم يخلق الحمار ليركب الرجل .. ولكنه خلق الرجال ليركبوا الحمير .. أفهمت ؟ » ..

ـ « نعم .. لابد أن أخاك فى الدم نورى بك غاضبا ، وقد أرسلك إلى لتقوم بعمله القذر .. أم لعلك أنت أيضا يا كابتن ميخايليس ؟ » ..

ـ « أنا لم اغضب ، ولا تحاول أن ترد كلماتى فى وجهى ـ أنت تعرف حقيقة ما أشعر به ، ولكن ذلك لا يخدم قضية كريت ، فالوقت لم يحن بعد لنرفع الراية » ..

ولكن « مانوساكاس » كان قد استشاط غضبا .

ـ « وعندما تسكر انت وتغنى أغنية موسكو ، وتقتحم مقاهى الأتراك وتوجه الاهانات إلى البكوات وتطرحهم أرضا فهل تفكر لحظتها فى قضية كريت ؟ .. وهل قدمت الأوسمة إلى بيتى لتقوم بدور المدرس ؟ » ..

ثم انحنى والتقط قطعة من الحجارة قذف بها إلى الأرض بعنف وجذب عنان المهرة وقال :

ـ « ماذا تقول إذن يا كابتن ميخايليس ؟ هل أنا على حق ؟ لاتلعب على دور القديس أونوفريوس ! » ..

وسكت الكابتن ميخايليس فماذا ترى يستطيع أن يقول ؟ لقد كان « مانوساكاس » على حق ، فهو نفسه يسكر وحين يسكر فهو لا يفكر فى كريت ولا فى غيرها . إلى الجحيم هذا الاعتدال اللذيذ ! فى مثل هذه الأحوال يمتطى صهوة فرسه ، ويبدو أمامه العالم كله صغيرا ، وتافها أشبه ما يكون بقشرة بندقه ، ويظل لحظتها يركض هنا وهناك ، ويحس كما لو كان يدوس هذه القشرة بحوافر فرسه إلى الجحيم هذه القشرة !

وقال « مانوساكاس » وهو ينظر إلى الفناء ثم إلى أخيه وقد قطب جبينه وأخذ يحدق فى الجبل :

ـ « لماذا لاتتكلم ؟ ما الذى يضايقك الآن ؟ .. أنا أعلم ما يدور الآن بداخلك ، استقر على رأى ألست ثائرا ؟ قلت لك استقر على رأى .. فذلك هو مصير كريت دعنى أنا أيضا أخذ بثأرى وليحترق هذا العالم ! فى عيدهم الأضحى سوف أخذ بغلتى وأقتحم بها مسجدهم .. ويستطيعون وقتها أن يقتلونى إذا هم أرادوا » ..

ـ أنا لا يهمنى أن يقتلوك .. ولكن يهمنى ألا تنسحق كريت .

ـ أحمق ! لن تنسحق كريت فلا تخف ، نحن الرجال الذين انسحقنا ، وليست كريت الخالدة . انتظر لحظة .

ثم قال بعد تفكير :

ـ « أخى » ...

ثم صمت لحظة وعاد يتكلم ..

ـ « هذه هى الحقيقة . أنا مختنق داخل هذه القرية ، ألا تفهم ؟ ظللت زمنا لا أستطيع أن أفهم سببا لذلك ، ولكن عندما أشرب .. يصفو عقلى .. ويطفح قلبى مثلك ، أنا لا أستطيع أن أذهب إلى القسطنطينية لأقتل السلطان فدعنى إذن أوجه ضرباتى وأحقق ذاتى كبطل فى قريتى الصغيرة .. دعنى أعمل » ..

وجذب الكابتن ميخايليس عناق المهرة وأدارها نحو الباب الخارجى وهو يقول :

ـ « فكر جيدا فيما قلته لك يا « مانوساكاس » يا أخى ، فكر فيه جيدا

عندما تخلد إلى نفسك ، ثم افعل بعدها ما يلهمك به الله وما تراه مناسبا لكريت ، ليس لدى ما أقوله لك بعد هذا .. وداعا ... » .

ـ « انزل قلت لك ، وكل شيئا معنا ولا تكن متعجلا هكذا ، أى شيطان يتعقبك ؟ ابق الليلة فى بيتى ، انه متسع والحمد لله وفيه مكان لك .. ابق لترى أولادى وترى كريستينا .. ولترى ايضا أول احفادى .. سأسميه « ليفتيزيس (الحرية) » فلعله يرى الحرية ..

ـ « انقل إليهم عنى جميعا التحية ، فأنا فى عجلة من أمرى » ..

ـ « ألن تدخل القرية لتزور أباك العجوز ؟ » .

ـ لا وقت لدى قلت لك أننى فى عجلة من أمرى . لدى عمل أقوم به فى الصباح الباكر .. متعكم الله بالصحة والسعادة » ..

ـ « أنت عنيد صلب الرأس كالخنزير . دائما تنفذ الذى يدور فى رأسك وإلى الجحيم كل شىء ... ! » .

وغطس كابتن « ميخايليس » فوق ظهر مهرته وخرج من الباب الرئيسى وركض بجواده متجها نحو السهل ، كان سعيدا ، فقد أعجبه كلام « مانوساكاس » ، وأعجبه أنه واجهه فى ثبات وكرجل ، ولولا التهاب المشاعر ، لاحاطه كابتن ميخايليس بذراعيه ، نعم ... أنت على حق يا « مانوساكاس » فافعل ما تؤمن به وإلى الجحيم كل شىء .. ومهما كانت النتائج ..

وانطلق مثل البرق حتى عاذ إلى « ميجالوكاسترو » وقلبه يقفز بين ضلوعه ، فقد وضع لحمه ودمه مرة أخرى موضع التجربة ، ووجده كما كان يريد أن يجده ..

كان الوقت قد تجاوز الظهيرة وبدأت الشمس تميل ، وعندما علمت نساء الحى أن الكابتن « ميخايليس » سوف يغيب طوال النهار ، تجمعن فى فنائه ومعهن أشغال الابرة ، والمغازل .. والخضراوات ليقشرنها ، بنيلوب وكريسانتى ، وشقيقه بوليكسيجس ، وكاتينيستا زوجة كراسو جورجيس ، وزوجة ماسترابانس كلهن اجتمعن فى أمسية فكهة من أيام السبت ، لقد انتهى اسبوع ، وغدا يوم راحة وطعام جيد ، وحياة اجتماعية حافلة ، والحمد لله سبحانه الذى خلق يوم الأحد ..

بدأت « كتينيستا » الحديث بصوت كالغناء :

ـ هل سمعت الأنباء الحزينة يا عزيزتى أريتوزا ؟ مرة أخرى فى الليلة الماضية كانت هناك صيحات وصرخات عند الجيران .. فى منزل « فوروجاتوس » ، كانت زوجته تضربه من جديد ..

وقالت بنيلوب :

ـ الحمد لله أن زوجى ليس له شارب كشارب فوروجاتوس ، حين تنظرين إليه تحسين بخوف لذيذ ـ فقد برمه جيدا ، وهذا الشمع الذى يستخدمه يجعله منتصبا مشرئبا .

وقالت زوجة « ماستراباس » التى تبقى زوجها مربوطا من كاحليه طول الليل :

ـ « لماذا لا يتبادلان مكانيهما ؟ ينبغى أن يعطى شاربه لزوجته ، ويرتدى هو ملابسها .

وضحكت الآنسة كريسانتى وقالت :

ـ أمس عند منتصف الليل تقريبا ، كان يبكى مرة أخرى ، وأقام الجيران كلهم على صوت عويله ، وكان أخى يمر قريبا منهم .. فسمعه ، وفى الصباح زاره وقال له : يا فوروجاتوس يا أخى ، لماذا تدع زوجتك تشرط جسدك إلى شرائح ، وأنت لاترفع يدك لتلزمها حدودها ؟ أنت تجعلنا نحن الرجال جميعا نبدو حمقى ، ألا تخجل من نفسك ؟ فماذا تظنون كانت اجابته ؟ .. قال : أنا أحس بالخجل يا كابتن أنا أحس فعلا بالخجل ، ولكننى .. استمتع بالضرب ! .

وضحكت النسوة .. ونهضت « رينيو » وأحضرت الطعام والشراب ، قهوة وطعاما محفوظا وبسكويتا بالسمسم ، وبينما كانت تخدم شاهدت على عتبة البيت جارهم على آغا بجواربه وابر الخياطة وحقيبته الخضراء التى أعطته أياها « رينيو » وقد وضعها فوق كتفيه .. كان أصلع ـ بلا شعرة واحدة ـ وكان يلمع من كثرة الاستحمام .. وكان قميصه الشاحب المرتق مرارا .. ناصعا ، وساقاه الرفيقتان بقبقابهما .. تلمعان .. واستقبلته « كاترينا » فى أدب وقالت :

ـ « مرحبا على آغا جارنا العزيز .. تعال وتناول قدحا من القهوة » ..

وأجابها على آغا وهو ينحنى لكل واحدة منهن :

- « شربتها لتوى .. شكرا ، ومعى بسكويت أيضا ومربة كريز ممتازة .. شكرا جزيلا يا سيدى » ..

وصاحت النسوة فى صوت واحد :

- « أوه .. ماذا دهاك يا على اغا ؟ أشرب قدحا آخر معنا صحبة » ..

وكن يعلمن جيدا أنه عفيف بالرغم من فقره .. كان فقيرا مثل فأر الكنيسة ، ولم يكن عنده لا قهوة ولا بسكويت ولا مربة ، ولا شىء ، كل حياته كانت جوعا فى جوع ، وكان الطعام شاغله الوحيد ، كان دائما يتحدث عن أشياء رائعة يأكلها ، وكان يتلمظ دائما وهو يتحدث ، وجذبت النسوة طرف الحديث فورا فى موضوعه المفضل .. ليتفكهن .. سألته « كيت » وهى تلقى بالكرة إلى الأخريات :

- « وأى أشياء جميلة أخرى سوف تأكلها فى الغذاء يا على أغا ؟ يعلم الله أنك ذواقة ممتاز ، وأخالك ستأكل اليوم شرائح من صدور الدجاج » ..

وابتسم على أغا فى ارتياح ، وبلل شفتيه بلسانه وغرس ابرته فى زناره ، ثم بدأ الرجل النظيف العجوز يصف في شراهة كيف أصبح الدجاج هزيلا هذه الأيام .. وبأى شىء يتبله ، وأى « صلصة » ابتكرها .. وكيف حمرها الفرن جيدا فأصبحت فى لون بنى رائق .. تكلم .. وتكلم .. وبلل شفتيه كثيرا .. ثم تنهد :

وكانت النسوة يكتمن ضحكاتهن : يلحفن فى الأسئلة ، ثم يدعنه يستمر فى كلامه :

- ألا تكف عن أكل اللحوم والصلصات يا على أغا ؟ سوف تفسد صحتك ، تناول أيضا بعض الخضراوات من حين لآخر ، أن كثرة اللحم تضرك ..

وقالت زوجة « ماستراباس » :

- سوف أحضر لك هذا المساء طبقا من الكرنب يا جارى ؟

وسوف ترى كيف سيفيد الهضم ، فهذا الخبز الأبيض الذى تأكله لابد

أن يكون ثقيلا على المعدة .

وأضافت « بنيلوب » بسرعة :

ـ كذلك فان كثرة الكافيار يا جاري تتعب الرجل ، سوف أعطيك أنا أيضا طبقا من الزيتون المشرح ، وسوف ترى أنه أفضل ، وأنه سوف يفتح شهيتك كثيرا .

هكذا كان الرجل العجوز المتعفف الفقير مع جيرة من اليونانيين ، يعيش على مثل هذا الاحسان الممزوج بالفكاهة ، وهكذا أمضى النسوة أمسيتهن ، وعندما انتهين من تدبير عشاء « على أغا » بدأن حديثا طويلا حول بشائر الربيع في الريف .. وحول الرجال وكلهم فاسقون .. و ـ هكذا قالت زوجة « ماستراباس » وهى تتنهد ـ ولا يجدون لذة إلا فى اللحم الحرام ! أما « كاتينيستا » فقد شكت من أن زوجها يأكل كثيرا ويعلو شخيره عند النوم فيمنعها هى عنه ! .

كان « مورزوفلوس » حارس الكنيسة واقفا هناك فى برج الجرس بكنيسة « القديس ميناس » منذ وقت ليس بالقصير ، وقد وضع يديه بالقرب من أذنيه ينصت إلى طنين « ميجالوكاسترو » وكأنه صادر عن خلية نحل ، وكان فى مقدوره أن يميز صيحات الرجال الوحشية وهم ينادون على بضائعهم ، وطرقات مطارق الحدادين ، وأصوات الشحاذين وهم يغنون بطريقة تبعث على الشفقة ويدقون أبواب الدور ، والكلاب وهى تنبح ، والخيول وهى تصهل ، وذكور الماعز الصغيرة قادمة إلى « ميجالوكاسترو » فى مساء السبت لتذبح .

وفجأة أحس بالخجل لانصاته إلى هذه الأصوات والضوضاء ، فقبض على حبل الأجراس الثلاثة المعلقة فوقه وهو يقول لنفسه مدمدما : « كفى ! .. لقد حان الوقت لكى أتكلم : خمسة وسبعون سنة وأنا أستمع إليك حسبى ذلك » ..

كان من النادر أن يفتح « مورزوفلوس » ليتكلم ، فماذا لديه ليقوله ؟ فكل مالم يكن يقدر على أن يقوله كان ينطق به عن طريق أجراسه الثلاثة فهى افواه ، ولها ألسنة .. وهى تصيح ، وسرا .. ودون أن يخبر أحدا أطلق عليها ثلاثة أسماء مسيحية : فالأوسط وهو أكبرها سماه « القديس ميناس » حامى وسيد « ميجالوكاسترو » وعلى اليمن كان « اليفتيريا »

(الحرية) وعلى اليسار كان « ثاناتوس » (الموت) وكان صوت « أى - ميناس » دائما يدق عميقا آمرا يتبعه على الفور « اليفتيريا » حاثا مستبشرا لعوبا كأنه الماء البارد ، ثم يجيء « ثاناتوس » متثاقلا شديد الوطأة ، وكانت هذه الأصوات الثلاثة تنبعث من جوف هذا الخادم الأشيب - لتصب فى جوف كريت وتعلن فوق أسطح الكريتيين ، وشوارع الأتراك وقصر الباشا عن الشوق إلى الانتقام وعن تحفز المظلومين المنسحقين .

كانت روح « موروزوفلوس » بأصواتها الثلاثة من الفضة والبرونز ، تجلجل فى انتصار وتبث الشجاعة فى « كاسترو » برغم عبوديتها للأتراك لتحتفل بالمهرجانات الأربعة فى السنة ، رأس السنة والفصح ، ويوم القديس ميناس (١١ نوفمبر) .. وفى المقدمة يوم القدس جورج .. يوم ميلاد ملك اليونان ..

وجلل « موروزوفلوس » خيالاته ، بأكاليل الغار ليحيى « القديس جورج » وقد وصل إلى « كريت » وهو يمتطى جوادا أبيض مطهما ، ويرتدى ثوبا وصدرية حريرية وحول وسطه حزام جلدى وغدارتان فضيتان ، وينتعل زوجا من الأحذية المنقطة أيضا « بشراريب » حمراء وخلفه على ظهر الجواد جلست فتاة صغيرة .. ابنة الملك .. الحرية ! ، وهى ابنة من اثينا ، وفى كل عام وفى الثالث والعشرين من ابريل على وجه التحديد ، يهبط القديس جورج أرض ميجالوكاسترو ويكون موروزوفلوس هو أول من يراه وهو معلق أجراسه الثلاثة كالراقص .. يراه قادما من الميناء فيحييه برقة يذهل العقل من أجراسه الثلاثة ، القديس ميناس .. والحرية .. والموت .

ولكن « موروزوفلوس » كان مكتئبا اليوم ، فاليوم هو أول ابريل ، وقد مضت خمسة وسبعون سنة - كيف مرت يا ترى ؟ - منذ أن ولد . وأحس لأول مرة أنه بدأ يكبر ويشيخ ، وخشى أن يدركه الموت دون أن يشهد يوم تحرير كريت ، ترى ايجيء أحد غيره ليدق هذه الأجراس فى مثل هذا اليوم المقدم ؟ .. أبدا .. إن روح موروزوفلوس لا تستطيع أن تتحمل ذلك .. أبدا .. حتى لو قبضنى الشيطان فسوف انطلق فى هذا اليوم من قبرى اللا متناهى العمق وسوف اتعلق بالأجراس وأبدأ الرنين .

ورطب جبهته المجعدة اليابسة الجلد ، عرق بارد ، ترى هل سينطلق فى

وقت مناسب ؟ .. وارتعشت يداه وبدأ يلهث بعنف وهو يدق أجراس المساء .

وهناك فى أسفل .. فى فناء الكابتن ميخاييليس حيث كانت النسوة يثرثرن عن الرجال والنساء ، وحيث كان على أغا يشرح للنسوة اليونانيات كلمات النبى محمد .. دق جرس المساء .. وعلى الفور جمعت النسوة معا أدوات الحياكة ! .. وتوقفن عن العمل .. ورسمن علامة الصليب .. ونهضن لتمضى كل واحدة منهن إلى بيتها .. وفى كل بيت فى مساء السبت كانت توقد النيران لتدفئة المياه للاستحمام ، وكانت الفتيات الغضات يدعكن عتبات البيوت وأقدامهن عارية ، ويفركن الأفنية المتسخة ويسقين أوانى الزهور .. وكانت النسوة العجائز يأخذن المباخر من قدس الايقونة ، ليبخرن الدور ويتذكرن الموت وهن يتمتمن بعيون نصف مغلقة .

وفى هذه اللحظة التى تدق فيها الأجراس ، يدخل الأب « مانوليس » لاهثا داخل بيته ، فمنذ الصباح الباكر وهو مشغول بتوزيع البركات فى البيوت فى بداية الشهر .. وهو يزور كل البيوت المحيطة .. وبعد أن يحتسى الزبيب يتخير ألذ ما فى الأطباق من طعام التقدمة اللذيذ ويدسه فى مماحكة داخل أعماق جيبه .. وهو الآن كالمستحم فى عرقه .. ولكن مزاجه كان رائقا ، صفق بيديه وصاح « أنت يا زوجتى » ! ..

وبرزت زوجة المطران الراضية السمينة بلا أسنان فى فمها وهى تجر قدميها اللتين تشبهان جذعى شجرتين ، وتنتعل شبشبا باليا ، وكانت جميلة فى شبابها ، وكانت منشدة عظيمة ، وكان فى ذقنها تؤلول صغير يشبه حبة الزيتون سحر عينى المطران فى ذلك الزمان ! .. أما الآن فقد نما هذا التؤلول وتضخم وبرز منه شعر كثيف ، ولكن عينيها كانتا لاتزالان تشعان بتلذذ وميل للحب ! ونظرت إلى ثوب زوجها المنتفخ وقالت :

ـ « مرحبا ياعجوز .. هل أخلع ملابسك ؟ » ..

وفى وسط الفناء رفع الأب يديه المشعرتين فوق رأسه وقال :

ـ « اخلعى .. وأحضرى طبقا .... » .

وأحضرت زوجة الأب طبقا ضخما وبدأت تفرغ الجيوب التى لاتكل والتى تمتد من خصره إلى ساقيه ! .

ومضت الزوجة تعمل .. وتعمل .. تضع فى الطبق اللحوم والسجق والفطائر الملفوفة والخيار واللوز والبلح وكعك البندق والبشملة والحمص المشوى والكعك بالجبن .

ـ « أتسمعين هذا الملعون مورزوفلوس ؟ . إنه يصم آذانى .. اسرعى يا امرأة ! » ..

وامتلأ الطبق وقالت الزوجة وهى ترفع الطبق إلى صدرها فى نهم :

ـ « لقد انتهيت من خلع ملابسك ياعجوز .. والآن أسرع من أجل خير روحك ! » ..

مد الأب ساقيه .. وقد خف حمله .. ثم انطلق ليؤدى خدمة المساء ..

فى هذا الوقت كانت « كريسانتى » شقيقه « بوليكسيجس » قد عادت إلى بيتها ، والقت شالها الهندى المفضل فوق كتفيها القويتين المنحنيتين ، ووضعت نذرين صغيرين ، زجاجة نبيذ صغيرة وزجاجة زيت صغيرة داخل سلة ، وبينما كان « مانوليس » يمر بالقرب منها وجيبه لايزال منتفخا ، خرجت « كريسانتى » من الباب واتجهت إلى الكنيسة فى خطوات ثقيلة .. كانت هى الأخرى لينة رطبة رشيقة فى شبابها ، ولكنها أصبحت الآن ثقيلة العينين ، وأصبحت شفتها العليا وذقنها وخداها تنبت شعرا طويلا كشعر الحمار ! .

ونظر الأب إلى السلة فى جشع وقال محييا : « باركك القديس ميناس يا آنسة كريسانتى » ..

ولكن الآنسة « كريسانتى » كانت تلهث تحت وطأة جسدها السمين وساقيها الثقيلتين المنتفختين ، وكانت مفاصلها الاثنتان والسبعون قد يبست ! وكان ذهنها يسرح بعيدا ، وقالت لنفسها فى صمت : « أى ـ ميناس » ها أنت ترى أننى أجىء مساء كل سبت وأحضر لك هداياك ، نبيذك وزيتك ، فهلا صنعت لى بدورك المعروف الذى سألتك أياه منذ سنين طويلة ؟ دعنى أمت قبل أخى ، إنه كريم وإذا ظل حيا بعدى فسوف يقيم لى جنازة لائقة ، بل انه سوف يجعل فى مقدمة جنازتى هذه المصابيح الكبيرة » ..

وكانت المصابيح الكبيرة قد أحضرت منذ زمن ليس بالبعيد ، من

القسطنطينية عن طريق المسئولين عن كنيسة « القديس ميناس » ، وكانت رائعة معلقة بسلاسل مفضضة مزينة بزجاج ذى ألوان عدة وحبال من الحرير الأسود ، ولم تكن تستخدم إلا فى جنازات الأثرياء فقط ، وعندما كانت « كريسانتى » صغيرة ابتهلت إلى « القديس ميناس » حتى يبعث لها بزوج طيب ، زوج وسيم ، ورجل بيت نشيط ، وأخيرا ، يمر بعد أمل وراء أمل ، ابتهلت إلى القديس ميناس أن يساعد شقيقها الكابتن « بوليكسيجيس » فى أشغاله ، فعندما كانت الأحوال هادئة ، وكان بوليكسيجيس عاطلا ، افتتح دكانا بالقرب من بوابة كانيا كان يجلب اليها النبيذ والزيت والعنب والليمون واللفت من الفلاحين ليعود فيبيعها مرة أخرى إلى تجار الجملة ، أو التجار الجشعين كماكان يدعوهم ، ويملأ صندوقه بالجنيهات التركية .. وجنيهات نابليون الذهبية .. « كن مع أخى فى تجارته أيها القديس ميناس حتى تزدهر فإذا أنت أديت لى هذه الخدمة فلن تنقطع عنك الشموع ، ولن ينقطع عنك النبيذ والزيتون ، وكل ما يحتاج إليه قديس . ولترزقنا دائما بمزيد من الطعام .. مزيد من أجود أصناف الطعام ، فهو كما تعلم شىء طيب مثل الزوج والأولاد ، يطمئن البشر ، إن على أغا على حق أيضا عندما يقول : « أنا لن أصير ضخما لا تمدد فى النهاية سمينا من أجل الديدان » .. مسكين أنت يا على أغا ! يا خادم الله ، تصوم لأنك لاتجد شيئا تأكله » ..

كانت قد كرست كل حياتها من أجل شقيقها ذاك القوى الشكيمة .. من أجله كانت تغسل وتخيط وتمسح وتطبخ .. وتحن : « ياله من رجل قوى .. وسيد حقيقى لا أحد يستطيع أن يصفه بأنه خامل الذكر لا يصلح لشىء ، ان النساء يصنعهن الرجال ، فليأخذ بحظه من المتعة ! » كانت تعيش معه وحدها ، فقد ولدا لنفس الأبوين فى اليوم نفسه واذا كانت هى تكبر سريعا فذلك لايهم على الاطلاق ـ مادام هو يظل صغيرا رشيقا ! : « نعم ، أنا سعيدة معه ـ مسكينة أنا ، أجلس من أجله طول الليل فأحس بمعنى لحياتى ، حتى ولو كنت أنام فى النهاية وحدى » .. وفى كل يوم كان يصل الى البيت فى غبش الفجر ، عائدا من جولاته ، وكانت الآنسة كريسانتى تحدق فيه فى سعادة وقد طار النوم من عينيها تنزع عنه حذاءه .. وتدفىء المياه ليغتسل .. وتعد له فنجانا من القهوة شديدة المرارة لينعشه ، وعندما تقترب منه كانت تتنشق فى اشتياق شاربه وشعره ، وتتنشق الرائحة التى

تركتها فيهما النساء ، هكذا كانت الآنسة « كريسانتى » تستمتع بالحب فى هذه الدنيا !

ولكنها فى النهاية ـ وقد كبرت فى السن وتضخمت وانتفخت ساقاها أكثر وأكثر ـ كانت تبتهل إلى « القديس ميناس » من أجل شيء واحد وهى تحضر إليه مساء كل سبت هداياها ليرضى عنها ، كانت تبتهل اليه أن يهيىء بفضل منه موتها قبل أن يموت أخوها ، حتى يستأجر فى جنازتها هذه المصابيح الكبيرة التى وصلت أخيرا ! ..

أما أخوها على الطرف الآخر من ميجالوكاسترو بالقرب من بوابة كانيا ، فقد سمع جرس المساء ، فرسم بلا تفكير علامة الصليب على صدريته الحريرية وهو لايزال يعزف على المندولين ، ثم قفز برشاقة ليغلق دكانه .

كان رجلا وسيما قوى البنية « متغندرا يرتدى دائما ملابس شاب فى العشرين ، سراويل من الصوف ، وصدرية حريرية مشغولة ، وزنارا حريريا عريضا وطماقا فى لون القشدة مما يرتديه الأتراك والكريتيون المتأنقون على السواء ..

وكان الطماق مشقوقا فى وسطه من أعلاه إلى قمته ومربوطا بأشرطة حمراء لتضفى قيمة كاملة إلى القدم الرشيقة .. وكان « بوليكسيجيس » يضع طربوشه الكبير على جانب بحيث يسقط زره فى لا مبالاة فوق كتفه الأيسر ، ثم يأخذ طريقه فى خطوات واسعة يقفز من حجر إلى حجر متجها نحو حلاقه الممتاز « بارسكيفاس » حيث كان يحلق شعره كل يوم سبت .

وكان وهو فى طريقه إلى الحلاق يتوقف باستمرار ليحيى أصدقاءه من أصحاب الدكاكين وليلقى باحدى نكاته هنا وهناك أو يشرب « الراكى » ثم يمضى فى طريقه بطربوشه المائل وخطواته الخفيفة .. ولقد كان يستمتع باحساسه بجسده الطافح بالقوة ، وبأن كل أعضائه الداخلية تعمل مثل الساعة ، وكان يستمتع أيضا بأن شيئا فى الدنيا لا يشغل باله ، لقد قرأ يوما فى كتيب شيئا أثر فى نفسه تأثيرا كبيرا ، « كاناريس » المحارب من أجل الحرية : سئل ذات يوم كيف أمكنه أن يحقق كل هذه الأعمال البطولية ؟ فأجاب ذلك الصياد .. وقائد السفن المرعبة بقوله : « يا أولادى ، لقد كنت دائما أقول لنفسى : كونستانتس لابد أنك ستموت يوما ما .. ومنذ ذلك اليوم والكابتن « بوليكيجيس » يميل طربوشه إلى جانب وسواء

أكان فى حرب أو فى حفل كان دائما يقول لنفسه : « بوليكسيجس » لابد أنك ستموت يوما ما ، ومن ثم فقد كان دائما أول من يخطو للأمام ، ولقد صاحب العمال ، فهم الذين بنوا له نصبا ذا حجرات من الحجارة والرخام ، فى ساحة الكنيسة ، قبوا تحت الأرض زوده بأرفف ووسائد ، ومائدة منخفضة فى الوسط ، ودولاب غائر فى الحائط ملىء بالزجاجات والأكواب ، وكان حين يدعوه مزاجه ، يملأ سلة بكل مالذ وطاب ويصطحب معه بعض أصدقائه ذوى الجسارة فيذهبون جميعا إلى هذا النصب ، وهناك يبدأون فى الشرب بشراهة ، ويتكلمون عن الحرب والمرأة والموت .

وهكذا .. كان الكابتن « بوليكسيجيس » يمضى فى طريقه ، وريشتان حمراوان تزوقان صدغيه ، متوقعا أن يقضى أمسية ممتعة ، لم تكن هناك ورقة شجر واحدة تتحرك ، ومن صحون الدور كانت تهب رائحة ورود ابريل ، وكانت الميازيب رطبة والأرض ذكية الرائحة ، ولكن ذلك كله لم يكن يكفى « بوليكسيجيس » ان هى الا لحظات حتى يعمل الستيور براسكيفاس فى ذقنه رغاوى الصابون ، ويحلق ويلمع شعره بزيت عطرى ، وبعدها يخرج « بوليكسيجس » من دكانه فلا يكاد يعرفه أحد فسوف ينقلب إلى صبى فى العشرين ! .. ثم بعدها يستدير ليدخل فى أزقة مظلمة ليمر على أصدقائه المرحين وعلى صديقاته العاهرات ..

تنهد الكابتن « بوليكسيجس » وهو يقول لنفسه : « آه .. لو كان هناك إله .. فليضع الآن معجزة .. فأنا أريدها الآن .. فأنا الآن فى عنفوانى .. والآن هو وقت المعجزة ! من سنوات قليلة مضت كنت مهرجا لا أفهم شيئا ، وكيف كان لى أن أدرك ماتعنيه النساء والخمر والحرب ؟ وبعد سنوات قليلة قادمة أكون قد انتهيت تقريبا .. فكيف أستطيع الاستمتاع بالدنيا وليس لى أسنان أو لدى شهية ؟ لسوف أمضى .. أتطلع إلى النساء وأتحدث مثل الثعلب عن عناقيد العنب .. أعتقد أن القديس جورج هو القديس الذى يفهمنى أكثر من غيره .. أنا أعجب بك دائما فوق الأيقونة ، أعجب بطريقة ركوبك صهوة جوادك ، وامرأة تجلس خلفك ، أيها القديس جورج يا قديسى يا بن عمى ، ساعدنى ولا تخف ...

قال ذلك .. ودفع طربوشه إلى جبهته واستدار فى الشارع الرئيسى .. كان الشارع العريض واحدا من شارعين رئيسيين فى « ميجالوكاسترو » . وكان يمتد من بوابة « كانيا » فى الغرب حتى بوابة المستشفى حيث

الميدان الفسيح : ميدان السراديب الثلاثة وحدائق الباشا ، وهناك ، تحت عدد من الأشجار المتربة ، كان يقوم « كشك » خشبي تعزف الموسيقى فيه كل يوم جمعة فرقة موسيقية عسكرية ، أما الشارع الرئيسي الثاني فقد كان يمتد من البوابة الجديدة حتى الميناء ، وحيث كان الشارعان يتقابلان كان هناك الميدان الرئيسي ، قلب المدينة ، وفي الشارع العريض كانت تقوم محال الاسكافية ومحال الزجاج والصيني ، والمخازن ، ومقاهي اليونانيين ومحال البقالة ، ومن داخل هذه المحال كانت تتناهى دائما أصوات المناقشات العالية ، أصحاب محال ، مساعدون وعمال تحت التمرين ، وفكاهات ، كلهم يتبادلون المزاح ويثرثرون ويطلقون الضحكات المرتفعة ، ويشيرون ساخرين إذا مر أفندينا أو شخص مقوس القدمين أو أحول العينين أو مخلوق يساعد على السخرية ، ولحظتها كان الاسكافية يدقون في آن واحد فوق قوالب الأحذية ، وكان المساعدون والعمال يطلقون الصفير .. ويقذفون قشر الليمون والطماطم المعفنة .. !

ومساء كل سبت ، كان الحب يشيع في الجو ! .. واليوم ، كما هو المألوف ، كان الشارع العريض يعج بالحركة . فقد كانت أجراس المساء قد أحالته إلى ضوضاء عارمة .. وكان الأسبوع قد انتهى والحمد لله ، ونزع صبية البقالين وعمال الدكاكين ميادعهم (مرايلهم) وانحنوا على الميازيب لكي يغسلوا محالهم .. كما اغتسلوا هم أنفسهم « وتهندموا » وبرموا شواربهم وأخرجوا المقاعد وجلسوا فوقها وهم يشربون القهوة كما يحبونها .. ويدخنون النرجيلة ، وفي هذه الأثناء كانت المرأة البربرية « راشيني » تمر بالشارع ، جبلا من السواد ، وجسدا لامعا بقلادة من خرزات زجاجية غليظة من هذا النوع الذي يوضع حول أعناق الجياد ، وبصدر متدل يكاد أن يصل إلى بطنها ، وضحكة ودودة وعينين خبيثتين ، وأسنان لامعة ، وفوق رأسها طبق من الكعك بالسمسم ، ثم هاهو ذا « تولوباناس » يقوم من اتجاه نافورة « ايدومينياس » وعلى كلتا يديه صينية احداهما ملأى بفطائر السبانخ والأخرى بالكعك الممزوج بالسمسم والقرفة الشارع لم يعد الشارع العريض ! .. فقد تحول الى منزل كبير مسكون امتلأ عن آخره بالظرفاء .

وتأمل الكابتن « بوليكسيجس » لحظة ، وأحس بالفخر وهو يرى هذا الشارع اليوناني الزاخر بالمحال والبضائع وليس فيه تركي واحد ، فالهواء

نقى ، والكريتيون يضحكون ويمزحون بينما دقات الجرس لاتزال دائبة ، هذه هى الجنة ، لا شىء ينقصها سوى العلم ، ولكن هذا آت .. ونحن الكريتيين سنحقق وجوده .. هكذا كان يقول لنفسه وهو يسير ويلقى بالتحية يمينا ويسارا قبل أن يدلف إلى دكان الحلاق .

كانت الظلال تمتد .. وكان المؤذن قد صعد إلى مئذنته يدعو المؤمنين إلى صلاة العصر ، ولكنه قبل أن يقرر اطلاق صوته فى السماء .. تمهل لحظة .. ولف القماشة الخضراء حول غطاء الرأس الأبيض الذى يضعه فوق رأسه .. وألقى ببصره حوله .. وغمغم .. قائلا :

« ياالله يا الله مهما حاول الانسان فلن يستطيع أبدا ان يملأ الأعين التى منحتها له حين ينظر إلى الدنيا » ..

وانحنى على شرفة المئذنة .. وتهلل لمرأى « ميجالوكاسترو » كيف تمتد تحته كثيرة الألوان عديدة الأصوات بمآذنها البيضاء وقباب قديسيها المعدنية ، وبعلم الرسول (صلى الله عليه وسلم) وبحدائق الباشا ، وغلبه الاحساس بالجمال الفائق .. فتنهد .

« السعادة تفيض على الجميع .. الجميع .. الجميع ! .. النساء هناك ، والشباب الوسيم مثل نورى وعندما أراه مندفعا كالعاصفة فوق جواده أعود إلى العشرين .. هناك أيضا شباب ناعم مثل رقائق الخبز الصغيرة يغنون فى المقاهى فى المساء ، فتحس بالدوار فلا تدرى إلى أين تذهب لكى تشكر الله .. إلى المسجد أم إلى المقهى ! وبحق الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) ان الرائحة نفسها لتفتننى ، وعندما أذهب إلى بوابة المستشفى واتنفس بعمق روث حميرنا الكريتية الصغيرة ، يصبح قلبى حديقة السماء أنى لا أعدل بهذه الرائحة الميجالوكاسترویة ! .. كل روائح الدنيا الزكية .. بالنسبة للآخرين قد تكون رائحة نتنة .. ولكنها تمتعنى ! » ..

قال ذلك .. ثم تنفس بعمق .. ووضع يديه فوق أذنيه .. وفجأة ، ومن أعماق جسده ، دوى صوته كالرعد عميقا .. صافيا ، حاملا كل الحب والدعاء فى أقوى صوره ، أى عذوبة فى هذا الصوت ، وأى قوى ! ، وكيف استطاع هذا الصوت أن يغطى على كل أجراس موروفلوس ! .. لقد ارتفع على الشمس بقمة أصدائه واقتحم السماء داعيا الله ثم هبط فجأة فوق ميجالوكاسترو مثل البرق الخاطف منتشيا باسم الله .

وفى اللحظة التى كان المؤذن يمتدح فيها « نورى » فى اعجاب شديد ، كان « نورى » عائدا من اقطاعيته وقد غمرته الكآبة .. كان قد ذهب إلى هناك ليخلع ملابسه ، ولكن الخجل كان لايزال عالقا بوجهه وعنقه ويثقل على صدره ويحرقه بلهيبه ، وكان جواده ينفث من فمه الزبد الأخضر فقد كان الأمر فى ذلك اليوم سيئا حتى بالنسبة لجواده ، كانت ركبه متهالكة .. وكان يتعثر فى ركضه ، وكان البحر قد توهجت صفحته وعلاه الزبد وارتفعت صفحته ، ولكن نسمة واحدة لم تكن تهب ، وعبر نهر « جوفيرو » .. وكانت بشائر أوراق الشجر قد بدأت تنبت فى فروع ا لكروم ، وكانت أشجار اللوز قد بدأت تزهر ، وأشجار التين تعبق الجو برائحتها .

ودمدم « نورى » :

- « لاشىء .. لا شىء يستطيع أن يهدئنى لعن الله البحر .. والشجر .. والشمس ! » ..

وأمام ناظره ارتسمت مرة أخرى صورة الكابتن ميخايليس تماما حيث مد اصبعيه الى الزجاجة ، وسمع صوت تكسر الزجاج .. ورأى « أمينة » ترتمى على عنق الكابتن ، فصاح فى ضراوة :

- « العار لى ! أجدر بالأرض أن تنشق فتبتلعنى . أى شىء أريده من الحياة مادمت لم أعد أفضل الرجال هنا ؟ .. اللعنة على ذلك كله ! » ..

ومضى فى طريقه .. ولاتزال ليلة الأمس بطولها فى مخيلته .. كم كانت ليلة مضطربة وكم أسرف فى الشراب حتى انتهى به الحال إلى أن تمدد على عتبة بيته وقد أعماه السكر .. فوق الروث ثم تذكر ، لقد غلبه النوم النوم الذى ملأه الصراع الوحشى .. والنباح ! من ذلك الذى جاءه فى نومه ونادى عليه ؟ عندما جاءه خادمه البربرى فى الصباح .. واغتسل .. تحول الحلم إلى دخان .. واختفى كل شىء .. ولكن سكينا ظلت مغروسة فى قلبه ..

واليوم ركض بجواده عبر مدافن الأتراك ، حيث تنتصب شواهد القبور بالكلمات المنقوشة عليها والعمائم الحجرية الملونة مثل اشخاص من الرخام انشقت عنها الأرض من تناضل من أجل الخلاص ومن أجل أن تبتعد عن هذه النصب وتعود إلى بيوتها فى ميجالوكاسترو .

وحاول أن يميز قبر أبيه هناك فى الركن بعيدا عن البحر وبين شجرتى السرو ، ولكن عندما عثر عليه بدأ جسده يختلج ، خيل إليه أن العمامة الحجرية قد تحركت الى الخلف تماما مثلما كان يفعل « هانى على » الأعمى بعمامته .. عندما يستبد به السخط ، ودارت به الدنيا .. وأحس بالدوار .. وتعثر جواده بقبر من القبور فجذب نورى بك ناصيته حتى لا يسقط فوق الأرض وتشبث بالعنان فتراجع الجواد المعتز بنفسه وهو يرتعش .. فقد كان ذلك أول يوم يتعثر فيه الجواد .. أول يوم منذ سنين طويلة . فأل سيىء ! ! ..

وصرخ البك .. وأراد أن يترجل ليركع على قدميه أمام قبر أبيه ، ولكنه كان يخاف الموتى ، تسلل الخوف إلى قلبه مثل برق خاطف ، وتذكر حلم الليلة الماضية ، كان أبوه يقف فوق وساد مشعث الشعر .. قذرا .. عارى القدمين ، وهو الذى لم يتنازل يوما ويلمس الأرض بقدميه ! .. ورفع يده الطويلة المسودة وقال فى صوت كالرعد : « كم من السنين ظللت أحوم حولك أيها القصر الملعون ؟ .. منذ سنة ١٨٦٦ فلتعدهم ! .. ثلاثة وعشرون عاما ! وكنت أظن ان ولدى .. ولدى الوحيد سوف يظل يفكر فى ليله ونهاره ويشحذ سكينه لينتقم لدمى ، إنما لأطوف ببيتك البائس ، فلا أسمع سوى الضحكات والماندولين والأغنيات ، وأنت هجرتنى .. هجرتنى لتتسكع جيئة وذهابا فى الشوارع والحقول ! لماذا إذن ننجب الأبناء ؟ لكى ينتقموا لدمائنا ! بينما أنت لا تخجل من أن تكون أخا فى الدم لشقيق قاتلى ! بل أنك لتسمح له برؤية زوجتك بدون حجاب ! اللعنة عليك أيها الكافر وعندما سمع نورى تلك اللعنة الثقيلة غلبه الغضب ، وود لو صاح : « ماذا أيها العجوز .. ألا زلت مصرا على متابعة اصدار الأوامر لى حتى وأنت فى قبرك ؟ » .. ولكن الكلمات توقفت فى حلقه ، فضغط بقدميه جبنى الجواد ، ولم تكن الشمس قد غربت بعد ، فعاد عن طريق بوابة كانيا واندفع داخل الحى اليونانى ..

وفى نفس اللحظة وصل الكابتن ميخايليس إلى بوابة المستشفى على الطرف الآخر من « ميجالوكاسترو » وكان قد حث جواده بأقصى ما يستطيع من جهد ، وكانت الشمس قد غربت لتوها وان كانت لاتزال تلقى بآخر أشعتها فوق بوابة القلعة ، ومن بعيد ، كان فى مقدوره أن يرى المجذومين ينهضون كعادتهم بعد أن ظلوا طوال النهار مستلقين على يمين

البوابة ويسارها فوق التراب والروث وقد بسطوا أطراف أذرعهم يتسولون ، وفى الغروب كان عملهم اليومى ينتهى ، فيقفون ويتحركون فى صف واحد وراء أحدهم الآخر متجهين صوب « ميسكينيا » قرية المجذومين ولم يكن أحدهم ينظر إلى الآخر ، بل كانوا يتدافعون متتابعين دون أن ينطق أحدهم بكلمة ، كانت خدودهم متآكلة وأنوفهم وآذانهم غير موجودة ، وكان كثيرون منهم عميا ، وكان بعضهم يبدون كمن يبتسمون لأنهم بلا شفاة ، وبالتالى فان أسنانهم كانت ظاهرة على الدوام ، كلهم كانوا يركضون كما لو أن يوم الدينونة قد بدأ وكما لو كانوا قد سمعوا طبول الملاك ، أو كما لو كانت الأرض قد انشقت عنهم فخرجوا بعد أن نسوا أجزاء من أجسادهم فى عجلتهم !

وأدار الكابتن ميخايليس وجهه بعيدا فقد كان يكره منظر المرضى ، وكان يقول دائما : « الأصحاء فقط هم الذين ينبغى أن يعيشوا ، أى فائدة لمثل هؤلاء ! » .. ثم لكز جواده وعبر بوابة القلعة فى اللحظة التى بدأ فيها الحارس العسكرى يدق طبلته فى نوبة الغروب .. والعلم التركى ينزل من فوق ساريته ..

الفصل الثالث

الليلة .. تلك الليلة .. هبطت ثقيلة فوق المدينة ، كان الجو ساكنا ولم يستطع الكابتن ميخايليس النوم ، فقد كانت الرطوبة شديدة.. وفتح سكان « ميجالوكاسترو » رجالا ونساء نوافذهم وخرجوا إلى أفنية دورهم وفكوا ازرار أردية نومهم طلبا لنسمات الهواء .. وأحست بعض العجائز من النسوة كأن كارثة توشك أن تحل ، فجلسن على عتبات بيوتهن ، ولكنهن لم يجرؤن على فتح أفواههن حتى لا يفضحن أفكارهن ! كن خائفات من أن قدر « ميجالوكاسترو » الشرير قد يسمعهن ويحقق ماكن يتصورن أنه لم يتقرر بعد نهائيا .. وهكذا كن يهمسن مع إحداهن الأخرى ويحاولن أن يظل الحديث المتناثر قائما ـ وإن كان حديثهن برغم ذلك يعود إلى القلق الخفى الذى لا يمكن التصريح به : « هل تذكرن المرة الأخيرة ؟ لم تكن هناك ورقة شجر واحدة تتحـرك » « هدوءا ! » « ألا تسمعن الطنين تحت أقدامكن ؟ » ، « هدوءا ! » .

وعدن فحبسن أنفسهن داخل أرواحهن وترقبن مطلع النهار ثم برزت الشمس من خلف جبال « لاسيثى » معتمة ساخطة تحجبها مزق من السحائب النحاسية اللون ، وتوهجت المآذن ، وتوردت صفحة البحر ، ودق « مورزوفلوس » الأجراس الثلاثة ، واستيقظ الحى اليونانى من سباته ، وفتحت الأبواب وخرج سكان البيوت ، اغتسلوا جميعا وارتدوا سترات وقمصان أيام الآحاد ذات الياقات : الزوج والزوجة وخلفهما الحماة وأمامهما الأولاد ، الصبية يمسكون بمناديل بيضاء مطوية ، والفتيات يضعن مشابك فى أوشحة أعناقهن .

كانوا جميعا فى طريقهم لكى يقدموا مظاهر التشريف للقديس الراكب « أى ميناس » وليستمعوا إلى خطاب المطران ويتزودوا بالغذاء بين يديه ،

كان اليوم يوم الأحد ، ولم تكن هناك مشاغل ، فالمحال مغلقة ، والشيطان - التاجر الأكبر - نائم طيلة يوم كامل ، ومن ثم فالناس سعداء بأن يتلقوا كلمة الرب - فذلك لم يكن ليكلفهم شيئا ، ولم يكن أحدهم ليفقد شيئا إذا هو فعل ذلك ، وغدا سيكون هناك - كالمعتاد - وزن وقياس ومساومة ، وسيحاول كل واحد منهم أن يلتهم الآخر ، ستة أيام للشيطان .. ويوم واحد للرب ! : اشعل المصابيح للاثنين ، وسوف يكون كل شيء بعدها على مايرام !

كانت الكنيسة تتلألأ مثل سماء زاهرة بالنجوم ، وتفوح منها رائحة القناديل والبخور ويشيع فيها الدفء ويعلو طنين كأنه صادر عن خلية نحل .. طنين ملائكة وقديسين وبشر . ولم يكن هناك مكان لكل المسيحيين المؤمنين - فقد وقف كثيرون منهم فى الممرات ، ووقف المطران البدين بالقرب من عرشه بجسده العملاق ولحيته البيضاء الثلجية وصليبه الذهبى وتاج الأسقفية الملوكى ، وكأنه وحش مفزع هبط من السماء إلى الأرض ليطرح الناس أرضا ويدخل فى قلوبهم الذعر .

وعلى باب التماثيل وقف الأب « مانوليس » بملامحه الهادئة وملابسه المذهبة ، يرتل الانجيل فى ذات اللحظة التى فتح فيها « كاجابيس » باب بيته ليلحق بالكنيسة هو وزوجته ، وكان زفافهما قد تم يوم الأحد الماضى ومن ثم فقد كان عليهما - حسب التقاليد - أن يؤما الكنيسة لمدة ثمانية أيام وهما بملابس الزفاف ليبتهلا ، إلى القديس « ميناس » حامى البلاد ، وليقدما له كعكا كبير الحجم ممزوجا بالقرفة والمصطكى والسكر .

كان بيتهما الصغير قريبا من الميناء ، تماما حيث يبدأ الحى اليهودى . وداخل ازقة ضيقة متعرجة ابتليت بالرياح الحارة وهواء البحر المضنى .. تعلقت « جاروفاليا » بذراع زوجها ، وسار الاثنان فى بطء واعتزاز ويستقبلان معا فى ود عالم الزواج الحديث . كم تشع هذه الشوارع المثقلة بالريحان ، وما أعذب ما تشيعه من رائحة ! وما أحلى ما تبتسم هذه الصخور ! وما أروع ما اقتربت الدنيا - برغم كل شيء - من « جو » الزواج ! نعم ، فهذه بعض شجيرات الشوك فى سور إحدى الحدائق .. وقد ازهرت ! .... أكانت هذه هى « ميجالوكاسترو » التى يستعبدها الأتراك ؟ أكانت هذه هى أزقة الحى الفقير وروائح نفاياتها ؟ .. أكان هذا هو البحر الكريتى المهيأ دائما لأن يعامل الرجال فى وحشية وبعيدا تماما عن كل

معاني الرقة ؟ ، رفعت « جاروفاليا » خلسة .. عينيها الناعستين ، وحدقت في زوجها : « يا إلهي .. أي معنى لكل هذه الأحاديث التي يلقيها القساوسة ؟ .. الجنة هنا يارجلي الطيب ، يا إلهي ، أنا لا أبغي جنة أخرى سواه ! » ..

وكانا قد وصلا إلى ميدان السوق قبل أن يقتحما الشارع المؤدي إلى الكنيسة .. واستدار « كاجابيس » ونظر إلى زوجته وقلبه مفعم بالسعادة ، وخيل إليه فجأة كأن العالم لم يعد موجودا وأنه لم يبق في كل زحام هذه الحياة سوى هذه المخلوقة التي تسير إلى جواره دافئة معطرة محبوكا حول جسدها هذا المشلح وهذه التنورة المليئان بالأزرار والأشرطة الملونة ، وفمها الطيب الرائحة في عذوبة ودفء .. لقد كان القلق يستبد به منذ الليلة قبل الماضية ، عندما قيل له إن عليه أن يتوجه إلى بيت الكابتن ميخايليس بعد ثمانية أيام فقط مع زوجته ، وأحس بالغضب ، وتوقف عن السير عند السوق ، ماذا ترى يهمه من « أي ميناس » قديس « ميجالوكاسترو » بعاداته المحلية وهو الرجل الغليظ القادم من « سفاكيا » ؟ ولماذا يضيع وقته داخل الكنيسة بدلا من أن يعود إلى بيته بأسرع ما يستطيع ؟ إنهما حديثا الزواج ، وسيغفر الله لهما .. لم يعد أمامه غير وقت قصير ، فلابد أن « الكابتن ميخايليس » ـ هذا الوحش الضاري ـ في انتظاره الآن في قبو بيته ، وسأل زوجته :

ـ « مارأيك في أن نعود يازوجتي إلى بيتنا الصغير ؟ » .

وحبس انفاسه يترقب .. واحمر وجه المرأة وارتعش جفناها ، ثم أجابته بعينين مسبلتين :

ـ « الأمر أمرك يا صغيري يا نيس » ..

ثم استدار في لهفة وكأن أحدا يقتفي أثرهما وعبرا السوق في سرعة ، وسارا مخلفين وراءهما الشجرة العارية وقصر الباشا ثم دخلا زقاقا ضيقا حتى وصلا إلى الميناء ، وفتح « كاجابيس » الباب بركلة من قدمه ، ودخل الاثنان البيت ، وأغلقا الباب بالمزلاج .. وقذفا نفسيهما فوق الفراش .

في تلك اللحظات ، كان « الكابتن ميخايليس » يجلس في القبو في غبش الفجر وإلى يمينه ثلاث « براميل » ملأى بالخمور تستقر فوق عارضتين

متينتين ، وإلى يساره إناءان أحدهما ملىء بالزيت والثانى بالدقيق ، وفوق رأسه تدلت صفوف من التين والرمان والسفرجل والشمام الشتوى الأصفر المعروف باللون الأخضر .. وعلى الحائط علقت حزم من الأوانى المصنوعة من أعشاب المريمية والحبق .. وكانت رائحة النبيذ والسفرجل تعبق جو القبو .. ولكن ما أسرع ما ستغطى عليها رائحة الدجاج الساخن وسمك « أم الحبر » والمقانق (السجق) .

جلس الكابتن ميخايليس فوق مقعد مرتفع ، وقد أسند إلى الحائط رأسه الثقيل وقد عصبه فى إحكام بقماش داكن ، وحدق بعينيه فى الباب المنخفض القائم فى مواجهته دون أن ينظر إلى شىء بعينه ، ولم يكن كذلك يفكر فى شىء ، جلس دون حراك ، وإن كان من حين لآخر يضغط بمخالب يده حافة المائدة أمامه فيحنى خشبها .

كان ذهنه ساكنا ، ثقيلا ، ولكن قلبه كان يدق فى عنف ، لقد كانت الحياة كريمة معه ، ولم يكن يفتقر فيها إلى شىء كان رجلا قويا صحيح البدن ، له زوجة طيبة وأسرة .. وكانت الدنيا تكن له كل التقدير وكان ابنه مثله تماما ـ يخشى الموت ـ فإذا مات هو فسوف يمضى ابنه على دربه وكان لابنه ـ مثله تماما ـ علامة فوق عنقه ، وحاجبان غليظان كثيفان ، وعينان صغيرتان شديدتا السواد ، فما بال قلبه إذن ؟ .. وأى شيطان هذا الذى يجعله يضطرب هكذا ؟ لم يكن يحس بالسرور ، ولم يكن يقدر حتى على الابتسام أو على أن تبدر عنه فكاهة أو كلمة ودودة تريحه حين تجرى على شفتيه ، فهو متحفظ دائما .. قليل الكلام .. عنيف .. زاره يوما وفى قريته الرجل طيب القلب « مانولاكيس » الخياط ، وقال شيئا وضحك ، ولحظتها قطب « الكابتن ميخايليس » جبينه وعبس ، فكأنما شل « مانولاكيس » المسكين الذى مالبث أن نهض وغادر البيت ، وبعدها استدار « الكابتن ميخايليس » نحو ابنه وقال فى أسلوب مهين : « انه لا يخجل ! .. إنه يضحك ! » ..

ولقد كان يقول لنفسه أحيانا ، « عندما تتحرر كريت ، فسوف يتحرر قلبى أيضا عندما تتحرر كريت فسوف أضحك » ومنذ وقت ليس بالطويل كان يراوده حلم كأنه الحقيقة بعينها : سمع الأجراس تدق لأن كريت نالت حريتها ، ورأى الشوارع وقد غطيت بالغار والريحان ، وسفينة حربية بيضاء ألقت مراسيها فى الميناء ، ومن السفينة خرج ابن الملك قادما من

أثينا ، وقفز إلى المرسى ثم انحنى يقبل تربة كريت ، وعلى الرصيف كان هو نفسه ـ الكابتن ميخايليس ـ يقف ممسكا بمفاتيح « ميجالوكاسترو » فوق طبق فضى ليسلمها لابن الملك ، كريت تحررت ، تحررت ـ ولكن قلبه لم يتحرر بعد .

ودمدم فى غضب : « ماذا دهانى بحق الشيطان ! بل ماذا ينقصنى بحق الشيطان ؟ ! .. سوف أسقط على أم راسى ولاشك ! » ..

وغلى الدم فى عروقه وخيل اليه أن مخه قد تضخم ، واحمرت عيناه ، لقد نهضت كريت ثم سقطت فى أعماقه لم تعد بعد جزيرة .. وإنما أصبحت وحشا مفترسا يحدق فى البحر ـ أصبحت « جورجون » شقيقة الاسكندر الأكبر ، وكانت تنتحب وتضرب الماء بذيلها الذى مثل ذيل السمكة .. وتثير مياه البحر ، وعندما تناهى صوت نحيبها إلى سمع « الكابتن ميخايليس » سرت رعشة فى رأسه فما لبثت أن بدلت من صورتها فتحولت إلى شجرة عارية ضاربة جذورها فى أعماقه تغتذى من أعضائه الحيوية ، ومن أغصان هذه الشجرة تدلى الأسلاف بشعرهم الأشيب وأقدامهم العارية وقد اكتست وجوههم بالزرقة وأخذوا يعضون على السنتهم .. بينما ريح عاتية تقول وتئن .. وعندما بسط الكابتن ميخايليس ذراعيه ليصلى من أجل هؤلاء الأسلاف .. اختفى كل شىء وعادت مخيلته فارغة .. ولم يعد باقيا سوى قنديل بزجاجه الأحمر الأخضر ، وتحته « نورى بك » وشراب الليمون وطائر القطاة المطبوخ ثم .. ضحكات مكتومة .. وامرأتان شركسيتان .

وقفز الكابتن ميخايليس واقفا ، وضرب الحائط بقبضته فى عنف حتى لقد ارتج البيت ، ورفع بصره إلى الباب المنخفض ، وفجأة ، بدأ يغضب ويلعن لأن رفاقه البشوشين قد تأخروا .

وفى اللحظة التى كان الكابتن ميخايليس يضرب فيها الحائط بقبضته ، كان هؤلاء الرفاق ينطلقون من أركان « ميجالوكاسترو » الأربعة . كان أول من استيقظ منهم فى الصباح الباكر .. « ڤيندوسوس » صاحب الحانة الذى رسم علامة الصليب ووقف أمام الأيقونة ذات المصباح الموقد أبدا وهو يصلى لحاميته عذراء حقول الكروم المقدسة ، حتى تمنحه القوة على الاحتمال ، كان فى طريقه إلى المبارزة الكبرى ، المبارزة التى ستستمر ثمانية أيام بلياليها .. من الأحد إلى الأحد ، وإذا لم تساعده العذراء

فسوف تكون أياما وليالى ضائعة .. ومنذ سنوات قليلة مضت عهد إلى الراهب « نيكوديموس » بأن يصنع له عذراء .. لا كما يصورها الرسامون كأم .. ولكن كما رآها هونفسه فى الحلم : امرأة مثل النساء اللائى يجمعن الكروم فى شهر أغسطس مجنونة بالرجال ، غليظة الشفتين تعصب رأسها بعصابة كريتية ، وتحمل فوق ذراعيها - بدلا من الطفل - عناقيد عنب ، ولقد رفض الراهب فى البداية ، وقال إن أمرا كهذا لم تنص عليه الكتب المقدسة وان ذلك سيكون خطيئة ولاشك ، فلابد لها أن تحمل المسيح فوق ذراعيها ، وليس حزمة من عناقيد العنب ، ولكن « ڤيندوسوس » نفحه بزجاجة من الزبيب ، وبضع أوقيات من سمك « البكالاه » فهدأت نفس الراهب ، ورسم علامة الصليب ، وتناول الفرشاة وسم الأم المقدسة أم الكروم المقدسة .

وقف « ڤيندوسوس » أمام صورتها وقد ارتدى جواربه ولما يضع قدميه بعد فى الحذاء .. وقال :

- « سيدتى .. سيدة حقول الكروم التى تحرس الحانات وأصحاب الحانات ، تحياتى اليك ، أنا ماض الآن ، ماض إلى قبو الكابتن ميخايليس ، وأنت تعلمين جيدا ماذا يعنيه ذلك ، أنا محتاج إلى مساعدتك ! أنت تعرفين أننى قدمت النقود والبكالاه والزبيب من أجل أن صورتك ، ساعدينى ! ساعدينى على أن أحتمل وإلا أسكر هذه المرة فينقلب حالى وأحيل الجدران إلى فوضى شاملة . وأسألك أيضا يا سيدتى أن تطامينى من حدة هذا الوحش الذى لا ينضبط ، الكابتن ميخايليس ، حتى يسمح لنا بالخروج بسرعة ، إن ثمانية أيام بلياليها شىء كثير ، أيتها العذراء المقدسة .. شىء كثير ! » ..

واغتسل وأرتدى ملابسه وتناول ڤيثارته من أمام الايقونة وخرج إلى صحن البيت وودع زوجته وابنتيه وطلب منهم أن يذهبوا إليه كل يومين ليطمئنوا على ما يحدث هناك ، ثم ترك معهم نقودا ليشتروا طعاما يكفيهم الأسبوع كاملا ، وأخبر ابنته الكبرى التى كانت تحسن الكتابة لأنها كانت مدرسة ، بأن تكتب له على ورقة كل ما ينبغى أن يقوله ، ثم وضع الورقة فى جيبه وأجال بصره حوله فى أرجاء البيت وكأنما يودعه .. ورسم علامة الصليب .. واجتاز عتبة البيت .

اتجه أولا إلى الحانة وأخرج من جيبه الورقة وثبتها فوق الباب حتى يراها الناس : « صاحب الحانة مضطر إلى أن يتغيب ثمانية أيام فى بعض شئونه الخاصة ، وبعدها أحس بشىء من الراحة ، فانطلق مسرعا إلى بيت الكابتن ميخايليس سوف يصل متأخرا ، ولن يبدى التنين ملاحظة حول تأخيره ، ولكنه فقط سيقطب جبينه .. وذلك وحده يكفى !

وعندما مر بحذاء بيت شقيقه الأكبر تاجر الجملة ، أغذ السير : « لا ينبغى أن يقع بصره على فسوف يشك فى أننى ذاهب إلى هناك ، وسوف أتعرض لمزيد من التعنيف ، إلى الجحيم هذا الحمار العجوز ! » ومسح بيه أنفه الذى يشبه الخيارة والذى ينمو كل شهر قطعة حتى لقد أدرك الآن فمه ! وعاد يغمغم « آه ! .. فليذهب إلى الجحيم ! ، إنه يطيب له دائما أن يمنحنى الدروس ، أليس كذلك ! ولكنى أول أمس أعطيته كل ماقدرت عليه ! أنا أعرف ماذا ينتابنى ـ واللعنة على ذلك كله ـ وأنا أدور وأقوم وانحدر بين الجدران عندما جاء رب العائلة السمين هذا ، ورفع عقيرته خارج بيته هذا الأنيق الملعون وقال : أيها المخروب مانوليس ! ألم تكتف بعد ؟ ألا تكف عن الشرب .. الشرب ؟ .. ووقفت أنا لحظتها فى مواجهته قريبا من الحائط .. وقفت مثل الشمعة المنتصبة وفتحت فمى الصغير وقلت له : وأنت يا تاجر الجملة ألم تكتف بعد ؟ .. ألا تكف عن عدم الشرب .. وعدم الشرب ؟ .. ولحظتها توقف رجل أو رجلان كانا يسيران .. توقفا وضحكا فى صوت مرتفع ، أما هذا الحمار العجوز ـ فقد اختفى .. اختفى ! » ..

ومضى فيندوسوس فى طريقه يحدث نفسه : كانت مشيئة الله ، لقد ولدت يوم الجمعة الطيبة وكان أبى قسيسا ، وأريد لى أن أكون قسيسا مثله ولو ليوم واحد (والشيطان له أرجل كثيرة) ولكن كيف كان لى أن أظل جامدا فى المدرسة ، وكيف كان لى أن أسلم عنقى للعبودية ؟ فمنذ كنت طفلا صغيرا وأنا أعزف على القيثارة فتسمعنى حتى الأحجار .. وترقص .. وحيثما كانت تجرى احتفالات أو مجالس أنس ، كنت أوجد أنا .. وكنت أبقى ، ولم يكن أحد يستطيع أن يبعدنى عنها ، ومن أجل ذلك أسمونى (فيندوسوس الحاذق) وشيئا فشيئا تعودت على أن أشرب بحرية ولم أعد أستطيع أن أعيش بدون رائحة الخمر ، ومن ثم فقد أنشأت الحانة وطلبت أن ترسم لى العذراء المقدسة التى تناسبنى ، والتى لا مثيل لها عند مخلوق فى العالم المسيحى كله ! وعندما أناديها تلبى ، ولا تشغل نفسها بأن تجرى هنا وهناك فى أمور شاذة مختلفة ، فهى لاتفارقنى وتجيب أملى فى

الساعة التى أحتاج فيها إليها ، إنها ملكى أنا فقط ، ولن أقرضها لأى مخلوق سخيف أحمق . فى العام الماضى طلبها منى هذا المجدف كابتن بوليكسيجيس حتى يأمر برسم واحدة مماثلة له ، ولكن كيف كان يمكن أن أعطيها له ؟ سألته يوماً : أيمكن لك أنت أن تعطينى فرسك يا كابتن بوليكسيجيس ؟ كلا - فأنا أيضا لا يمكن أن أعطيك عذرائى » ..

وفى هذه اللحظة من حديثه لنفسه اصطدم عند نافورة « ايدومينياس » بكل من « بيترودولوس » و« فوروجاتوس » الذين كانا فى طريقهما لاهثين إلى وكر التنين ، وكانا فى عجلة من أمرهما حتى لقد كادت قيثارة « فيندوسوس » أن تتحطم لحظة الصدام ، بينما سقطت قبعة « بيترودولوس » إلى الأرض .

وصاح « فوروجاتوس » :

- « فيندوسوس .. لماذا تهرع هكذا نحو فك الأسد ؟ قف ! دعنا نلف سيجارة حتى تمنحنا الشجاعة » ..

ثم جلس الثلاثة فوق الدرج الرخامى للنافورة وأخرجوا صناديق الطباق جلس « فوروجاتوس » فى الوسط بقامته المديدة كالمتوج ، وكان قد ازداد صلابة مع الكبر ، وكانت ساقاه طويلتين كساقى عملاق حين تبدأن فى الرقص تطرب وتنتشى تربة كريت ، ولو لم تكن له هاتان الساقان ، لما حياه إنسان ، فأنت لا تحيى إنسانا يضرب زوجته ، وكان له حاجبان كثيفان وشارب منتفش نافذ مباشرة إلى الأمام يبدو معهما حقا كأنه قطة متوحشة (فوروجاتوس) . وانحنى فى ود نحو زميله « بيترودولوس » وغطاه بعباءته التى كانت قد سقطت عند الاصطدام ، كما نطف قبعته الصغيرة الناشفة ، المتآكلة وثبتها فى قوة فوق شعره الرمادى الطويل .

كان « بيترودولوس » رجلا عجوزا بريئا ضئيل الجسم ، ذا فم رفيع وذقن ناتئة ، حديثة الحلاقة وعارضين حانيين قصيرين تنبعث منهما رائحة مرهم عطرى . وكان أول رجل فى « ميجالوكاسترو » وربما فى كريت كلها - لا يخشى الله أو الناس .. ويحلق شاربه تماما .. وفى أول الأمر ظن الكريتيون أن بشرته حليقة بطبعها فلم يغضبوا ، ولكن عندما تأكدوا من أنه يحلق شاربه انتابهم غضب شديد ، مستحيل ! فهو يدمر نظام الأشياء ! وهو يخلط النساء بالرجال ، ولقد قذفه البعض بالحجارة وبقشر الليمون ،

بينما اكتفى آخرون بأن يمتنعوا عن الترحيب به ، ولقد صاح فيه « باربايانيس » يوما ما وهو يبرم شاربه : « هنا فى كريت يا بيترودولوس ، هناك صنفان من الآدميين وليس ثلاثة ، الرجال والنساء ، وليس عندنا رجال نساء ! » .

وفى يوم من ايام الأحاد ، كان بيترودولوس يمر بحذاء الأقباء الثلاثة ، انيقا خفيف الخطوة باسم الوجه ممسكا بقيثارته استوقفه فوروجاتوس ، وقد غيبه السكر عن وعيه ، وأمسك به وحاول أن يخلع عنه سرواله أمام الجميع حتى يرى كما قال ، ما إذا كان بداخله « بترودولوس » أو « بيترودولينا » ! ولكن بعض الرجال ممن لم يكونوا سكارى وقتها .. تدخلوا فى الأمر بينما انفجر فوروجاتوس باكيا واحتضن بترودولوس وضمه إلى صدره وربت عليه وقبله ولحظتها صرخ بترودولوس أنت تحطم أضلعى ! .. حل عنى ! ثم ركله بعنف ومنذ ذلك الحين والاثنان صديقان لا يفترقان .

ولقد كان قدرا أن لا يكون كريتيا ، فهو من « زانتى » وهو « كونت » كما كان يقول ، ولكنه لم يعد يذكر كيف قدم إلى « ميجالوكاسترو » وسط هذه الوحوش المفترسة ليصبح معلما فى العزف على القيثارة ، كذلك فإن « بيترودولوس » لم يكن اسمه ، ان اسمه كان « الكونت مانجياڤينو » ، والآن فقط ـ لأنه يظل يرتعش طوال الشتاء والربيع ويدثر نفسه فى عباءته السميكة الخضراء ، ولأنه كان متغض الجلد مقوس الساقين ، ولأنه كان يقول أشياء غريبة مضحكة ، ولأنه كانت تسهل إضافته ـ أطلق عليه الكريتيون اسم « بيترودولوس » ... ولصق الاسم به ! ..

ولكن عدد تلاميذه قل بمرور السنين ، فما الذى يستفيده أبناء « ميجالوكاسترو » من وراء الجيتار وهم ذوو أصوات حميرية لا تلائمها مثل أغنيات الحب .. أغنيات « زانتى » .. وبدأ « بيترودولوس » المسكين يتضور جوعا ، فكان يغشى المقاهى ويتحدث فى جاذبية مؤثرة عن حياته وعن ايام كان فيها لامعا وعن سيدات مرموقات وعن حفلات « للسيرانادا » والمندولين فى « زانتى » وكان يضع جيتاره فوق ركبتيه ويعزف بعض المقطوعات القديمة حتى يحس صاحب المقهى بالخجل ويقدم له قدحا من القهوة وبعض البسكويت أو « سد الحنك » أو قشور البرتقال المسكرة ، بعدها يخفف « الكونت » من جوعه ، بل انه كان يحصل فى بعض الأحيان على إذن فى أن يلف « سد الحنك » فى قطعة نظيفة من الورق ويأخذها

معه ، فقد كان مفتونا بصاحبة البيت ذات الشعر الابيض ، العجوز كالتلال ، ويخجل من أن يستمتع وحده بالحلوى ، فهو يعرف جيدا كم تحب هذه المسكينة « سد الحنك » الذى لا يحتاج أكله إلى اسنان !

ويوما ما فكر الكابتن ميخايليس : « سوف يصلح تماما لقبوى » ! فقد سمعه يروى بعض حكاياته الحقيقية والخرافية فى مقهى « تريالونيس » .. وكان يتحدث فى ذلك اليوم عن « زانتى » ـ زهرة الشرق ـ التى لم تطأها أبدا اقدام تركية ، وحيث ولد شاعر اغنية الربيع اليونانى ، وناداه « الكابتن ميخايليس » وقال : « استمع إلى ياسيد بيترودولوس ، أنت شخص ممتاز ، وانه لمن سوء طالع ميجالوكاسترو الا تستطيع توفير الحياة لك ، لهذا فسوف امنحك مرتبا شهريا حتى لاتعانى ، ولكنك ستأتى معى إلى قبوى كلما أرسلت فى طلبك » وأجاب الكونت وهو يقذف بقبعته إلى الأرض : « بكل سرور يا سيدى عبدك يا كابتن ميخايليس الشهير ! » .

ولف « فوروجاتوس » الرجل العجوز الصغير فى عباءته كالطفل ، فقهقه هذا شاكرا كما لو كان أحد قد دغدغه .

وقال « فيندوسوس » :

ـ « تجلد يا بيترودولوس فنحن مقبلون على عاصفة هوجاء يا صديقى المسكين ، ففى هذا القبو سوف تولد الحرية اليونانية » .

وأجابه « بيترودولوس » فى تيه وهو يخرج من عباءته ربطة كان يحملها تحت ذراعه : « لا تقلق يا سينيور فيندوسوس ، فقد اخذت احتياطاتى لكل الاحتمالات » .

وتحسس « فيندوسوس » الربطة بأصابعه وقال : « ماذا بداخل هذه الربطة يا سينيو بيترودولوس ؟ » .

وأجابه الرجل العجوز النظيف وقد أحمر وجهه : « غيار .. قميص ! » .. وصاح « فوروجاتوس » وهو يقذف بسيجارته بعيدا : « حسبكم ! .. لقد دخنا بما فيه الكفاية ، الآن هيا يا أولاد ، هيا امضوا إلى المشكلة العويصة ! .. إلى الأمام .. والله معنا ! » ..

واشتبكت أذرع الثلاثة ، واتجهوا إلى باب الكابتن ميخايليس ، و« بيترودولوس » فى الوسط .

رجل متوسط العمر ، ذو لحية شقراء متماسكة ، وعينين براقتين وحشيتين مستديرتين كالبيض ، ورأس تحتويه لفائف عمامة تركية عريضة بيضاء تركت أذناه فيها علامتين حيث لاتكاد تغادر رأسه حتى يكون مهيأ على الدوام للدخول بها إلى الجنة ، ذلكم هو أفندينا ، كان منذ سنوات مضت قد زار « مكة » ، ومنذ تلك الأيام المقدسة امتلأ عقله بحرها وعطشها وياللهب والفزع ، وعاد إلى « ميجالوكاسترو » ليصبح درويشا فى إحدى التكايا التى كان أحد أسلافه يوما ما وليا من أوليائها ، وظل ردحا من الزمن يستقبل عددا من الأطفال الأتراك يعلمهم القراءة والكتابة ، يضربهم أحيانا .. وأحيانا يضربونه ، حتى كان يوم شج فيه رأسه ابن اخت « نورى بك » .. إبراهيم .. وكانت نهاية المدرسة .

وكانت « التكية » قريبة من كنيسة القديس ميناس ، ساحة منبسطة مستطيلة مزروعة بالكرنب ، فى أقصى نهايتها ثلاثة أقباء صغيرة خربة ، وفى وسطها يقوم قبر الولى ، قبر خشبى ذو شاهد قائم من الرخام تعلوه عمامة خضراء محت الأمطار والشمس الكلمات المذهبة المنقوشة فوقه ، وحول القبر .. وقريبا منه مقاعد صغيرة وكبيرة يجلس فوقها المريدون كل يوم جمعة يحدقون فى الولى ويدخنون « النرجيلة » ويحتسون القهوة التى تعدها لهم قارئة التعاويذ « حميدة مولا » والدة أفندينا .. اما العمامة فقد كانت فارغة من الداخل ، وكان المريدون يضعون العملات النقدية الصغيرة بداخلها لكى يضمنوا مساعدة الولى لهم فى شئون دنياهم .. وفى أخرتهم .. ولم يكونوا يهتمون بهذه « التشكيلة » من الأشياء التى يتوسل من اجلها المسيحيون إلى قديسيهم ، فبحسبهم فى الدنيا والآخرة ، طعام جيد .. وامرأة جيدة .. وشجاعة جيدة ! ومن ثم كانوا يقذفون داخل العمامة بهداياهم طلبا للشفاعة .

وفى كل صباح ، وعندما تشرق الشمس ، كان أفندينا يجلس فى الساحة وقد شبك ساقيه ووضع فوق ركبتيه مصحفا ضخما وأخذ يهتز إلى الأمام وإلى الخلف حتى يصيبه الدوار .. ثم يبدأ فى الترتيل ، وإذا أحس بالبرد نهض واقفا وبسط ذراعيه ودفن رأسه فى كتفيه وبدأ يرقص مثل الدراويش وهو يصفر ويبصق ويدق بقدميه حتى يسرى الدفء فى جسده ، فإذا انتصف النهار واستبد به الجوع أخذ يجرى كالمجنون من طرف الساحة إلى طرفها الآخر وهو ينفث مثل الكير وقد تصبب عرقه وهو لا يضع

فوق جسده سوى عمامته وسرواله ، وتجمع الجيران ليشاهدوه عن كثب من خلال النافذة المطلة على الشارع ، بعضهم يضحك ساخرا منه ، والبعض الآخر يشفقون عليه ويقولون : « بحق الله يا أفندينا .. ماذا دهاك ؟ » .. فكان يجيبهم على الفور : « أحس بلهيب داخلى يا جيرانى » .

وعندما كان يترك مكانه لأمه العجوز وينطلق إلى الخارج ، كان الأطفال اليونانيون يقذفونه بالحجارة فيطلق لساقيه العنان محاولا أن يقفز من فوق ميزاب إلى آخر فلا يقدر ، فقد كان الشارع يبدو أمامه وكأنه يود لو استطاع أن يقفز إليه ولكنه لم يكن يجرؤ على ذلك ، فكان يتراجع مرتعشا عاجزا عن السباحة .

وكان الكابتن ميخايليس يدعو افندينا كلما أعد لجلسة شراب ، فقد كان يحب أن يضم إلى مجلسه سقطا تركيا ، وكان أفندينا يستقبل الأنباء فى خوف وشغف معا ، فقد كان يعد الشهور التى تمر قبل أن يعود إليه « شاريتوس » وهو فى « التكية » ليهمس فى أذنه : « تحيات عمى الكابتن ميخايليس ، وهو يرجوك أن تذهب إليه فى القبو » ..

وطوال العام كله .. كان « أفندينا » يتحرق شوقا إلى لحم الخنزير والخبز الأبيض والمقانق والخمر ، ولكن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يسمح له بأن يشرب الخمر أو يأكل لحم الخنزير ولا أن يرفع بصره إلى عينى امرأة ، ولو أن ذلك حدث .. لأصابت الرعشة جسده .. وقد حدث مرة أن كادت له واحدة من هؤلاء النساء الصغيرات .. فتظاهرت بأنها وقعت فى غرامة ، وساعتها ، ارتمى هو فوق الأرض وقد علا الزبد فمه .. ولكن متعة واحدة فقط بقيت له فى دنياه ، متعة تحمل معها الخطيئة ولكنها متعة ثمينة ، دعوة الكابتن ميخايليس له كل ستة أشهر ليشرب الخمر ويأكل لحم الخنزير وليملأ كيانه الهزيل للأشهر الستة القادمة ، وقد تعود أن يقول له فى كل مرة : « بحق ما أؤمن به يا كابتن ميخايليس ، هددنى ضع سكينا فوق عنقى وصح فى وجهى ، التهم لحم الخنزير وعب من هذه الخمر أو أقتلك ! أجبرنى على ذلك يا كابتن ميخايليس حتى لا أكون قد ارتكبت خطيئة ، وهكذا ، كان يأكل ويشرب ويمارس كل كفر وتجديف حبس بعيدا عنهما فى الأشهر الستة الماضية كذلك فقد كان يكشف ما كان يعرفه عن « جاره » ـ وهكذا كان يسمى « القديس ميناس » فلم يكن يفصله عنه

سوى حائط ، وكان بمقدوره أن يراه كل ليلة يخرج من الكنيسة ممتطيا صهوة جواده فينتابه الذعر ويدفن رأسه فى الوسادة حتى إذا أصبح الصباح سرق الزيت من مصباح جده ليملأ به سرا قنديل « القديس ميناس » المسيحى .

وطوال ستة عشر يوما فى العام ، كان أفنديتا يشرب ويكفر فى قبو « الكابتن ميخايليس » كرجل حقيقى ، ثم يبدأ ذهنه فى العمل مثل الساعة فلا يحس باللهيب داخل جسده ، ويظل يقفز من رصيف إلى رصيف بلا خوف ، ولكن الأيام الجميلة كانت تمرق مثل البرق .. لتعود إليه الولاية والتضحية مرة أخرى !

وطوال الليلة الماضية أعجزته سعادته عن النوم ، فقد قام فى الظلام وانسل إلى الفناء حافى القدمين وفتح الباب فى هدوء حتى لاتسمعه أمه ، وانطلق خارجا ، وسار مستترا بسور « القديس ميناس » واجتاز المدرسة اليونانية حتى وصل إلى مسجد « سانت كاترين » ، وهناك .. توقف ، وأحس بعرق بارد يتساقط من جبهته ، إن عليه الآن أن يعبر الطريق إلى الرصيف الآخر ليستدير متجها إلى بيت « الكابتن ميخايليس » وقدم رجلا .. ولكنه مالبث أن أخرها وقد بدأت تستبد به الرعشة ، لم يكن ذلك الذى أمامه شارعا ، ولكنه كان مياه عميقة تدير فى دواماتها صخورا متناثرة وهى تجرى هادرة فى طريقها مابين الرصيفين .

واستند افنديتا إلى الحائط ، ومسح عرقه وظل يحدق فى الشارع : ألن يمر بى الآن شخص ما ـ تركيا كان أو مسيحيا ، أو حتى يهوديا ـ لكى يشفق علىّ ؟ » .

وظل أفنديتا ينتظر لاهث الأنفاس ، هناك على الطريق الآخر للمشاة .. يوجد النبيذ ولحم الخنزير والمقانق ، تشجع يا قلبى ، قفزة واحدة !

ومرة أخرى هيأ نفسه لكى ينطلق جريا ، ولكن ما إن انحنى إلى الأمام حتى رأى الشارع يرتد وينكمش إلى الخلف ، فعاد يلوذ بالحائط .

ومن فوقه بدأت مئذنة القديس كاترين تومض متوهجة فقد أدركت أشعة الشمس بالفعل عتبات البيوت وبدأ فرن « تولوباناس » يشيع رائحته ، وتناهت من كنيسة القديس ميناس ترتيلات عذبة عالية .

أما من مسيحى واحد فى طريقه إلى الكنيسة يمر بهذا الطريق ويرحمني ؟ أما من أحد يمر بى ؟ أالصبح العالم مهجورا ، وأى صحراء هذه ياترى ؟ .. لقد انتهيت ! .

وفجأة صاح وهو يرتجف أيها المسيحيون النجدة !

وفتح باب فى مواجهته ، باب مرتفع مزين بقارع برونزى ثقيل ، وبرز منه السيد « شاريلاوس ليونداراكيس » الصراف الجشع ـ القزم ذو الأرداف الثقيلة واللحية الوحشية والأصابع القصيرة التى يكسوها شعر كثيف ، كان ينتعل حذاء سميك النعل ، ويرتدى سترة قصيرة فى لون القهوة ويمسك بعصا مقبضها فضى على شكل رأس أسد ، كان « شاريلاوس ليونداراكيس » ينتمى إلى إحدى عائلات البندقية ذات المكانة والتى أصبحت من عائلات كريت ، وكان لأسلافه علم عليه رسم أسد ، كما كانوا يحفرون نفس الرسم فى قصورهم .

كان فى طريقه إلى الكنيسة ، ونظر إلى أفنديدنا وبدأ يضحك فى سخرية كان يحب رؤية المخابيل والمجذومين والعميان والشحاذين وذوى الحظوظ السيئة ، فقد كان ذلك يبعث الارتياح إلى قلبه بسبب منظره هو نفسه ، وصاح :

ـ « أفنديدنا ، تشجع أيها الأحمق المسكين ! اقفز ! » .

وصاح الرجل المسكين :

ـ « الا تخش الله يا مستر شاريلاوس ؟ بحق هذا اليوم الذى يشرق علينا الآن إلا اقتربت ! مد إلى يدك وساعدنى على العبور ! اريد أن أذهب إلى بيت الكابتن ميخايليس فلا أستطيع ! » .

وبرزت من الباب فتاة ذات شفتين ممتلئتين ووجه صغير أسود ، وكان « شاريلاوس » يمارس معها الحب ويصعد فوق مقعد صغير حتى يستطيع أن يقفز إلى فراشها ، وفى إحدى الليالى قدمت له احدى نصائحها : « سيدى ابتلع كل صباح (على الريق) بيضة طازجة ! .. ابتلعها والله يساعدك ! » .. وهكذا ، كان القزم الصغير يبتلع كل صباح بيضة .. لكى تجعله قويا !

وقالت الفتاة الخبيرة وهى تدس بيضة فى يده :

- « سيدى لقد نسيت البيضة ! لقد باضتها الدجاجة الآن فقط ! » .

وأخرج « شاريلاوس ليونداراكيس » مدية الجيب الصغيرة ، واحدث ثقبا بالبيضة من أحد طرفيها وثقبا فى طرفها الآخر ، واحنى عنقه القصير البدين إلى الخلف وابتلع البيضة .

وصرخ أفندينا من جديد :

- « ساعدنى يا سيد شاريلاوس إذا كنت تؤمن بالله ! » .

وضحك القزم الصغير وقال وهو يداعب عصاه :

- « سوف تعود فتأكل لحم الخنزير يا مسكين وتدنس نفسك ! » ..

- « سأذهب حتى لو تخطفنى الشيطان ! مسكين أنا ! تلك هى المتعة الوحيدة لى فى هذه الدنيا ، وسوف تكافأ على مساعدتى ، مد عصاك يا سيد شاريلاوس حتى أمسك بها » ..

وأشفق الله على « أفندينا » ، فقد برز من الناصية عجوز أقرع ينتعل قبقابا ، قادما من الحديقة العامة حاملا فى يده غرارة ملأى باللفت البرى ، ومد « أفندينا » ، ذراعيه وصاح :

- « يا عزيزى على أغا .. يا عزيزى على أغا ، أنت رجل طيب ومسلم صادق ! إن أمامى ماء كثيرا ونارا مستعرة ! خذ بيدى خلالها ! » ..

ودون أن ينطق بكلمة ، أخذ الرجل طيب القلب بيد « أفندينا » وقاده فى بطء وحرص إلى الرصيف الآخر ثم استدار اليه ليقول شيئا ، ولكنه فكر جيدا - ماذا ترى يقول له ؟ وضع الغرارة تحت ذراعه ومضى فى طريقه ، ماذا يمكن أن يقول له ؟ إن الله رحيم ... رحيم وقوى .. وقادر على أن يحيل الخنزير إلى حمل داخل الفم ويحيل الخمر إلى ماء .. إن الله يفعل مايشاء .. كل واشرب يا افندينا وثق بالله ..

وعندما وصل « أفندينا » لاهثا إلى بيت « الكابتن ميخايليس » كان كل ضيوفه قد نزلوا إلى عرين الأسد .. وكان « شاريتوس » يروح ويجىء بين المطبخ والقبو يبحث عن المشهيات ، وارتعشت خياشيم « أفندينا » فى شغف ، وتناهت إلى سمعه أصوات الأكواب الزجاجية من تحت الأرض ،

وتسللت إلى خياشيمه رائحة المقانق ، فاستند إلى الباب حتى لا يغمى عليه ! ولحظتها خيل إليه أنه يسمع صوتا : « يا أفندينا روث الخيل ! اتبيع روحك مقابل لقمة من لحم الخنزير ؟ تذكر مكة ، والصحراء ، والجمال والبخور والحجر الأسود .. تذكر جدك الذى طالما أذن فى الناس بالصلاة من المئذنة أياما وليالى طوالا وهو فى صيام دائم لا يأكل ولا يشرب ، وتذكر رقدته الآن فى وسط كهف من نور يجرى أمامه نهر من لبن وقشدة .. أنت من عائلة كلها أولياء صالحون ، لاتنس ذلك ، يا أفندينا روث الخيل ، أنت ماض هذه الساعة إلى الجحيم ، ولكن الباب لايزال مفتوحا .. فاهرب ! » ..

وارتعش « أفندينا » واتجه ببصره إلى باب الخروج .. ثم إلى باب القبو حيث تخرج رائحة المقانق .. وما أن بدأ يتخذ قراره ، حتى خرجت « كاترينا » إلى صحن البيت ورأته فقالت :

ـ « أهذا أنت يا أفندينا ! انزل بسرعة حتى لا تندم » .

ـ « هل الطعام جاهز يا سيدتى كاترينا ؟ » .

ـ « نعم .. أسرع » ..

وغمغم « أفندينا » :

ـ « هذه مشيئة الله ، هو سبحانه أرسل إلى السيدة كاترينا ، فلا ينبغى لى بعدها أن أقاوم : المقاومة الآن خطيئة كبرى ، أفأعصى الله ؟ يا الله .. يا الله .. أنى أتوسل اليك أن تنعم على بنعمة واحدة : دعنى أرتكب كل الخطايا ، ودعنى أيضا ـ أنا المسكين ـ استمتع بهذه الدنيا فوقى ، وقبل أن يدركنى الموت بنصف ساعة فقط ، امنحنى الوقت كيما أتوب إليك ! ألا تكفى نصف ساعة ؟ إنها تكفى ولاشك .. أتوسل إليك ! » ..

ثم قفز ودفع الباب الصغير وهبط إلى القبو ...

جلس الكابتن « ميخايليس » فوق مقعد مرتفع فى مواجهة الباب وقد بدا وجهه عابسا غارقا فى سحابة من دخان سيجارته ، وقد تدلى سوطه من مسمار بالحائط فوق رأسه ، وإلى اليمين واليسار منه مقعدان طويلان جلس فوقهما أربعة من ضيوفه : « ڤيندوسوس » و« كارجابيس » إلى ناحية ،

و« فوردجاتوس » و« بيترودلوس » فى الناحية الأخرى ، وفوق المائدة المرتفعة كانت المشهيات لاتزال ينبعث منها بخارها ، وكانت الخمر تتلألأ حمراء قانية كالدم فى أكواب ضخمة ، وكان « ڤيندوسوس » قد أسند قيثارته إلى ركبتيه وقرب منها أذنه وهو يضبط أوتارها بينما تدثر « بيترودولوس » فى عباءته مرتعشا سعيدا فى حماية « فوروجاتوس » ـ وهو يأكل بلا توقف ، أما « كاچابيس » فقد كان يأكل ويشرب .. ويفكر في زوجته ..

وظل الكابتن « ميخايليس » يملأ كوبه مرة تلو الأخرى ويشرب دون أن تمنحه الخمر أدنى متعة . كان يكرهها ، وفى كل مرة كان يرفع كوبه إلى فمه فيحس أن شفتيه تقاومانه وترفضان ، ولكنه كان فى كل مرة كان يفرغ الكوب فى معدته على الرغم منه ليخمد هذه المردة التى تلبسته ، والتى كانت هى الأخرى تخاف الخمر ، كانت مردة من أصوات وحشية ، أكثرها ليست أصوات بشر ، بل أصوات وحوش تزأر بمجرد أن تنفتح المتاريس بداخله وتدع الخيالات القديمة تقفز أمام ناظريه ، نمر ، وذئب ، وخنزير برى ، وبعدهم جميعا أجداده الذين يكسو الشعر أجسادهم .. خارجين من أعماق كهوف « بسيلورتيس » .

أما الآن ، فقد كان هناك مارد من نوع جديد يعلن عن نفسه فى أعماقه ، لم يكن يجأر كغيره .. ولم يكن يهدد ، بل كان يضحك ، ولم تكن أنفاسه منتنة ، ولكنها كانت عذبة ، ولأول مرة أحس « الكابتن ميخايليس » بالخوف فظل يملأ كوبه ثم يعود ليملأه .. ويشرب .

وعندما انصفق الباب مفتوحا ، وظهر « افنديبنا » ، رفع « الكابتن ميخايليس » رأسه بينما فرك « أفنديبنا » يديه فى ذهول وهو يخطو خطوة إلى الأمام دون أن يهبط الدرج كله ، وهربت منه الكلمات وسط اضطرابه ، كان يريد أن يقول : « تحياتى يا كابتن » ، ولكنه لم يستطع أن ينطق بها فقد تلعثم .

ورفع « الكابتن ميخايليس » يده وأشار إلى مقعد منخفض فى مواجهته وقال « أجلس ! » .

وسأله « ڤيندوسوس » دون أن يرفع أذنه من فوق قيثارته :

ـ ماذا تريدنى أن أعزف يا كابتن ميخايليس ؟ .

وكان « فوروجاتوس » قد نهض واقفا وازاح المقاعد جانبا ليهيىء لنفسه مكانا ، كان متلهفا على أن يبدأ ، وكان يحس كما لو أن نعليه يحترقان ويدغدغانه ، ربما كانت الخمر تؤدى بالآخرين إلى الغناء أو المزاح أو حتى البكاء أو النعاس ، ولكنها كانت تدفع هذا الرجل الطويل الغليظ « فوروجاتوس » .. إلى الرقص ، كان يشرب ، ثم يرقص فيعود إلى وعيه ، ولكنه فى الحقيقة لم يكن يعود إلى وعيه ، كل مافى الأمر أن حالة السكر كانت تأخذ شكلا آخر : كانت تتحول إلى محاولة يائسة غير مثمرة لمنح جسده جناحين ليقهر بهما القوانين التى لاتقهر .. ولم يكن يستطيع ، ومن ثم فقد كان يعود إلى الشراب ليتزود بقوة جديدة تساعده على التحليق .

وأجال الكابتن « ميخايليس » بصره فى ضيوفه الخمسة : لا الغناء ولا الرقص ولا القيثارة يمكن أن تخفف ما بقلبه اليوم ، واستقرت نظرته على « افندينا » .

وصاح « افندينا » محذرا :

- « سيدى ، لا تطلب منى أن ابتسم وارتكب الدنس ، هددنى أولا ! .. أجبرنى على أن أفعل ماهو ضد رغبتى فآكل واشرب ، وبعدها ستكون لدى الشجاعة ! » .

ولكن « بترودولوس » وقد أكل وشرب وواتته القوة تدخل وقال فى صوت كالغناء :

- أيها النبيل كابتن ميخايليس ، هل لى - لكى نقطع الوقت - أن أحكى لك حكاية قديمة مشهورة من قصص البندقية ، لقد رأيتها بعينى رأسى وأنا فى الشرفة ، ومنذ ذلك الحين لم يقر لقلبى قرار ، ما اقل مانسيت مرارة الحياة ، لأننى كنت دائما أحمل فى مخيلتى صورة ابنة هذا الرجل النبيل .. التى قتلت قتلة فاضحة .. صورة ديدمونة .

وسأله الكابتن ميخايليس وقد ذوى ما بين حاجبيه :

« من ؟ » .

- « ديدمونة يا سيدى الكابتن المحترم ، ابنة هذا النبيل من البندقية ، ألم تسمع عنها ؟ لقد أحبها بربرى ، كان جنديا عظيما ، ولكنه كان غيورا

فقتلها بلهيب الحب ، تناول منديلا ..... » .

ورفع الكابتن ميخايليس قبضته ليوقف الفم الذى جلله العار ، وقال :

ـ « بمحضرى ، لن يكون هناك حديث عن النساء يا بترودولوس » .

وتغضن وجه « بيترودولوس » ، واحتبست الحكاية الفينيسية فى حلقه ورفع « ڤيندوسوس » قوسه ذا الجرسين فى الهواء وتساءل :

ـ « ماذا إذن ؟ » .

واستند الكابتن ميخايليس إلى الحائط بكل ثقله وقال :

ـ « إعزف ماشئت بحق الشيطان ! » .

وأفرغ « كاچابيس » كأسه ومسح شفتيه ، ورفع « فوروجاتوس » قدمه اليمنى وقد ثبت عينيه فوق القيثارة .. وتهيأ للتحليق ..

ولكنه لم يحلق ، فقد اهتز البيت و« طقطقت » الجدران وقبض « بيترودولوس » البرميل خلفه بقوة على لا يسقط .. بينما هوت صفوف السفرجل والرمان والشمام المرصوصة فوق الأرفف .. هوت إلى الأرض وتدحرجت فى كل مكان وقفزت حتى وصلت إلى مستوى المائدة ..

وصاح « ڤيندوسوس » : « زلزال ! » واندفع يريد الخروج إلى العراء ، بينما كان « كاچابيس » قد مد يده نحو الباب وفكره يعدو نحو الميناء .. نحو كوخ متواضع ، يبحث عن « جاروفاليا » ، أما « افنديتا » فقد سقط على أنفه فوق الأرض وهو يحاول أن يتشبث بشىء ..

ومن أعلى ، تناهت صرخات امرأة ووقع أقدام ، واضطراب وانتحب « فوروجاتوس » وهو يصرخ :

ـ « بحق الله ! .. افتحوا الباب لنخرج ! » .

ولكن « الكابتن ميخايليس » جذب السوط من فوق رأسه وصاح :

ـ « ألا تخجلون من أنفسكم ؟ » .

ووجد « فوروجاتوس » فى نفسه شجاعة ليقول :

ـ « ولماذا نخجل ؟ إنه زلزال يا كابتن ميخايليس . إنه ليس بشرا تستطيع أن تتغلب عليه ! » .

وبينما هو يقول ذلك قرقعت من باطن الأرض أصوات رعد كأنها خوار ثور ، وبدأت أجراس « القديس ميناس » تدق دقاتها المألوفة .

وصاح « بيرتودولوس » وقد لف رأسه بعباءته :

ـ « النجدة يا قديس ديونيسس ! أنا الكونت مانجيافينو ! » .

وفرقع « الكابتن ميخايليس » بسوطه فى الهواء وصاح :

ـ « لا أحد يتحرك ! ارفعوا أفندينا من فوق الأرض وأسندوه إلى البرميل » .

ثم جذب العباءة عن « بيرتودولوس » وهو يقول :

ـ « ليس الزلزال شيئا ذا بال يا بيرتودولوس ، كريت شىء حى ، وهى تتحرك ويوما ما سوف أرى كيف تجد طريقها لترتبط باليونان » .

فجأة اعتدل مزاجه وتكلم ، كان لايزال صبيا يوم خرب الزلزال الكبير نصف قريته ، ولقد رأى يومها النساء والرجال أيضا حيارى يصرخون ويصيحون .. ويدفنون تحت أنقاض بيوتهم .

أبوه « الكابتن سيفاكاس » وهو وحده ـ ودون أن ينطق بكلمة واحدة ـ رفع ذراعيه ويديه ليدعم إطار باب البيت ، وظل رافعا كوعيه عاليا حتى استطاعت زوجته وأطفاله وزوجان من الأبقار وفرسهم الرمادية أن يجتازوه إلى الخارج ، وبعدها قفز هو قفزة واحدة ليلحق بهم ، ثم انهارت جدران البيت ، ومنذ ذلك اليوم لم يعد « الكابتن ميخايليس » يخشى الزلازل ، فقد أدرك أن الرجل الحق يمكن أن يسيطر عليها ، وملأ الأكواب ، وشربوا ، وعادت قلوبهم إلى أماكنها .

أما هناك على السطح فوقهم ، فقد اندفعت الجارات خارج بيوتهن يصرخن ، حتى « أركوندولا » ـ هذه العجوز « الناشفة » الحامضة ـ خرجت إلى الشارع هى وشقيقها الأصم الأبكم فى ذراعها ، كانت هى الأخرى قد اختلطت بجاراتها وأصبحت واحدة بينهن ترتجف وتصرخ كما لو لم تكن تنتمى إلى أسرة ذات مكانة .

وكان المطران فى تلك اللحظة يقدم عظته داخل الكنيسة ، وقد تحدث فى البداية عن الرب ، ثم مالبث خطابه أن انحرف فترك السماء لحالها وهبط إلى كريت ، ووقف الكاهن أمام عرشه المموه بالذهب وحلق صوته العميق تحت القبة المرسوم عليها صورة السيد المسيح وهو يحدق فى غضب ، ومن هذه الصورة كان الصوت يستمد قوته ثم يهبط ليدوى فى أرجاء الكنيسة بينما كان المسيحيون يقتربون أحدهم من الآخر كما لو كان هو حقا السيد المسيح يبعث إليهم صوته من أعلى الكنيسة ، ويحنون رؤوسهم وهم يرتعشون .

قال الرجل العجوز :

« يا أولادى ، الآن يجىء الصيام الأكبر ، وتقترب آلام المسيح ، ولابد أن يسيطر الخوف على الانسان ويركز أفكاره فحسب فى ذلك الدم الذى أريق فوق الصليب ، سامحنى الله ! .. إننى أتحدث عن آلام المسيح بينما أنا أفكر فى كريت » ..

ورفع يديه إلى قبة الكنيسة حيث صورة المسيح ، وصاح :

« كم مرة .. وكم جيلا .. وكم ألفا من أبناء كريت مثلى ، رفعوا أيديهم إلى السماء صارخين ، (حتى متى يا إلهى .. حتى متى ؟) نحن لسنا حجارة أو خشبا مسندة يا إلهى ! نحن أرواح .. أرواح أنت وهبتنا إياها ، نحن رجال ونساء ، فإلى متى إذن تهرق دماء كريت ؟ إن البحر كله ابتداء من شواطىء كريت حتى Hellespont حتى القسطنطينية .. أحمر اللون » ..

وتأمل ماحدث بعد ذلك ! .. بينما كان الرجل العجوز يقف منتصبا محدقا فى القبة ، وبينما ران الصمت لحظة كما لو كان الجميع فى انتظار الاجابة : اهتزت الكنيسة كلها وتراقصت الأضواء ودقت الأجراس دون أن يلمسها انسان .

وارتفعت الصيحات « زلزال ! زلزال ! » وهرعت النساء من الجانب المخصص لهن فى الكنيسة وتزاحمن ووطأن بأقدامهن الواحدة الأخرى مندفعات نحو الأبواب ، ووقف المطران جامدا مذعورا بلا حراك ، وهو لايزال يحدق فى صورة المسيح ، بينما اندفع « موروزوفلوس » نحوه وألقى

ذراعيه حوله واتجه به بعيدا عن عرشه خلال باب جانبي يؤدي إلى ساحة الكنيسة ، ثم ربت على كتفيه في ود وهو يقول :

« لاتخف يا سيدي ، إنها هزة أرضية وستنتهي » .

وغمغم المطران وقد امتلأت عيناه بالدموع .

« لقد اخطأت يا إلهي ، لقد اخطأت ، فبدلا من ان اتحدث عن الامك تحدثت عن كريت » ..

اما الكابتن « بوليكسيجيس » فقد كان يسير وسط الحي التركي ، وبينما كان المسيحيون يؤدون صلواتهم كان هو قد تهيأ للخروج ، حليقا ، قد بلل شعره بكثير من ماء اللاوندا ، وفوق راسه طربوشه المائل إلى جانب . كان يسير وحده وحذاؤه يئز كلما لامس الأرض ، ويحس داخل جسده بسعادة غامرة ، كان في قمة قوته .. مثل حصان .. مثل ثور يجوس خلال الحقول في الربيع .. كانت كل أعضائه تعمل بلا أدنى صوت : قلبه .. معدته .. وأمعاؤه .. كانت كلها تؤدي وظيفتها دون أن تتشاجر احداها مع جارتها ، وكانت جميعا - في طاعة وروح جماعية سعيدة - تكون بناء الكابتن « بوليكسيجيس » ! !

وغمغم يقول لنفسه :

« إنه لمؤسف حقا ان الشباب في الكائن البشري لا يدوم ألف سنة ! أيمكن أن يكون السبب أن الله يخشى أن نأخذ منه عرشه ؟ ألهذا السبب يا ترى يجردنا في حذق من أسلحتنا .. قطعة فقطعة ؟ فهو يخلع أسناننا ، ويلولب مفاصلنا ويضعف كلواتنا ويلقي العتامة فوق عيوننا ويجعل أنوفنا وأفواهنا تقطر الوحل والبصاق ... إن الموت لا يقلقني ، بحق روحي إنه لا يقلقني ، فهناك شيء ينبغي أن يقال في صدد التغلب تماما على هذا القلق ، ولكني لا أطيق صبرا على أن انحدر شيئا فشيئا لأصبح مجرد صورة .... » ..

كانت العبارة الأخيرة لاتزال معلقة فوق شفتيه عندما بدأ الحي التركي بأكمله يترنح .. وتهاوت الأبواب وارتفعت صرخات النساء ممتزجة بطرقعة الكتل الخشبية في أفنية الدور ، وبرزت « روهيني » .. المرأة البربرية من إحدى النواصي وهي تصرخ « الرحمة يارب ! » ، والصينية المستديرة

تتأرجح فوق رأسها والكعك الممزوج بالسمسم يتساقط من فوقها إلى الأرض ليختلط بالقاذورات والروث .

وباعد الكابتن « بوليكسيجيس » ما بين قدميه ليقف ثابتا فوق الأرض فلا يسقط ، بينما استند على جدار ـ شاء حظه أن يكون قريبا من منزل « نورى بك » .

اكتسى وجهه بعرق خفيف وغمغم « زلزال ! » . إنه يستطيع أن يواجه اى شىء ـ المرضى والأعداء .. والنساء ، ولكن كيف يمكن أن يواجه زلزالا ؟ .. فكيف له أن يعرف ما سيفعله هذا الزلزال ؟ وشحب وجهه ودار حول نفسه وأدرك انه كان يقف أمام الباب الأخضر لبيت « نورى بك » وكان فى مقدوره أن يسمع الأصوات المذعورة بداخله .. فأرهف أذنيه وانتظر : هل ستنشق الأرض وتبتلع الناس أم أن ذلك كان مجرد موجة ذعر وتنتهى ؟ « ميجالوكاسترو » كلها .. انتظرت حابسة الأنفاس . حتى الكلاب التى كانت قد بدأت تنبح ، سكنت ذيولها وانتظرت هى الأخرى وقد قف شعرها ، وبدأ ينتشر ضوء أصفر معتم بينما تناهت من تحت الأرض أصوات كأنها نفخ فى مزمار ، ثم مالبثت البيوت أن اهتزت مرة أخرى وتأرجحت المآذن مثل أشجار السرو ، وانهار الجدار الذى كان يستند إليه الكابتن « بوليكسيجيس » ، وتناهت من داخل منزل « نورى بك » أصوات تكسر الزجاج والأطباق والمصابيح وهى ترتطم بالأرض وتتدحرج فوقها وتتحطم .

وفجأة .. فتح الباب الأخضر ، واندفعت من خلاله « أمينة هانم » تصرخ ، وقد خرجت مسدلة الشعر حافية القدمين ، ثم سقطت مغشيا عليها وسط الشارع وخلفها خرجت المرأة البربرية المسيحية وهى تحمل لها شبشبها الأحمر الصغير ، وانحنت المرأة فوق سيدتها ونادت عليها ، ولكن « أمينة هانم » ظلت ملقاة فوق الصخور ورأسها مائل إلى الخلف أبيض مثل الشمع .

وأبصرها الكابتن « بوليكسيجيس » .. وغمغم « أمينة هانم ! » . ثم ابتعد عن الحائط واقترب منها فما لبث ان احمر وجهه الشاحب ، فطالما اشتاق إلى أن يرى هذه المرأة الشركسية المتوحشة .. وها هى ذى ملقاة أمامه .. فماذا يهمه الآن من الزلزال ؟ ـ بشعرها المسدل وقدميها العاريتين .. تماما كما تمنى أن يراها من قبل ..

وانحنى نحوها فى شغف ، ولكن المرأة البربرية أمسكت به فى عنف ودفعته بعيدا وصاحت متوعدة :

ـ « لا تقترب ، فهذه زوجة نورى بك ! » ثم جذبت بعنف وشاح سيدتها لتغطى به وجهها » ..

وقال الكابتن « بوليكسيجيس » :

« إذا لم تشم ماء اللاوندا فسوف تموت هذه المسكينة » ..

ثم أخرج من جيب صدريته زجاجة عطر صغيرة يحملها دائما ، ففتحها وانحنى فوق ركبتيه وقربها من فم المرأة الشركسية .

وكانت الأرض قد عادت ثابتة كما كانت .. وبدأ قلب « ميجالوكاسترو » يدق من جديد دقاته العادية ، كما وجدت الكلاب هى الأخرى فى نفسها الجرأة لكى تعود فتنبح فى وجه الزلزال !

وتنفست الشركسية بعمق ، وفتحت عينيها فأبصرت رجلا لا تعرفه ينحنى فوقها فصرخت وهى تغطى فمها بكلتا يديها .

وقالت المرأة البربرية للرجل :

« ابتعد ! .. ابتعد عن هنا إذا كنت تهتم بحياتك ، فسوف يكون نورى بك هنا فى لحظات » ..

ولكن الكابتن « بوليكسيجيس » كان يحدق فى عينى الشركسية ، كيف يستطيع أن يقرر الآن ما إذا كان يفضل الموت أو الحياة ؟ كانت العينان السوداوان فى البداية قاسيتين مليئتين بالاحتقار ، ولكن الشركسية مالبث أن لانت فى بطء وهى تدع أنفاس الرجل الثقيلة ورائحته النفاذة تهوم فوقها ، ثم استدارت نحو خادمتها وسألتها :

ـ « من يكون هذا الكافر ؟ » .

وأجابها هو بنفسه :

« الكابتن بوليكسيجيس .. خادمك يا سيدتى .. احتفظى بهذا العطر حتى تذكرينى » .

ولكن المرأة الشركسية قذفت بالزجاجة فى وجهه ونهضت واقفة وقد عادت عيناها غاضبتين مرة أخرى .

وقال الكابتن « بوليكسيجيس » وهو يتنهد :

ـ « سوف أمضى .. لا تغضبى » .. وهنا .. قالت المرأة الشركسية فى احتقار : « خائف » ؟ ..

ـ « ممن ؟ » .

ـ « من نورى بك » .

ـ « أنت ياسيدتى .. الانسان الوحيد الذى أخافه ، وإذا أنت طلبت منى الآن أن أقتل نفسى ، فسوف أفعل ولا أقترب منك مرة أخرى » .

ولكنه خشى كلماته ذاتها .. فردها إلى صدره ثم قال فى جراة :

ـ « إذا كان هناك اله فى السماء ، فسوف اقترب منك يوما ما يا امينة هانم ، يوما ما ، سوف اقترب منك ، وليفن هذا العالم كله ! » ..

وتفحصته الشركسية بعينين غاضبتين نصف مغلقتين ، كما لو كانت تحاول أن تقيمه ، كما لو كانت تقيمه قبل أن تشتريه ، ووقف الكابتن « بوليكسيجيس » فى ثبات وقد وضع يده اليمنى فوق زناره الحريرى .. وانتظر ..

وقالت الشركسية وهى تغطى وجهها بوشاحها بلا عجلة :

ـ « إن إلهى يرى اليونانيين أشياء تثير الاشمئزاز » ..

ورد الرجل :

ـ « إن إلهى يحب النساء الشركسيات .. وهو عظيم قادر » ..

وتناهت إليه أصوات ، فاستدار ورأى رجلين تركيين يبرزان عند إحدى النواصى .. وفتحت أبواب .. وأحاطت المرأة البربرية سيدتها بذراعها وأسرعت بها داخل البيت ، وأغلق خلفهما الباب الأخضر .

وتهيأ الكابتن « بـوليكسيجيس » للسير ، ولكن ركبتـاه كانتـا

كالمشلولتين .. وغمغم يقول : « لقد انتهيت .. انتهيت ! .. تماما كما لو كنت لم اقبل امرأة أو عرفت اللهو أو لمست امرأة .. من لى الآن بنار أقتحمها لكى أبرد الآن جسدى ؟ » ..

وتلفت حوله .. وأحس بالنشوة .. وأحس بأن الشوارع قد اختلفت صورتها وبأن الوجوه قد تغيرت ، وبدت « ميجالوكاسترو » تحت قدميه كشبكة مرقشة لاصطياد طيور القطا .. رسمت فوقها بيوت ومآذن .. وحدائق وبحار ..

وسار فوق الشبكة ، ومضى إلى بيته وقد أستبد به القلق ، وعندما أصبح عند مدخل البيت اندفعت إلى ذراعيه شقيقته السمينة الأسفنجية وهى تصيح : « الزلزال ! » .. وجسدها يرتعش .. وهى تنتظر كلمة طيبة من شقيقها .

ولكنه أزاحها جانبا وطوح بطربوشه فوق الأريكة وهو يحس بأن البيت قد أصبح ضيقا .. لا يتسع له .

كان الحفل داخل القبو قد تقدم كثيرا ! فعند بداية المساء تسللت « رينيو » لتنظر من خلال ثقب فى الحائط وترى حال ضيوف أبيها الحمقى !

كان « فورد جاتوس » قد خلع حذاءه : كانت قدماه قد التهبتا ، فقام يرقص وحده وقد أعماه السكر وتملكته روح شريرة ، وأخذ يخبط السقف برأسه فى قفزاته العالية ، والدماء تسيل فوق أذنيه وعنقه وهو ماض فى سعادة .. يتابع رقصته ويقفز ، أما افنديننا فقد نسى كل شىء عن العار والخجل ، وخلع عمامته فبدت القرحة فى رأسه بيضاء ناصعة ، وانحنى فوق البرميل الأوسط حيث انحنى « كاجابيس » هو الآخر وقد زين رأسه بأوراق الخرشوف ، وكانت لاتزال هناك بضع بيضات فى الطبق الفخارى يرهق « فيندوسوس » أعصابه فى بطولة لكى يأتى عليها بقشرها وهو يسعل وعيناه مليئتان بالدموع اثر محاولاته ابتلاع قشر البيض ! » بينما جلس « بيرتودولوس » المسكين فى الركن خلف الأباريق ، وقد عقد ساقيه ورمى بمعطفه بعيدا حتى لايتسخ .. وكان المسكين فى تلك اللحظة يدس أصبعه فى حذر داخل حلقه حتى يتقيأ ، وبعد كل دفعة .. يتجه إلى زملائه وينحنى ليقول فى صوت منغم :

« معذرة يا سادتى النبلاء .. معذرة » ..

وكانت « رينيو » سعيدة وهى ترى كيف يهين هؤلاء الناس انفسهم لكى يسلوا أباها ، ثم اتجهت ببصرها إلى نهاية القبو حيث جلس الكابتن ميخايليس .

كان يستند إلى الحائط فى صمت وقد ألقى برأسه إلى الخلف وهو يحدق فى فراغ ، ولم تكن الخمر قد أحدثت أثرها فيه بعد ، فلم يكن فى حالة سكر ، كما أنه لم يكن يتكلم ، بيد أنه أيضا .. لم يكن مبتهجا ، كانت شفته العليا فحسب ترتعش قليلا فتبرق أنيابه وسط شعر شاربه المشعث الكثيف .

وابتسمت « رينيو » . كانت تحب أباها وتفخر بمظهره الشرس وبصمته وكبريائه وتقول دائما لنفسها : « لو اننى كنت رجلا لأحببت أن أكون مثله ، وإذا أنا تزوجت ، فأنا أريد رجلا مثله ! » ..

غابت الشمس ، ونسيت « ميجالوكاسترو » أنها تعيش فى لجة ، ... فتألقت سعيدة موردة تحت أشعة الوداع .

وامتلأت « الأقباء الثلاثة » بالناس ، وخرج الرجال والنساء إلى الشوارع ليرى بعضهم البعض ، تماما مثلما يخرج النمل والديدان من باطن الأرض إلى الشمس بعد انقطاع المطر ، كانوا قد أفلتوا من خطر داهم ، لقد انشقت القبور لحظات تحت أقدامهم .. ولكنها مالبثت أن أغلقت ، ولايزالون أحياء على ظهر الأرض .. وشكرا لله ، كانوا يهنئون بعضهم البعض وهم يرفعون قبعاتهم ويتصافحون فى مرارة ، فقد وحدهم هذا المساء حب مفاجيء ، كانوا ينظرون فى رقة أحدهم إلى الآخر وهم يروحون ويجيئون ويحدقون فى البحر كما لو لم يكونوا قد رأوه من قبل ، ويتوقفون عند « كشك » الباشا فى وسط الميدان حيث أزهرت إحدى شجيرات زهر العسل المتسلقة لكى يتنشقوا عبيرها وكأنما أصابهم الذهول من فرط رقتها .

« ماهذا يا صديقى ؟ » .

« زهر العسل » .

« اللهم باركنى ! » .

وشيئا فشيئا بدأ الناس يتوافدون على المقهى الكبير بعد أن تعبوا من السير هنا وهناك .. بدأوا يتوافدون على مقهى « ليونيداس بابا لاروس » ويصفقون بأيديهم ليهرع إليهم السقاة عراة الأقدام يقفزون كالزنابير ، فيطلبوا منهم شراب الكرز والمياه الغازية وفطائر الصيام وكعك العنب .. وخرج الأطفال الأتراك وفى أيديهم فطائر اليقطينة والياسمين ، حتى « روهينى » ، هذه المرأة البربرية التى تلمع مثل فرس سوداء ، ظهرت هى الأخرى بعقد من الخرز الزجاجى حول عنقها ، وبثدييها العريضين المتهدلين وقد نظفت « الكعك أبوسمسم » مما علق به من الروث حين سقط فوق الأرض بفعل الزلزال ، ظهرت تسير هنا وهناك ضاحكة تتمايل وتنحنى وأسنانها البيضاء الناصعة .. وعيناها الخبيثتان تلمع تحت أشعة الشمس الغاربة .

لحظتها قال أبناء المدينة :

« يالها من سعادة ! .. يالها من جنة ! وهذه روهينى أيضا .. وكعكها أبو سمسم ! » .

وبينما كان المزيد والمزيد من الأماكن القريبة من « ميجالوكاسترو » يتوافدون معا ويخلقون البهجة فى « الأقباء الثلاثة » بملابسهم الجديدة ، كانت الشمس قد اختفت وراء « سترومبولاس » تاركة وراءها وهجا رقيقا بنفسجيا تحددت تحته معالم وجوه الرجال والنساء .

ترى ، من من أبناء « ميجالوكاسترو » تبحث عنه فلا تجده فى « الأقباء الثلاثة » مرتديا ملابس يوم الأحد ؟ بل من من نسائها كن هناك لسبب من الأسباب ، فلم تجلس عند مقهى « ليونيداس باربالاروس » لتشترى كعك اليقطينة وتضع عويناتها وتتأمل فى الدنيا ؟

كان « تيتيروس » هناك مع خطيبته « فانچيليو » ومعهما كانت « كريسانثى » مصففة الشعر مبدرة الوجه تضع فوق رأسها قبعة بمناسبة زيارتها « للأقباء الثلاثة » هى وابنة أخيها وحفيدها الجديد ، وكانت تسترق النظر خلسة إلى « فانچيليو » وتبتسم فى ارتياح وتقول لنفسها « انا افضل منها .. وأجمل ، وعندى شىء يمكن أن يمسك به الرجل ، أما هذه المخلوقة المسكينة ! الجلد على عظم ! فسوف لايجد تيتيروس فيها لحما يمكن أن

يملأ قبضته ، ولكن ماذا يهمنى فى الزواج ؟ لدى أخى ، ولست فى حاجة إلى مخلوق آخر ! » ..

وظهر الطبيب أيضا هو و« مارسيل » . كان رجلا « عاملا » ذا اكتفاء ذاتى ، سمينا ، يضع فوق رأسه قبعة باريسية جافة ، ويرتدى قفازين ويمسك بعصا ، أما « مارسيل » فقد لطخت وجهها بالمساحيق وبالغت فى تلوينه كى تخفى تعاستها .. كما حمرت شفتيها .. وكانت نسوة « ميجالوكاسترو » يتطلعن إليها فى سخرية ، يا للقناع يا عزيزتى ويا للغرور ! ذلك ما يستحقه هذا الطبيب المتحذلق ! كان الأجدر به أن يتزوج من بلده الأصلى !

غرق البحر فى الظلمة ، واختفت من أفقه جزيرة « ديا » ، وتنهدت نسائم قادمة من الشاطىء تطايرت معها شعور النساء وجعلتهن يضعن مراوحهن جانبا ، ومر جمـاعة من الصيـادين المالطيين ومعهم « الكونسرتينا »* ، وقد وضعوا فى آذانهم أقراطا وفتحوا صدور قمصانهم لتظهر صدورهم العارية كثيفة الشعر التى صبغها البحر والشمس ، وكانوا يغنون بأصوات مبحوحة دون أن يستديروا لينظروا إلى نساء « ميجالوكاسترو » ، بل ساروا قدما متجهين إلى الميناء حيث تنتظرهم هناك النساء المالطيات المتمددات وسط حبال الشباك وسلال السمك .

وفى وسط الظلام وجد الصغار الجرأة على أن يبدأوا مرة أخرى جولاتهم ، ويقتربوا من الفتيات ويسترقوا اليهم النظرات وقد ارتعشت فوق وجوههم رياح حب دافئة ، وإلى جانب تقع الجبال ، وإلى الجانب الآخر يقع البحر الكريتى ومن فوق .. سماء معتمة زرقاء ، وفوق كل رأس لشاب أو فتاة لم يتزوجا بعد .. ترقص « فينوس » نجمة المساء بألف ألعوبة خبيثة ! .

وبينما كان رجال « ميجالوكاسترو » ونساؤها يتجمعون فى « الأقباء الثلاثة » كان « تاراساكى » ابن « الكابتن ميخايليس » وأصدقاؤه الثلاثة يحثون السير إلى « البيرفولا » ، تلك الحديقة غير محددة المعالم بلا سياج فى طرف « ميجالوكاسترو » ، والمليئة بالصبار والحشائش ذات الأطراف

* آلة موسيقية .

المدببة ، وكان « تاراساكى » يحمل معه حبلا لفه حول خاصرته ، و« مانوليس » ابن « ماسترباباس » يحمل هراوة ، و« أندريكوس » ابن « كراسوچورجيس » يحمل مقرعة .. و« نيكولاس » ابن « فورد جاتوس » يحمل صفارة .

وقال « نيكولاس » :

ـ « إذا رأينا اباها يخرج ، فسوف أصفر لنهرب » .

وسأله « أندريكوس » :

ـ « هل قلت إن بيرفولا تجلس دائما عند عتبة الباب ؟ » .

ولم يكن « پيرفولا » هو اسم ابنة « باراسكيڤاس » ، ولكنه كان الاسم الذى أطلقه عليها هؤلاء الأوغاد الصغار لأنها كانت سمينة غضة دائمة الابتسام .

وقال « تاراساكى » :

ـ « إنها تقف عند عتبة الباب كل يوم أحد بشرائطها فى شعرها ، أعطنى صفارتك يا نيكولا ، وسوف أطلقها عندما تبدأ الهجوم عليها » .

ثم أمسك به وأخذ منه الصفارة وقال :

ـ « أنت تأخذ الحبل ، ألست أنا الكابتن ؟ حسنا ، فلابد أن تكون الصفارة معى ، هيا بنا الآن ! » .

كانت هناك بضعة بيوت بائسة متناثرة ، تكون الحى غير المطروق الذى يسكنه فقراء الأتراك والأرمن ، وكان الأرمن يطحنون البن فى هاونات ضخمة من الحجارة ثم يبيعونه ، وكان الأتراك يعملون بالنهار حمالين وفعلة .

وبدأ الأصدقاء الأربعة الذين كانوا يعدون منذ لحظات .. يتحركون فى حذر لصق الحوائط فى صف واحد يقودهم « تاراساكى » بصفارته ، وفجأة توقفوا ، فقد ظهرت « بيرفولا » السمينة الفكهة واقفة إلى باب بيتها والشريط الأحمر فى شعرها الأشقر وهى تمضغ اللبان .

واستدار « تاراساكى » إلى رفاقه وقال هامسا :

ـ « انظروا ! ها هى ذى ! سوف أطلق الصفارة واندفع انا فى البداية ، ليس هناك أحد قادم » .

وتقدم الاربعة قليلا ، وظهرت « بيرفولا » المزهرة امامهم فارعة الطول ساكنة ضخمة ، وكانت تدير وجهها بعيدا عنهم تراقب قطتين تقتتلان فى صحف فوق الحائط خلفها .

وسار الأقزام الأربعة ملتصقين بالحائط وقد حبسوا أنفاسهم ، وجال « تاراساكى » ببصره فى الشارع هنا وهناك ، لا أحد ! ، وضع الصفارة بين شفتيه ، ونفخ فيها ثم اندفع نحو الفتاة واندفع خلفه الآخرون مثل القطط ، وأمسك « تاراساكى » بها من جانب بينما امسك « نيكولاس » بها من الجانب الآخر ، وتشبث « أندريكوس » بقدميها بينما أطبق « مانوليس » بيده على فمها لكى يمنعها من الاستغاثة ، ولكنها لم تقاوم ، ثم مالبث الاربعة أن حملوها وهم يلهثون بعنف ـ فقد كانت ثقيلة ـ دون أن يعرفوا ، يمكن أن يفعلوه بها بعد ذلك .

وقال « تاراساكى » آمرا :

ـ « هيا إلى البيرفولا ، امسكوا بها بقوة حتى لاتهرب منا ! هيا ! » .

ثم اخذوا يتعثرون وهم يندفعون بها من البوابة المحطمة إلى بضع خطوات خلفها ، ثم وقفوا حولها وهم ينظرون إليها ، وكان الشريط الأحمر قد انزلق فتهدل شعرها فوق كتفيها ، بينما تمزق ثوبها من فوق ركبتيها ، وأخذ صدرها يعلو ويهبط فى عنف تحت المشد الشفاف ، كان الذعر قد تملكها فى البداية ، أما وقد عرفت الآن من الذى فعل ذلك بها فقد بدأت تقهقه ، ثم تمددت فوق الحشائش وهى تنظر إلى الصبية بعين متحدية نصف مغلقة .. وانتظرت .

وأخذ نيكولاس يتفحص فى إمعان بيرفولا الممددة من قمة راسها إلى أخمص قدمها دون أن يصل فى شأنها إلى قرار .. فتساءل :

ـ « ماذا سنفعل بها الآن ؟ » .

فقال « مانوليوس » :

ـ « لنبصق عليها » .

وبدأ الأربعة يبصقون عليها ، ولكن ذلك لم يبعث الراحة إلى نفوسهم ، فلم يكن ذلك ليكفى ، وتوقفوا عن ذلك وأخذوا يحدقون فيها بعيونهم ، يجب أن يفعلوا شيئا آخر ، نعم .. شيئا آخر ، ولكن .. ماذا ؟ ..

قال « أندريكوس » وهو يرفع الهراوة التى أمسك بها : « فلنضربها ! » . واندفع الأربعة فوقها وبدأوا يضربونها ـ بالهراوة والحبل ، بينما أخذ « نيكولاس » ـ وهو اقواهم بنية يضربها بقبضة يده ، وعاد الذعر يستبد بالفتاة وبدأت تصرخ :

وقال « ثاراساكى » مقترحا :

ـ « هيا ندوس فوقها حتى نمنعها من الصراخ » ..

وسأل « مانوليوس » :

ـ « ما رأيكم فى المقرعة ؟ » ..

ثم أخرجها من حزامه .. فقال « ثاراساكى » :

ـ « هذه يجىء دورها فى النهاية » .

وقفز الأربعة فوق ظهر الفتاة وفوق بطنها وهى تتدحرج فوق الحشائش تحاول أن تهرب من أقدامهم ، ثم استطاعت أن تقف فى النهاية وهى تحاول الهرب ، ولكنهم ارتموا فوقها مرة أخرى ، وأسقطوها إلى الأرض .

وبدأ عرقهم يتصبب ، وأحسوا بالتعب ، فتوقفوا مرة أخرى وهم ينظرون إلى الفتاة وقد تملكتهم الحيرة فيما يمكن أن يمارسوه فيها من أنواع جديدة من التعذيب ، ماذا يمكن أن يفعلوه فى الفتاة غير ذلك ؟ كانوا يتوقعون أن يحسوا بالسرور حين يختطفونها ويعاملونها بقسوة ، ولقد ظلوا شهرا بطوله يدبرون خطتهم وهاهم الآن يرون الفتاة ملقاة أمامهم دون أن يحسوا بالرضا ، ووقفوا يحدجونها بنظرات مليئة بالبغض والكراهية .

وقال « ثاراساكى » :

ـ « كان لابد أن تحضر معنا مطواة جيب نغرسها فى جسدها لتسيل دماؤها ، كان لابد من ذلك ! » .

فقال « ثاراساكى » :

ـ « هل أعضها ؟ أستطيع أن أنزع قطعة من لحمها ! » .

وقال « مانوليوس » :

ـ « نعم ، لنفعل ذلك بالدور » ..

ولكن « ثاراساكى » أصدر أوامره :

ـ « لا .. بل نفعل معا .. وبدفعة واحدة ! » .

وفك « نيكولاس » الحبل ، وألقى الأربعة أنفسهم فوق الفتاة ليكبلوها بينما أخرج « مانوليوس » المقرعة من حزامه ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يكملوا ما أنتووه ، فقد تناهى من عند الباب المحطم صوت حاد يتميز غيظا :

ـ « أيها المتشردون الملاعين ! » .

واستدار الأربعة ليروا السنيور « باراسكيفاس » واقفا بباب البيرفولا نصف عار ، ومسلحا بعصا مكنسة ، كان مساء السبت قد أرهقه بعد أن حلق رءوس وذقون كثيرين من الكريتيين ، وكان قد نام اليوم بطوله حتى يستجمع قواه لأسبوع آخر قادم ، ولم تكن المقصات والأمواس تبدو له بمثل الحدة التى تبدو بها فوق جزيرة الشيطان هذه .. وفجأة ، وأثناء نومه ، سمع صرخات ابنته ، فقفز من فوق فراشه واختطف عصا المكنسة وهرع إلى الشارع وهو لا يرتدى سوى سرواله ، صاح رافعا صوته قدر طاقته وهو يرفع عصا المكنسة :

ـ « أيها المتشردون الحمقى ! » .

ولكنه تراجع فجأة ، فقد رأى بين الأربعة ، ابن الكابتن « ميخايليس » فغمغم يقول لنفسه :

ـ « أوه ، هذا يعنى متاعب ! .. كن حريصا أيها المسكين باراسكيفاس ! » . واكتفى بأن يلوح بالعصا فى الهواء مهددا ..

وقال « ثاراساكى » :

ـ « هيا بنا .. اتبعونى » ..

واستدار نحو « باراسكيفاس » ، وهو يقول :

ـ « أنت .. يا سيد باراسكيفاس ، ابتعد عن الباب ودعنا نخرج ، واقذف بعصا المكنسة هذه ! » ..

وقال « باراسكيفاس » :

ـ « معذرة ! » .

وألقى بعيدا بعصا المكنسة .

الفصل الرابع

ما أروع ما رتّب الله سبحانه الأمور فى هذه الدنيا ! ستة أيام فى الأسبوع ليجرى الناس وراء المال ، واليوم السابع يوم لله ..

أشرق صباح الاثنين ، ودارت العجلة دورة أخرى ، ونسى سكان « ميجالوكاسترو » ـ الذين كانوا بالأمس خائفين مهذبين ـ نسوا الزلزال .. ونسوا الله ، وعادوا لينغمسوا فى « الأخذ والعطاء » وفى « أن يأكلوا أو يؤكلوا ! .. »

أشرقت الشمس ، وحمل الجنود مفاتيحهم الغليظة ، وفتحوا الأبواب الثلاثة على العالم الخارجى ، ومن بعيد اندفع الفلاحون يصيحون برفقة حميرهم وبغالهم الموسوقة بالأحمال . وفتح كذلك باب الميناء واندفع عبره الحمالون وملاحو الزوارق وعمال الميناء ، وارتفع مرة أخرى ضجيج البشر فوق الرصيف ، وملأ ضجيج مماثل آذان الرجال فى السوق بينما بدأت طرقات مطارق الحدادين تعلو فى حى الغجر المجاور .. ووقف المنادى فى وسط الميدان وجلجل صوته كالجرس ، وهو يعلن أن بقرة سيجرى ذبحها فى المذبح الاسماعيلى ، وأن لحمها سيكون أرق من الحلوى التركية ! .. وأن الذى يسبق ، سيكون له حظ اختيار أفضل أجزاء الذبيحة ..

وفى الشارع العريض بدأت حوانيت الاسكافيه تفتح أبوابها الواحد بعد الآخر ، وأخذ « المعلمون » أماكنهم فوق كراسيهم المرتفعة وبدءوا يقطعون الجلود بينما بدأ المساعدون و« الصبيان » يخرجون مقاعدهم الصغيرة وآلاتهم ليبدءوا العمل وهم يتطلعون إلى الشارع لعلهم يرون شخصا يسمح لهم مظهره بالسخرية منه ، فتلك كانت أفضل الوسائل بالنسبة لهم لقتل الوقت !

وكان الكابتن « ستيفانس » أول القادمين متكئا على عصاه الملتوية ،

فقد سمع بأن سفينة صديقه الكابتن « چاكوميس » قد وصلت مساء أمس من « سميرنا » فأراد أن يرحب بقدومه ويعرف منه ماكان يحدث هناك فى اليونان ، وماذا كان يفعل الملك وماذا كان الناس يقولون عن الاتحاد ، ففى « سيرا » كانت هناك « لجنة كريت » التى كانت « كريت » شاغلها الأكبر فى الليل والنهار .. كانت تجمع الأموال وتشترى البنادق والذخيرة وتنتظر ، وكان أعضاؤها يقولون إنه إذا لم يكن هناك تقدم فإن كريت سوف تثور مرة أخرى ، لهذا ، فقد أسرع الكابتن « ستيفانس » ليعانق صديقه وليعرف منه فى الحانة شيئا عما كان يحدث فى العالم ..

وصفر أحد « الصبيان » الاسكافيين بفمه ، وكانت تلك إشارة ! .. وتطلع الجميع .. وحدقوا ، ولكنهم مالبثوا أن اداروا عنه أبصارهم فى ذعر وضيق فلم يكن أحد منهم على استعداد لأن يصطدم « بكلب البحر ! » هذا الذى نال على يديه أحد « الصبيان » أول أمس « علقة » قاسية لأنه سخر منه ! ، حين أخذ يصيح فيه « أيها القملة الضئيلة .. ! هل تسخر منى ؟ ! هل تعرف أيها الأحمق السبب فى هذا العرج ـ ومتى وأين أصابنى ؟ حسن .. فاسأل إذن يا خسيس الأنف ! ... » ثم أمسك به وظل يضربه بعصاه دون أن يجرؤ « معلمه » على الدفاع عن صبيه ـ بل على العكس ، قال : « صدقت يا كابتن ستيفانس .. فأنت (ميادليس)* الكريتى .. ا .. زده ضربا ! » ..

أحنى الاسكافيون إذن رؤوسهم ، ولم ينبس أحدهم ببنت شفة ، وتركوا الكابتن « ستيفانس » يمضى فى طريقه ، وحين اختفى عن الأنظار ، قال أحدهم : « وحق كل مقدس يا أولاد .. هذا الرجل بندقة صلبة .. صلبة تعز على الكسر ! » وبينما كان لايزال يتكلم ، .... ظهر « شاريلاوس » ذلك القزم مقوس الساقين وفى يده عصاه الهزيلة .. بشاربه المبروم .. وحذائه الضخم .. ومر بحذاء حوانيت الاسكافيين وهو يضرب الأرض بعصاه ، ورفع أصحاب الحوانيت أيديهم إلى صدورهم يتمنون له يوما طيبا ..

وحين كان أبناء « ميجالوكاسترو » يرون السيد « شاريلاوس » مارا بهم ، كانوا يحسون بالاحترام والرهبة معا وكأنما لم يكن بشرا ، بل شيئا ما بين البشر والعفاريت جاء من دنيا الأساطير .. كان الأطفال يلزمون أماكنهم ويحدقون فيه وقد أصابهم الذعر .. كان حارس كنز من الذهب

مطمور فى الأرض ! كان يسيطر على قوى الظلام ! .. كانت عيناه شريرتين ، فإن هو نظر إليك فسوف ينقلب جلدك على الفور أخضر اللون .. وسوف ينتفخ جلدك ويتورم وكأن أفعى قد لدغتك ! وكانوا يحكون عنه أنه حدق فى يوم من الأيام فى شجرة ليمون مزهرة .. وعلى الفور ، ذبلت زهور الشجرة !

من أجل ذلك ، أحنى الاسكافيون رؤوسهم فى صمت .. وتركوه يمر بهم فى سلام !

وقال الصبى الذى صفر بفمه من قبل :

ـ « بداية سيئة لهذا اليوم يا أولاد ! لاشىء نضحك منه اليوم ! أين أفندينا يا ترى ؟ ! وأين باربايانيس ! هل مات الاثنان ؟ ! »

وصاح صبى آخر فى دكان مقابل :

ـ « جاءت سيرة القط ، فجاء ينط ! هذا هو باربايانيس ! » .

وأدار الكل رؤوسهم فى سعادة يتطلعون إليه وهو يصيح على بضاعته وهو يحمل صفيحته البرونزية بيده اليمنى ، وسلة مملوءة بالثلج بيده اليسرى .. ويتقدم برأسه المدبب ومظهره البشع ..

وكان فى نيتهم أن يثيروا ضجة تغطى على صوت « باربايانيس » ، ثم يقذفونه بعد بقشور الليمون ويتهكمون عليه وهم يساومونه على بضاعته ، وسأل أحدهم : يا زوجتى الصغيرة ! .. هل كل الأولاد فى البيت من صلبى ؟ ! اصدقينى القول ! .. فكرى جيدا .. فأنا أموت يا زوجتى العزيزة ! » .. وأجابه آخر من الجانب الآخر للشارع فى صوت مرتفع منغم :

ـ « وإذا لم تمت يا باربايانيس ؟ » .. وانفجر الشارع كله بالضحك ، ووقف بعدها لكى يسمعه الجميع وصاح : « يا أولاد ، هذه المرة سوف نلعب معه لعبة جديدة لن نصدر صوتا ، وعندما يمر بنا ويحاذينا تماما ، سوف نتظاهر بأننا جميعا لانراه .. ثقوا أن ذلك سيبعث به إلى الجنون وسوف تكون لعبتنا هذه مسلية حقا » ..

★ « ميادليس » .. بطل قرصان كريتى ..

ووصل « باربايانيس » .. وبدأ يصيح على شرابه ، ونظر يمينا ويسارا إلى حوانيت الأحذية ، وتوقف لحظة ينتظر ، ما الذى يجرى ؟ ! رحمتك يارب ! .. ألا يرفع أحدهم رأسه وينظر إليه ؟ ! ألا يفتح أحدهم فمه لينادى عليه ؟ ! هل أصبح ضئيلا إلى هذا الحد ؟ ! .. أأصبح سواء أن يمر بهم كلب أو حمار أو « باربايانيس » ؟ ... لماذا لا تصدرون صوتا يا أولاد ؟ ! .. مازلت أنا كما كنت .. باربايانيس ! .. أين إذن قشور الليمون ؟ ! ..

صمت ! .. الكل ينحنى على الجلد أمامه فى صمت ، يدقون بمطارقهم ، ويصبغون الأشرطة ، ويمررون الخيوط فى الإبر ، ويخيطون الجلود ، وارتعش « باربايانيس » ومسح بيديه عينيه ، ترى هل يحلم ؟ ! .. ووضع الصندوق والسلة فوق الأرض ثم صاح :

ـ « وحق الرب ! .. قولوا شيئا يا أولاد ! .. سنوف أجن ! .. لا .. لست أحتمل ذلك ! .. أين قشور الليمون ؟ » ..

ولكن أحدا لم ينظر إليه .. ولم يصدر عن أحدهم صوت ، وعاد « باربايانيس » يتوسل إليهم :

« الرحمة يا أولاد ! أنا أموت ، وأنتم لاترحموننى بنظرة .... !

« أحقا أنا لاأزال حيا ؟ ! أم أننى مت ؟ ! .... قولوا ولو كلمة واحدة ! » .. لاشىء ! .. سكون كسكون الموت ! وأصاب « باربايانيس » فزع شديد ، وتمتم يقول : « سحر ! ... هذه نهاية العالم ، والموت يحوم فوقنا ! إما أن الاسكافيين قد ماتوا ، وإما أنا الذى مت » .. ثم مالبث أن صاح : « النجدة يا قدمى ! » ثم أمسك بالصندوق والسلة فى عنف وضرب بهما قدميه .. وهنا ، انفجر الشارع كله ضاحكا .

وسمعت الضجة حتى فى الأسقفية . ونهض كبير الأساقفة من سريره حيث كان يرقد مصابا بنزلة برد وكان « مورزوفولوس » قد أبعد لتوه كاس الحجامة وأمسك به يمسحه بقطعة من القماش ، وتساءل وهو يرهف أذنيه : « أتكون عاصفة تقترب .. أم أنه زلزال آخر ؟ » ..

وأجاب « مورزوفولوس » فى غضب :

ـ « لابد أنهم الاسكافيون يا سيدى » .. يسخرون من شخص مسكين

سيىء الحظ ، هؤلاء الضالون ! الدنيا أصبحت للكلاب ! .. ولكنهم يوما ما سيستغيثون ! .. اللعنة عليهم ، فقد قطعوا حديثنا يا أسقفنا المحترم .. » ..

وكان كبير الأساقفة يحدثه عن روسيا ـ عن « كييف » حيث عمل « أرشيمندريتا » سنوات طويلة ، عن العواصف الثلجية ، عن القباب الذهبية فى قمم الكنائس وعن الأديرة تحت الأرض .. التى تزخر بالقديسين ، قال :

ـ « لاتخش شيئا يا موررزوفولوس طالما بقيت روسيا .. إن الإيمان الحق سوف يعيش ويسيطر إلى الأبد ، هناك فى روسيا وجد المسيح له ملجأ .. هناك رأيته بعينى هاتين ! .. هناك رأيته ياموررزوفولوس فى إحدى أمسيات الشتاء ، كان يذرع الثلوج وقد اكتسى بمعطف طويل من الجلد وانتعل حذاء طويلا برقبة ، ووضع يديه فى قفازات سميكة ، وظل يطرق الأبواب دون أن يسمح له أحد بالدخول ، ثم رأيته من خلال النافذة فاندفعت اهبط الدرج لأفتح الباب له وأنا أصيح « ياسيدى المسيح ! » .. ولكنه كان قد اختفى .

ورسم « موررزوفلوس » على صدره علامة الصليب ، وقال فى اكتئاب :

« اما أنا .. فلم أره أبدا » ..

وأجاب كبير الأساقفة :

« إذهب إلى روسيا .. وسوف تراه » ..

ثم أدار وجهه نحو الحائط واستسلم للنعاس .

ولكن الباشا هو أيضا كان فى ضيق بعد أن استيقظ هذا الصباح وهو يرى أن صحته ليست على مايرام فى هذه الأيام ، ويحس فجأة بأنه يطعن فى السن ، أول أمس ، وكان يدخن غليونه الطويل فى « كشك الباشا » بالقرب من الأقباء الثلاثة ، وكان الجنود يدقون طبولهم ـ لمحت عيناه وسط جموع اليونانيين التى كانت تمر بالقرب من الفرقة الموسيقية .. فتاة ذات شعر كثيف وفم شهوانى أعجباه كثيرا ، فاستدار نحو خادمه العربى سليمان وقال :

« من تكون هذه الفتاة اليونانية التى ترتدى ثوبا أحمر ؟ » ..

ـ هل تعجبك يا أفندينا الباشا ؟ ! إنها ليست من ميجالوكاسترو إنها قادمة من « كروسون » هذه القرية المتوحشة .. وقد تزوجت يوم الأحد الماضى من « كاجابيس » البقال المشهور بإجادته للغناء .. أنت سمعته من قبل .. بحق الشيطان يا أفندينا الباشا ! .. دعها وشأنها » ..

ـ هل هى امرأة محترمة ؟ ! .. فلتذهب إلى الجحيم إذا كانت كذلك !

ـ محترمة جدا يا أفندينا الباشا .. محترمة جدا .. وزوجها من أبناء « سفاكيا »

وهز الباشا رأسه الصلعاء وهو يتمتم :

ـ امرأة محترمة .. امرأة محترمة .. هى كذلك لأننى أصبحت عجوزا .. آه .. إنها النهاية .. ماذا ينتظر المرء بعد من الحياة ، إذا لم يعد فى مقدوره أن يرتكب الحماقات ، حينما لا يستطيع أن يفعل برجل شيئا إذا أراد ، أو أن يقبل أية امرأة حين يشاء ؟ أى باشا أنا إذن ؟ هذه الشيخوخة الملعونة ! كم كان لى من أوقات حلوة فى أماكن يونانية أخرى حيث تعودت

أن أبعث بجلادى ومعه تفاحة ملفوفة فى قماش هدية للعروس ، ورصاصة هدية للعريس ليخبرهم أن الخيار بأيديهم ، فكيف كان بمقدورهم إذن أن يختاروا الرصاصة ؟ .. كانوا دائما يختارون التفاحة ، وكانت العروس تجىء عندى غارقة فى دموعها فى ثوب زفافها ، وكانت تقاومنى وتصارعنى كما أحب فى النساء دائما .. ثم لاتلبث أن تجلس فوق ركبتى ، ولكننى الآن أصبحت عجوزا ، الدولة أيضا أصبحت عجوزا ، والسبب هو هذه الملعونة « كريت » ..

ثم استدار نحو خادمه العربى وقال وهو يغمز بعينيه :

ـ مارأيك يا سليمان ؟ ..

ـ كأنك لم ترها يا أفندينا الباشا .. تذكر .. نحن فى كريت ! هنا سوف نلقى المتاعب .. لا تتنهد .. هل أبحث لك عن الفتاة الأرمينية ؟ ! ..

كانت « ماروسيا » الأرمينية مشهورة فى كريت حتى لقد ورد اسمها فى

إحدى الأغنيات بالجزيرة .. كان زوجها أرمينيا فظا ضخم الجسد يملك دكانا فى الميدان الرئيسى يقف بداخله طوال اليوم منحنيا فوق الهاون الحجرى العميق يطحن البن الذى تنتشر رائحته فى كل مكان حوله .. وكانت ذراعه مفتولة صلبة من كثرة ما يستخدمها فى إدارة عصا الهاون حتى ليستطيع أن يضرب بها الحائط فيخرقه .. وكانت زوجته الأرمينية الساحرة الصغيرة تبدو من خلفه كما لو كانت مؤلفة من مجرد كرتين تهتزان كلما سارت ، أما رائحتها الجنسية المثيرة كرائحة الحيوان ـ فقد كانت تتسلل إلى أنوف الشبان حتى وهم فى أطراف المدينة البعيدة .. وفى المساء ، كانوا يتسللون متجهين إلى كوخها القريب من « البيرقولا » حيث كانت تقف على مدخله بجسدها المنهك ، خداها تكسوهما المساحيق الكثيفة وشعيرات خفيفة فوق شفتها غارقة فى العرق ، كانت تقف هكذا صامتة ساكنة مبتسمة وعيناها شبه مغلقتين حتى إذا أظلم الليل وكان زوجها المتعب لايزال نائما ، بدأت هى تفتح دكانها الخاص وتبيع الحب بالميزان بينما شخير زوجها يعلو من الحجرة المجاورة .. وكانت تتعمد ترك الباب مفتوحا ، فقد كان يمتعها أن تحس بأن زوجها قريب منها ، وبأن ترتعش من الخوف بينما زبائنها من الترك والمسيحيين والأرمن واليهود يحتضنون جسدها .

وكان الخادم العربى سليمان يحضر الأرمينية الساحرة كلما أحس الباشا بالضيق حين يعنفه الوزير لسبب ما .. بعدها كان الضيق ينتهى ويزول .

وسأله سليمان مرة ثانية :

ـ هل أبحث لك عن المرأة الأرمينية ؟ !

وبصق الباشا فى تقزز وصاح :

ـ يارجل .. أنا لا أريد أية امرأة .. المنافقون مثلهم مثل القسس ـ يسببون لى الغثيان ، بستة عشر أو سبعة عشر عاما لم أفعل غير ذلك ، وأنا الآن أتنهد لأننى أصبحت عجوزا .. ولأن تركيا أصبحت هى الأخرى عجوزا .. نحن الاثنان نمضى حثيثا إلى الشيطان .. على أية حال ما اسم هذه البنت ؟ !

- جاروفاليا .

- فليتعفن جسدها ! قل لاربابانيس أن يحضر إلىّ هذا المساء ليسليني ، إن قلبي مثقل يا عزيزي سليمان .. افندينا قادم هو الآخر .

وضرب بغليونه على الحجارة وغمغم لنفسه في صوت خفيض حتى لا يسمعه سليمان : « إنها تحبني .. إنها لاتحبني .. الله جعلني كذابا ، ولكنني واثق من أن تركيا هي أيضا قد وصلت إلى مرحلة أصبحت تقول فيها : إنها لاتحبني .. أملأ غليوني واشعله يا سليمان ولا تتكلم ! » ..

ومر فارس بالقرب منهما : فارس مهيب المنظر تختفي جبهته تحت عصابة عصب بها رأسه ، يلهب فرسه بسوط ، وينهب الأرض مثل البرق الخاطف حتى اختفى في الحقول عبر بوابة المستشفى وتساءل الباشا في دهشة :

- من يكون هذا الكافر يا عربي ؟ ! إنه دائما يستعرض نفسه فيما يبدو ! ترى أين رأيناه قبل هذه المرة ؟ !

وحدق العربي بعينيه مأخوذا يتبع الفارس الذي كان يدور في تلك اللحظة حول التحصينات .

وعاد الباشا يسأل وهو يشعل غليونه :

أين فطنتك يا غبي ؟ ! .. ألم تسمع سؤالي ؟

- تسألني من يكون يا افندينا الباشا ؟ .. ألا تذكر إذن استدعاءه إلى القصر في العام الماضي وتجريده من ثيابه لسخريته من نوري بك ؟ إنه لم يفتح فمه يومها ليعتذر وحين خرج فقد أمسك بالسلم وكاد أن ينتزعه من مكانه .

وغمغم الباشا :

- الكابتن ميخايليس !

واستغرق في التفكير لحظات .. ثم قال :

- اسمع يا سليمان ، سوف أقف يوما ما بالقرب من الأقباء الثلاثة أمام

كل الناس من أتراك ويونانيين ، وأدعك تصارعه وتطرحه أرضا .. ثم نتخلص منه بعدها .. هل تسمعنى ؟ !

وتطلع العربى إلى البحر .. وكان بياض عينيه شديد الاصفرار تشوبه حمرة معروقة .. ولم يجب ..

وأشار الباشا .. فتوقفت الطبول ، ونهض ثم استدار مرة أخرى نحو خادمه وقال :

ـ إذا كنت تخاف من هذا الكافر يا عربى .. فقد انتهى أمرك .. انتبه جيدا إلى ما قلت .

ولم يقل شيئا آخر ، ولكنه ظل طوال ثلاثة أيام يفكر فى المرأة ذات الثوب الأحمر ، وفى قلب تركيا المريض .. وها هو اليوم ـ صباح الاثنين ـ يستيقظ وقد استبد به الهياج من حلم سيىء رآه تلك الليلة . فى وسط السوق كان هناك وحشان يصطرعان : كابتن ميخايليس والعربى سليمان ، كان الاثنان عاريين يكسو الشحم جسديهما ، وليس فى يد كل منهما سوى فأس ، وقد تجمع حولهما ابناء ميجالوكاسترو ، على الجانب المشمس تجمع المسيحيون ، وعلى الجانب الآخر ـ فى الظل ـ تجمع الأتراك كانوا يقفون ليشاهدوا ما يجرى دون أن يتكلم واحد منهم .. كلهم كانوا يشاهدون مايجرى بوجوه شاحبة وأفواه مفتوحة . وكان هو نفسه يجلس القرفصاء تحت مظلة حمراء ، وقلبه يرتعش مثل قصبة فى الهواء .. إذا فاز الكابتن ميخايليس سقطت تركيا ، وإذا فاز سليمان العربى سقطت المسيحية .

وتصارع الاثنان وهما يزأران واهتزت الأرض تحت ثقلهما وامتلأت ثقوب الأرض بدمائهما حتى غربت الشمس واختفى المسيحيون والأتراك فى الظلام ، ولم يعد الباشا يرى سوى الوحشين وهما يزأران ويتعثران ويعودان فيقفان على اقدامهما من جديد وقد حللت جسديهما خيوط الدم التى كانت تنبثق تحت ضربات فأسيهما .. وفجأة صاح الباشا فى يأس : « الله ، الله ، إنه مجرد حلم ، وسوف أطلق صرخة توقظنى من نومى حتى لا أرى النهاية » ..

وأطلق الصرخة .. واعتدل فوق سريره العريض فى حزن وأغرق فى التفكير .. ثم مالبث أن صفق بيديه فبرز سليمان :

ـ أخرج وابحث لى عن الكابتن ميخايليس ... !

لم يكن يعرف ماذا يريد منه ، ولكن .. لابد أن يحضر ! ربما تفلت منه إهانة واحدة .. بعدها يثور غضبى واتخذ قرارى ! لا ينبغى أن يرتكب حماقة فى مملكتى ! .. أنا الباشا ! وهو ينهب الأرض بفرسه وأنا اسمع موسيقى الجنود !

وحك العربى رأسه وهو يقول :

ـ الكابتن ميخايليس ؟ ! ولكنى علمت يا أفندينا الباشا انه نزل إلى القبو مع صحبته الأغبياء يشربون ويسكرون .... » .

ـ وماذا لو كان يشرب ؟ ! سوف يفيق .. ويحضر إلى هنا !

وتردد العربى .. وقال فى صوت خفيض :

ـ يا أفندينا الباشا .. هل تريد أن تغرق كريت فى الدماء ؟ ! هل لديك أوامر من القسطنطينية ؟ !

ووضع الباشا يديه كلتيهما فوق رأسه الأصلع وهو يحس بالدوار وقال :

ـ ماذا ؟ ! ....

ـ حسن .. نفترض أنه قال لى : لا .. لن أحضر .. فماذا تقترح إذن أن نفعل به ؟ ! هل ستبعث الجنود فى طلبه وتمنحه فرصة ضربهم ؟ ! إنه ليس بشرا عاديا ، وخاصة حين يشرب ، إنه يصبح حينئذ اكثر من زلزال ، حينما سكر فى العام الماضى ، الم يقتلع بيديه بوابة الميناء ؟ ، ثم ماذا لو أنك أعددت كل شىء بحذق واستطعت أن تقتله .. الن تشتعل النار فى كريت ؟ ! دعه يذهب إلى الشيطان يا أفندينا الباشا ..

ـ دعه يذهب إلى الشيطان ، لأنه Polikase وهى دعها تذهب إلى الشيطان لأنها سيدة محترمة ـ نعم .. فأى صنف من الباشوات إذن أنا ؟ !

ثم صمت قليلا .. وفكر فى الاحتمالات الممكنة .. لو أن الجزيرة المترامية الأطراف ، اشتعلت بالنيران ، وقدم إليها جنود جدد من الأناضول ، وقدمت إليها المدافع والمشانق والباشوات الجدد ، فسوف يتدخل الفرنجة فى الأمر ، اللعنة عليهم هم أيضا ! وذلك كله لن يعود إلا

بالضرر عليّ ـ الأمر ببساطة مزيد من المتاعب ..

أخيرا صاح وهو يبرم شاربه فى غضب :

ـ أسرع وأحضر لى إناء من القشدة والسكر واحش غليونى أيها العربى الخسيس .

ـ والكابتن ميخاليليس ؟ !

ـ فليخطفه الشيطان !

فى الوقت الذى كان الباشا يتحدث فيه عن الكابتن ميخاليليس ، كان هذا يرقب طلوع النهار من خلال نافذة القبو الصغيرة وقد تدلت عصابة راسه على كتفيه وبدت جبهته كالبرونز تلمع فى الضوء .. وشعر راسه ولحيته يبرق وعيناه السوداوان المستديرتان العميقتان لا تتحركان وهما تحدقان عبر النافذة .. لم ينم طوال الليل .. ولكنه ظل يرقب .. ويسمع .. ويشرب وما أكثر ما حاول قلبه أن يهدأ .. وفى كل مرة كان يصرخ فى ضراوة وحرارة فيعود القلب ليضطرم من جديد ، ماذا أريد بحق الشيطان ؟ ! .. كان يسأل نفسه مرة ومرات ، ضاعت هدرا كل الخمر التى سكبتها فى جوفى : أنا إذن أسلب بطرس لأنقذ بولس .

لم يكن ثملا ، وقد كان بينه وبين نفسه يفخر بأن الخمر لا يمكن أن تؤثر فيه ، كان يقف من حين لآخر يذرع أرض القبو جيئه وذهابا ثم يعود فيجلس .. كان يحتقر هؤلاء الذين تسكرهم الخمر ، فيترنحون ويتعثرون ويكشفون عن أفكارهم أو يبدأون فى النباح .

ولحظة ما .. استدار إلى « بيترودولوس » وسأله فجأة :

ـ من هذه العفريتة التى كنت تتحدث عنها ؟ !

ـ ديدمونة يا كابتن .. ابنة أحد أمراء البندقية .. كان شعرها أشقر بلون العسل ، ملفوفا ثلاث مرات حول رأسها مثل التاج الملكى ، وكانت بخدها شامة مثل الزيتونة الصغيرة ..

ـ أكمل ..

ـ وهكذا ، يا كابتن .. ولا داعى للتفاصيل .. فإن هذه الأميرة الرقيقة ـ

وما أعجب النفس الإنسانية ـ أحبت رجلا مغربيا ضخما عملاق الساقين والذراعين .. ولكنه ـ وحتى يكمل الشيطان لعبته ـ كان رجلا غيورا .. وآه لو علمت كيف حدث أنها أحبته ؟ ! فى إحدى الليالى جلس الوغد الكبير إلى جوارها يحكى لها عن حياته ، وكأنه كتاب فحرك فيها أحاسيسها ، وأحسب بعطف بالغ نحوه من كثرة ما عانى ، وبدأت تبكى وقد ارتمت فوق كتفه وقالت : أواه أيها المغربى العزيز لاتحزن ، سوف أعوضك وارسم البسمة فوق شفتيك ..

وزفر « بترودولوس » بعد أن أفرغ كأسه .. وصاح الكابتن ميخايليس يأمره مرة أخرى :

ـ أكمل .

ـ معذرة يا كابتن .. لقد فرغ راسى ..

وأخذ يحك رأسه المدببة وكأنما يستحضر ذاكرته .. وأخيرا صاح بصوت مرتفع :

ـ وحدثت أشياء مذهلة .. لم يمكثا فى البندقية ، ولكنهما سافرا إلى قبرص حيث تزوجا على ما أتذكر ، وكان لأحد الضباط البيض ذوى الأشرطة الذهبية صلة بهذا الأمر ، وأخيرا .... آه ، نسيت مرة أخرى ! .... الحكاية تتعلق بمنديل .... !

ـ منديل ؟ ! .... ها أنت تعود فتتذكر يا بيترودولوس ! ..

ـ كلا ... كلا ... أنا لم أتذكر يا سيدى ، منديل ... نعم منديل ولكن ربما كان مسموما أو مسحورا .. كيف لى أن أعرف ـ آه ، .... تلك الليلة أعادت إلى ذاكرتى كل شىء ـ وضع المنديل داخل فم ديدمونة و ....

وانتابه بكاء ... فخلع وشاح عنقه وجفف دموعه وجبهته ثم صاح ......

ـ ...... وخنقها .... !

وانفجر الأربعة السكارى ضاحكين بعد أن كانوا مشرئبى الأعناق ينصتون .. ولكن الكابتن ميخايليس صاخ بغضب : « هدوءا ! » ، ثم استدار نحو « بترودولوس » وقال :

- ليس الخطأ خطأك أنت .. إنه خطأى أنا إذا سألتك ..

ثم أسند رأسه إلى الحائط وأغلق عينيه ، لقد كان المغربى على حق « هكذا كان يفكر ... إنه فعل ما كان ينبغى أن يفعله » ..

أما الآخرون حوله فقد نسوا تماما أحزان الغرباء ... وقال « فوروجاتوس » :

- لاتبك يا صغيرى بترودولوس ... إنها مجرد قصة من قصص الجنيات ! « نحن » فقط .. الحقيقة ، هيا يا فيندوسوس ، اعزف على قيثارتك ، ساقاى تهتزان تريدان أن أرقص .

وكأنما القيثارة ذات الأجراس كانت سكرى هى الأخرى ، فما لبثت أن قفزت فوق ركبتى « فيندوسوس » كامرأة تفيض حياة .. أو عروس زفت لتوها ، وتنهد كاچابيس بعمق وهو ينظر إليها ويسند رأسه التى استبد بها السكر إلى راحة يده ، وبدأ يزفر ترنيمة متصلة طويلة ..

أما افنديناً ذو الرأس الأجرب المطوق بأوراق الخرشوف والمعدة المنتفخة بالنبيذ ولحم الخنزير ، فقد صفق بيديه وجلس منتصبا كالشمعة ثم قفز فجأة وطوح ذراعيه ليحيط بكتفى « فوروجاتوس » وبدأ يرقص كالمجنون - وليذهب التعقل إلى الجحيم ! ..

وقال له « فوروجاتوس » متوسلا :

- انقلب مسيحيا يا أفنديناً .. انقلب مسيحيا تدخل الجنة راكبا ظهر خنزير !

وأجاب أفنديناً محزونا :

- لا أستطيع يا رفاقى ، لا أستطيع .. ولتسامحونى أيها الأصدقاء ، أنا ولدت تركيا وسوف أموت تركيا ..

وكان البيض قد نفد هو والمحارات وكل ما كان موجودا من طعام ، وضرب الكابتن ميخايليس آنية البيض الفخارية بقبضة يده وقدم حطامها لضيوفه ليأكلوها .. وتملك بترودولوس الذعر ! وأمسك بقطعته وقذف بها إلى برميل بجواره وهو يلهث بينما عيناه تحدقان فى فزع إلى الكريتين عند

أقدامه يقضمون القطع التى فى أيديهم ويمضغونها حتى تصبح رملا وحصى ثم يبتلعونها وهم يضحكون ضحكات مكتومة .

وبدأ بترودولوس يفلسف الأمر نفسه فى هدوء : هناك ثلاثة أصناف من الرجال ، هؤلاء الذين يأكلون البيض بدون قشرة ، وهؤلاء الذين يأكلونه بقشرة .. أما الصنف الثالث فهم الذين يلتهمون البيض وقشر البيض والاناء الذى يحمل البيض ! ، وهم الذين يسمون بالكريتيين ! آه يا كونت ما نجياڤينو ، ترى ما الذى جاء بك إلى هنا ؟ ! .. قالها لنفسه وهو يتطلع نحو الباب !

ومع غبش الفجر كانوا جميعا قد أرخوا أذرعهم ، بعضهم انكمش على نفسه فوق الأرض وقد علا غطيطه ، وآخرون استندوا برؤوسهم إلى البراميل وقد استبد بهم الانهاك فأخذوا يئنون وهم يتقيأون كل ما فى أمعائهم .. بينما كان بترودولوس قد انتهى من القىء ووجد ماء يغتسل به ، ثم دفن رأسه فى عباءته ولفها حول جسمه مرتين وتمدد فى ركن من المكان كدجاجة ابتلت بالماء وانتثر ريشها حولها فى كل مكان .

أما الكابتن ميخايليس ـ برغم كل ما شرب ـ فقد كان رافع الرأس منتبها ، يحدق عبر النافذة فى الصباح الذى بدأ يطلع .

وبدأ الضوء يتسلل إلى القبو ويكشف عن نفايات الطعام وبرك النبيذ والقىء ، واستدار الكابتن ميخايليس وحدق فى الخمسة الحمقى المهزومين وكأنما يراهم لأول مرة ، وأحس فجأة بأن قلبه بدأ يشعره بالاحتقار ، أرهف أذنيه ، وسمع صوت زوجته فى الفناء وكانت قد استيقظت من قبل وبدأت ترفع الماء من البئر ، وسمع صوت صياح الديكة عند الجيران .. وبدأت أصوات المخلوقات البشرية والحيوانات ترتفع من فوق سطح الأرض .. وصهلت الفرس فى الفناء وتهيأ « شاريتوس » ليحضر لها دلو الماء البارد والعلف ، وارتفع الصهيل ليملأ الجو كما يملؤه الندى منتعشا كماء الربيع .. وأحس الكابتن ميخايليس بروحه تنتعش هى الأخرى .. وغمغم يقول لنفسه :

ـ « لقد بدأت أظن أننى لا أصلح صديقا إلا للجياد . نعم ، إذا كان فى كريت ذئاب وخنازير .. فالآدميون يبدون فى نظرى كما لو لم يكونوا سوى حمقى يستحقون الرثاء » .

ونهض واقفا وأخذ يتمطى حتى قرقعت عظامه ، ثم ركل كل واحد من رفاقه وسكب نبيذا فوق رؤوسهم وصاح :

- هيا .. انهضوا .. إلى الأمام ! .. إلى العمل !

واستمر الاحتفال طوال اليوم الجديد والليلة التالية .. وكان السوط يفرقع كلما حاول أحد أن يسترخي ، بينما « شاريتوس » يصعد السلم ويهبطه حاملا مالذ وطاب ، وأخذ كل من أفنديـنا وبترودولوس - كالاخوة - يحشو أحدهما معدة الآخر ! ويبديان دهشتهما لأنهما وقد عاشا سنين طويلة فى ذات المدينة .. لم يعرف أحدهما الآخر ويحبه إلا الآن فحسب ..

قال بترودولوس :

- سوف أعلمك العزف على « الجيتار » ، وسوف تنسى معه متاعبك ، سوف تلعب على أوتاره وتشق طريقك فى الشوارع دون أن تهتز فيك شعرة ..

وقال أفندينا :

- وسوف أعلمك كيف تحمل المشاعل معك يا عزيزى بترودولوس فتبترد بها !

كان الكونت قد بدأ يألف الجو الكريتى ويسعد بأن يحب ويحتضن الجميع . ولكنه كان يستحى فقط أمام الكابتن ميخايليس ، لقد كان - وهو رجل « زانتى » المرح - يحس أحيانا برغبة فى أن يطلق فكاهة وهو معه ، ولكنه لم يكن يلبث أن يحس بالحرج فلا تتفرج شفتاه عن كلمة ..

واستدار إلى « ڤيندوسوس » وقال :

- نحن الاثنين .. يا سيد ڤيندوسوس - ترى هل أدركت ذلك من قبل ؟ - نحن الاثنين لسنا رجالا .. إنما نحن فنانان ..

- فنانان ؟ .. وماذا تعنى هذه الكلمة بحق الشيطان ؟ !

- نوع من الملائكة ، ليس هكذا بالضبط ، هناك فرق بسيط سأشرح لك :
هناك فى المخلوقات صنف الحيوانات - كالحمير والبغال - وهناك

آدميون ، وفوق هذين الصنفين يوجد الفنانون .. ونعرف هؤلاء تجيء الملائكة ، ونحن الاثنين يا عزيزى ڤيندوسوس .. من الفنانين .

- وبعد ... ؟ !

- وبعد ، فإنك إذا مت فى هدوء وسلام ، فلا تنسى أن تصطحب معك قيثارتك إلى القبر مثلما سأصطحب أنا الجيتار ، نعم ، فلنمت سويا يا فيندوسوس ، يا صغيرى فيندوسوس ! إن الملائكة هى أيضا تعزف على القيثارة والجيتار ، وعلى باب الفردوس سوف نهدى معزوفة للمايسترو الذى يسميه الذين لا يفهمون الموسيقى ... الله ، أنا سأعزف « الكانزونى » .. اما أنت فاعزف « المانتينادا » الكريتية حتى يخرج المايسترو ضاربا على الصنج .. ويسمح لنا بالانضمام إلى جوقته الخالدة .

وضحك ڤيندوسوس وقال :

- كلمات ضخمة هذه يا صغيرى بيترودولوس ، كيف تتصور ان تعزف أنت على قيثارتك ، وأن أعزف أنا على جيتارى بلا أياد .. بلا أصابع ؟ ! الا ترى ماتفعله الأيادى والأصابع على وجه الأرض ؟ !

وصرخ الكونت وهو يلم أطراف عباءته ويحكمها حول جسده !

- هدوءا أيتها النفس ! أنت تجعل شعر رأسى يقف ! ... هل تعنى انه حتى الأيدى التى تعزف على القيثارة ؟ ...

- كلها ، كلها ، يا صديقى فى سوء الحظ ، كلها ....

وصاح « فوروجاتوس » وهو يملأ الأكواب :

- حسن ، فلنشرب إذن حتى نسكر ، ما دامت لنا أيد ورقاب ! .

ثم قال :

- والنساء يا فيندوسوس ؟ هل يتحولن هن أيضا ؟ ...

- كلهن .. كلهن ..

- حتى ولو كن جميلات كالشمس ؟ !

- حتى إذا كن كذلك .. ولكن ماذا جرى للكابتن ميخايليس ؟ !

كان الكابتن ميخايليس مقطبا جبينه .. ثم مالبث أن قال :

ـ الأفضل أن تتكلم يداك بدلا من فمك يا فيندوسوس ، .... وأن تتكلم قدماك يا فوردجاتوس .. ولتكف السنتكما !

ـ أمرك ، يا كابتن ميخايليس ..

وقفز فورو جاتوس واقفا على قدميه ! .. ترى ماذا بقى ليسأل عنه ؟ !

وقفز فوروجاتوس واقفا على قدميه ! .. ترى ماذا بقى ليسأل عنه ؟ !
ووضع فيندوسوس قيثارته فوق ركبته اليمنى بينما رفع « كاجابيس » يده إلى خده وبدأ يرقص .. وبدأ الغناء مرة ثانية .. وكان اليوم قد بدأ خارج القبو والشمس ترتفع حرارتها ، ولكن الحياة ـ حياة الرفقة البشوشة ـ كانت تمارس وجودها داخل القبو ، وجاءت الظهيرة ، واختفت الشمس . وحل الليل مرة أخرى ، وفي وسط المائدة وفوق البراميل أوقدت الشموع الغليظة ، ومع انبلاج صبح آخر كانوا لايزالون ممددين فوق الأرض صفر الوجوه في لون الزعفران .. في إعياء كالنساء الحوامل اللائى أجهضن ! ومرة أخرى تلوثت الحوائط ، واختفت ملابسهم تحت بقع الخمر والدهن .. وارتفعت الرائحة الكريهة من أفواههم وشعورهم ..

وكان الكابتن « ميخايليس » يراقبهم دون أن يتحرك من مكانه ، وعندما ينبثق الفجر كان يدير رأسه نحو النافذة الصغيرة حتى لاينظر إليهم وقتا أطول ، لم يكن يفكر في شيء ، بل كان يحس فقط ـ ولمدة يومين وليلتين ـ بأمعائه تتلوى وترتعش وبأنه لم يعد يقف على أرض ثابتة تماما ! .. جلس هكذا صباح الثلاثاء ، ورأسه مستند إلى الحائط ، وأدهشه أنه ينام للحظات خاطفة .. خاطفة لا أكثر ! ولكنها كانت كافية لأن يسيطر عليه فيها عفريت من الجن ، وبدا له لأول وهلة بأنه يسير وسط سحاب ربيعي بارد ظل بداخله وهو مخطوف البصر من أثر الحرارة والخمر والإرهاق ، وأحس كما لو أن هذا السحاب يعانقه ويحتضنه ، ثم يحتويه تحت ذراعه ويرفعه ، ويدغدغ في حنان جسده ، ولكن هذا السحاب مالبث أن تحول ببطء ، فأصبح كثيفا .. ثم استحال إلى وجه : في البداية تكونت شفتان ، ثم تلألأ بريق عينين وحشيتين مخزيتين مليئتين بالخبث والازدراء .. ثم تكون في النهاية جسدان حمراوان ويدان بيضاوان كالثلج ، وتحركت الشفتان .. ورن صوت مثل خرير المياه :

« كابتن ميخايليس ، كابتن ميخايليس ... ! » .

ونفض الكابتن « ميخايليس » نفسه من الحلم بانتفاضة انقلبت لها المائدة فقد خرج كل شىء كان فوقها ، الأكواب والأطباق ، والشموع وصناديق الطباق ، وقفز الخمسة النيام ! .. واقتحم ضوء الصبح القبو ، ونظر بعضهم إلى البعض الآخر ثم حدقوا فى الكابتن ميخايليس الذى كان قد نزع السوط من فوق الحائط ثم اندفع نحوهم وهو يصيح كالممسوس :

ـ « اخرجوا ! .. اخرجوا ....

ثم ضرب الباب ففتحه على مصراعيه .. وعاد يصيح « اخرجوا ... ! » وكان « كاجابيس » أول المصغين للأمر ، قفز خارجا متخطيا عتبة الباب بحركة واحدة واندفع عبر الفناء إلى الباب المؤدى إلى الشارع ، وفى ثوان .. أصبح خارج الدار ، الصباح الثالث فحسب ! كانت « جاروفاليا » نائمة ولاشك ، أطلق ساقيه للريح متجها إلى الميناء ، أما الأربعة الآخرون فقد اندفعوا متعثرين أحدهم فى إثر الآخر خارج القبو وهم يتخبطون فى جدرانه ، وعندما أصبحوا فى الخارج بدت على وجوههم الملوثة المغضنة صفرة مشوبة بالاخضرار ، واتجهوا عبر الفناء نحو البئر انصاف سكارى .. ثم منه إلى عريشة الكرم ثم إلى الباب الخارجى حتى إذا أصبحوا فى الشارع ، لم يدروا إلى أين يذهبون .. وتحرك « فوروجاتوس » ... وسار مهموما وشاربه مرتخ وهو يحاول جاهدا أن يصلح حزامه ، ولكن حزامه ظل يهرب من وسطه منزلقا إلى الأرض حتى أن « فيندوسوس » الذى كان يتبعه وقيثارته فوق كتفه .. كان يدوس على طرفه بقدميه .. وخلفهما سار « أفندينا » واحدى يديه تمسك ثوبه الذى تقطعت حمالاته ، والأخرى تحاول فى ضيق أن تمسك بظهور باقى الرفقة ، وهو يصيح :

ـ قفوا .. قفوا أيها الحمقى ! إلى أين تذهبون ؟ ! إن الكابتن يمزح ، سوف يطلب منا العودة حالا ، عدوا فحسب إذا كنتم تعتقدون فى الله حقا ، الثلاثاء ، الأبعاء ، الخميس ، الجمعة ، السبت ، الأحد ـ ستة أيام .. لاتزال أمامنا ستة أيام ! ..

كان يحس بأنه من الظلم أن يطردوا هكذا بسرعة ، وهو لما يكد يغرق

فى الخطيئة إلى أذنيه .. إن الخطايا هى وحدها التى تجلب الرضا الحقيقى عندما يمارسها المرء كما ينبغى .. حتى أذنيه ! وقتها فقط يبدأ المرء فى الاستمتاع بها ، ثم لايلبث بعدها أن يجد شيئا يندم عليه ، إن الخطيئة ينبغى أن تكون جبلا من لحم الخنزير لابد من الاحاطة به .. وبحيرة من الخمر يسبح فيها المرء - وليس مجرد قطعة فقطعة .. أو نقطة فنقطة !

وظل يعد الأيام على أصابعه مرة بعد أخرى : الثلاثاء ، الأربعاء ، الخميس ، الجمعة ، السبت ، الأحد .... من المؤسف حقا أن يضيع عليه هذا العدد من الأيام « لا ، ليس هكذا يا كابتن ميخايليس ، لا تظلمنا هكذا ، مرنا بأن نعود ! » ..

وخيل إليه أن أحدا يناديه ، وأن يدا لمسته ، لابد أنه الكابتن ميخايليس ! واستدار فى سعادة ، ولكنه كان « بترودولوس » الذى يخبط على كتفه وهو يسير متعثرا منتحبا ..

- يا عزيزى أفنديتا ، لقد نسيت كيس نقودى هناك ، هلا عدت فجئتنى به ؟ ..

وكان « فوروجاتوس » قد أدرك الباب المؤدى إلى الشارع وحزامه لايزال ينزلق عن وسطه وهو يجرجره خلفه ، وكان يحس بأن يديه وقدميه ثقيلة كما لو أن شللا قد أصابها فاستعصت على خدمته .

- سوف أذهب لاحضر زوجتى لكى تقوم بتدليك أطرافى ، إلى اللقاء يا أصحابى ، لقد انتهى كل شىء بسرعة !

وصاح « بترودولوس » :

- إلى أين أنت ذاهب ؟ ! لا تتركنى وحدى يا فوروجاتوس ! .. انتظرنى !

وقال بترودولوس وهو يحيطه بذراعيه :

- تعال يا صغيرى بترودولوس ، أنت تسندنى ، وأنا أسندك !

وتعلق المايسترو بالحزام المتدلى .. وهو لايزال يتوسل :

- لقد نسيت كيس نقودى .

ولكن « فوروجاتوس » تظاهر بأنه لم يسمعه .. وكانت الشمس قد غمرت

الطرقات ، وتناهى صوت « باربايانيس » من بعيد وهو ينادى على his sulepi وكان الفلاحون ينادون على ما تحمله ظهور حميرهم من أخشاب الوقود ، ومر الاثنان بمخبز « تولوباناس » فتوقفا ، وكانت هناك صينيتان مليئتان بالكعك المكسو بالسمسم عند فتحة الفرن .

وتطلع « بترودولوس » إلى الكعك وقد أصابه الشلل ! .. ودس « فوروجاتوس » يده فى جيب صدريته وأخرج عملة صغيرة واشترى كعكة ..

ـ خذ .. كل ، لا أريد شيئا لنفسى ..

كان يفكر فى المجذومين .. وأحس بالغثيان ..

وكان أفنديناً يتعثر خلفهما ورأسه تدمى من أوراق الخرشوف متجها إلى التكية ، متسللا كاللص حتى لا تراه أمه فتضربه .

واتجه فيندوسوس إلى بيته والقيثارة فوق كتفه وقد تقطعت أنفاسه واصفر وجهه ، وهرعت زوجته لاستقباله وهى تسنده بذراعيها ، وهرعت ابنتاه أيضا لتساعداه ، وتعاون الثلاثة فى وضعه فوق الأريكة ، ومسحوا وجهه بزيت من مصباح أم الكروم المقدسة .. وترنم الثلاثة وهم يدورون بالبخور فوق رأسه ، ودثروا جسده بكل ما يملكونه من أغطية لأنه كان يرتعش ، ثم هرعوا إلى جارتهم العجوز « فلا مبورياريناً » وسألوها أن تحضر لكى تحجمه بالكاسات .

أما الكابتن ميخايليس فكان قد سرج فرسه ، ودس الشىء ذا المقبض الأسود فى حزامه ، وخرجت زوجته إلى الفناء لتسأله عن وجهته ولتذكره باحتياجات البيت ، ولكنه عندما رأت وجهه خانتها شجاعتها بينما استدار نحوها الكابتن ميخايليس وسألها فى فظاظة وغضب :

ـ ماذا تريدين ؟ !

ـ هل أعد لك بعض القهوة ؟ !

ـ أنا ذاهب الآن إلى المقهى ، وسوف أتناول قهوتى هناك ، ادخلى وعادت « كاترينا » إلى المطبخ وقد أصابها الرعب ، وكان « رينيو » قد ذهب ليعد القهوة ، فقالت أمه :

- إنه ذاهب أسرج الفرس ، وسوف ينطلق به إلى الحى التركى ، إنه وحش مفترس ، مؤكد ، إنه وحش مفترس خال من المشاعر ..

وضحك « رينيو » وقال فى فخر :

- إنه ذاهب إلى مقاهى الأتراك مرة ثانية ..

ثم سكت الاثنان وأرهفا السمع ، وتناهى اليهما صوت أقدام الفرس على عتبة الباب .. ثم صهيله فى الشارع ..

وتمتمت الأم وهى ترسم علامة الصليب :

- لعل الرب يبسط عليه يد رعايته .

وقال « رينيو » ضاحكا :

- هل رأيت كيف يهرب منه الحمقى ؟ ! .. كنت أتطلع من خلال النافذة .. وكان الواحد منهم بعد الآخر يصرخ ويجرى ، بينما أبى واقف هناك .. واعيا .. هازئا ، رافعا السوط بيده ضاربا به الهواء ، لماذا تتنهدين يا أمى ؟ ! أكنت تريدين زوجا مثل « بترودولوس » أو « فيندوسوس » ؟ ! .. ينبغى أن تسعدى بحظك يا أمى ! ..

- من الممكن أن يكون المرء زوجا متزنا « وكسيبا » دون حاجة إلى أن يكون أحمق مثلهما ! ..

وقال رينيو وقد عبس بوجهه :

- نعم .. ذلك ممكن ، ولكنى لا أحب « الكسيبة » earners ولا الحمقى ، أنا أحب من كان « كابتن » مثل أبى ..

أوسع « كابتن بوليكسيجيس » الخطى مارا بنافورة « ايدومينا » وخلفه « على أغا » بالسلة المثقلة على كاهله التى كان يجمع فيها هدايا عرس ابنة أخيه « ڤانچيليو » ومنذ يومين ، كان « الكابتن بوليكسيجيس » مضطربا كأنما قلب عقله زلزال ، كان لا يكف عن الجرى فى الشوارع ، ولم يكن يتناول طعاما أو شرابا .. وإنما كان يكتفى بالتدخين وهو يخور من وقت لآخر مثل الجاموسة المريضة ، وكان تجواله ينتهى به دائما إلى باب أخضر ، توقف ، وقاس ارتفاع الحائط بنظرة سريعة ، ثم شب على أطراف

أصابع قدميه كما لو كان يريد أن يطير فوقه .. ولكنه مالبث أن استدار وعاد أدراجه .

ومن أجل أن يزيل الشك لدى الجيران (فقد كان يحسب حساب الشمطاوات والسنتهن الحداد الخبيثة) ، قام بزيارة النحاس التركى فى الحى واشترى قدرا فى المرة الأولى ، وطبق غسيل و« كنكة » قهوة أو طاسا وأقداحا وفناجين للقهوة فى المرة الثانية ، ولم يكن يعرف فى البداية ماذا يفعل بها ، ثم مالبث أن تذكر أن ابنة أخيه سوف تتزوج ، ومن ثم فقد ملأ السلة بالأوانى النحاسية وأثقل بها كاهل « على اغا » ثم اتجه إلى حى « الكابتن ميخايليس » حيث بيت ڤانجيليو .

وبينما هو يمر بجوار نافورة « ايدومينا » ، لاح الكابتن ميخايليس ممتطيا صهوة فرسه ، والسوط معلق فى رسغه ، وأطراف عصابة رأسه تغطى عينيه .

وتوقف الكابتن « بوليكسيجيس » فى دهشة ، لأنه كان يعلم أن الكابتن « ميخايليس » كان قد بدأ صباح الأحد أسبوعا آخر من أسابيع السكر ! ولكن ، ها هو ذا فى يوم الثلاثاء ممتطيا صهوة فرسه مرة أخرى ، وكان واضحا أنه الآن فى طريقه إلى الحى التركى مندفعا إلى فوهة المدفع ! وهز الكابتن بوليكسيجيس رأسه وهو يفكر فى يوم ما من الأيام يدفع فيه الكابتن ميخايليس حياته ثمنا لهذه الجسارة ، وينهدم ركن من أركان المسيحية فى ميجالوكاسترو ، ولكن من ذا الذى يستطيع أن يرده إلى صوابه ؟ ! لا الله ولا الشيطان ! إن الرجل الذى لا يخشى الموت ـ يخشاه حتى الله ! ...

واقترب الكابتن ميخايليس ، ووقع بصره على الكابتن بوليكسيجيس فوكز فرسه .. لأنه لم يكن مستعدا للنقاش معه ، إن تأنقه وحديقته ومكانه السحيق وأسلوبه المستهين فى الحياة .. كل ذلك يثير أعصابه ، إنه واحد من هؤلاء الرجال الذين يصفرون ويغنون كل صباح عندما يستيقظون .. وهم صنف لا يرتاح له الكابتن ميخايليس ومع ذلك ، فقد كانا صديقين شريفين عندما يجد الجد وينتفض المسيحى لكى يخلقوا شجارا مع الأتراك ، ثم ان الاثنين كانا من القادة .. وكلا منهما كان يحس بأنه مسئول ، ولكن ما إن تهدأ الأحوال حتى يفترق الاثنان كل فى طريق مضاد

لطريق الآخر ، كان الكابتن « بوليكسيجيس » يرى أن الكابتن ميخايليس يشبه الدب المتوحش ويقول لنفسه دائما « أنا لا أحبه » .. وكان الكابتن ميخايليس يقول لنفسه عن الكابتن بوليكسيجيس : « إنه حلاق ، وليس من ذوقى » .. وهكذا فقد حث الفرس حتى يتجاوزه دون أن يكلمه ..

ولكن الكابتن بوليكسيجيس أدرك حين رأى ذلك الوجه الكالح ، أنه ماض إلى مالا تحمد عقباه ، وأن النتيجة لن تكون سوى متاعب للمسيحيين ، ومن ثم فقد استجمع شجاعته وصاح :

- إلى أين يا كابتن ميخايليس ؟ !

ثم مد ذراعيه كما لو كان يعترض طريقه .

ودمدم الكابتن ميخايليس :

- ابتعد عن طريقى إذا كنت تريد ألا يطأك الفرس يا كابتن بوليكسيجيس .

ولكن الكابتن بوليكسيجيس وقف فى وسط الطريق وذراعاه ممدودتان ولم يتزحزح ..

- بحق المسيح يا أخى ، لا تهدر قوتك ، أنت ركن من أركان المسيحية ، إن كريت تحتاج إليك ، إن حياتك ليست ملكا لك ، انها ملك لكريت وقد تحتاج إليها قريبا ..

ولكن الكابتن ميخايليس لم يشعر بازدراء لهذا ، الكاپيتايتو ! » مثلما شعر فى تلك اللحظة ، بالأمس هرب فوروجاتوس من القبو لحظة خرج فيها إلى الباب المؤدى إلى الشارع لمجرد أن يستنشق الهواء ، وفى تلك اللحظة تبادل بضع كلمات مع جارتهم .. زوجة « كراسوچوريس » وسمع عن لهو الكابتن « بوليكسيجيس » فى الحى التركى ، وحين عاد إلى القبو قص ما سمعه على مسمع الكابتن « ميخايليس » وتظاهر هذا بأنه لـ يستمع ما قال إلّا بالكاد ولكن ما سمعه كان أشبه بضربة عنيفة لقلبه

ولم يعد يحتمل الآن ، فانحنى من فوق فرسه وبدأت شفتاه ، تقذفان بالحمم .

- اذهب ومارس إغراءك على من تعرف من النساء ! ، ودعنى وحدى

اتجه أولا إلى مقاهى الأتراك .

واحمر وجه الكابتن بوليكسيجيس وأجاب فى تحد :

ـ عندما نكون فى سلام فأنا اغرى الهوانم ، وعندما نكون فى حرب فأنا أقفل الأغوات ، وتلك طبيعة الرجل فى رأيى .

ثم استدار نحو « على أغا » وقال :

ـ امض من فورك إلى بيت فانجيليو وافرغ حمولتك .

ثم دفعه بيده حتى انطلق ، ثم تقدم خطوة .. ووضع يده فوق عنق الفرس الساخن وقال فى صوت خفيض :

ـ كابتن ميخاليليس ، أستحلفك بمسيحيتك ، ما الذى يخيفك منى ؟ ! أنا لا أحب نظراتك هذه اليوم ، إنها تخترق جسدى كما لو كنت أننى تركى ..

ـ ابتعد عن طريقى إذا كنت لاتريد أن يطأك فرسى .

ـ قل لى .. ما الذى تأخذه علىّ ؟ ! لماذا تدير رأسك عني هكذا ؟ !

وصاح الكابتن ميخاليليس للمرة الثالثة :

ـ ابتعد عن طريقى إذا كنت لاتريد أن يطأك فرسى .

ـ هكذا أنت دائما .. لا أحد يستطيع أن يتحدث معك ، لا أحد يعرف كيف يتعامل معك وصاح الكابتن ميخاليليس فى غضب .

ـ يا لذكائك .. يا كابتن « هنومة » ! .

وهمز فرسه .. فرفع ساقيه الخلفيتين عاليا حتى أنها اخطأت الكابتن بوليكسيجيس بمقدار شعرة .

وتمتم الكابتن « بوليكسيجيس » وهو يعض شاربه :

ـ ماذا أفعل لهذا الرجل ؟ ! .. إنه بعد كل شيء .. مسيحى .. وفارس .. ولو لم تكن كذلك لعرفت كيف أعاملك أيها المجنون .... !

ثم بصق ثلاث مرات .. كما لو كان يريد أن يتخلص من هذا اللقاء الشرير ثم تابع سيره إلى بيت ابنة أخيه .

كانت « فانجيليو » تجلس إلى نولها وقد انتهت لتوها من العمل فى آخر قطعة القماش الحنطية المزدوجة العرض والتى ستصنع منها سراويل العريس وملابس نوم العروس ، ودست المكوك وسط القماش فى عجلة ، كان فى عجلة من أمرها لأن موعد العرس اقترب وأصبح يواجهها كحيوان اسود ضخم ، كما أنها هى ذاتهاكانت تتحفز كالحيوان ـ كدب منتفش ـ لكى تحمى نفسها منه .. من ذلك الحيوان الكريه ، لأن ذلك الزواج كان يبدو كذلك بالنسبة إليها .. بذلك العريس المتعب المنهوك half - helping بعويناته ، وبصوت القسيس (الكاهن) ذى الطراوة المقززة .. الرخيصة .. أولدت هى من أن تكون من نصيب هذا الجزء من رجل ؟ أمن أجل متعته كانت تسمن نفسها سنين طويلة حتى امتلأ صدرها وأردافها ، وحتى طال شعرها ليصل إلى ركبتيها ؟ كل هذا من أجل « تيتيروس » ؟ ! « تزوجته هكذا همس عمها « بوليكسيجيس » فى أذنها « قولى نعم يا فانجيليو ، إن الزوج وسادة ذات رغب dowrny تبعث الدفء فيك » ... آه .. أين الله ، حتى ينطلق صوتها ليخرق السموات السبع وهى تصيح : « أنا لا أريده ، أنا لا أريده ؟ » .... فكم سنة أمضتها وهى تحلم فى نومها بشاب بطل متشح بعباءة من الصوف حول كتفيه .. شاب مهضوم الأرداف ، عربيد يحب الخمر والنساء والشجار ، ويبعثر أمواله فى عظمه .. شاب لا يبارى مثل شقيقها ، « ياماندس » ! ... آه .. ! كم مرة وبالأخرى كلما أشعلت المصابيح مع مواجهة حرم الايقونة ، iokon shrires التى كان يتوجه اليها والداها ـ كم مرة توجهت بالضراعة إلى القديس نيكولاس « راعى البنات اليتيمات ، وإلى القديس « فاموريوس » الذى يجيء بالعرسان ، حتى يهباها زوجا مثل شقيقها ! .. نعم مثل شقيقها وليس مثل عمها « بوليكسيجيس » ، هذا الثرثار الضئيل الكالح ! وليس مثل الكابتن ميخايليس الذى تعبق أنفاسه برائحة الكبريت ، والذى ترتعش أمامه حتى كلاب الجيران ينبغى فحسب أن يكون مثل شقيقها دياماندس ، جسدا مثل شجرة السرو ، ووركان مثل وركى كلب من نوع البوكسر أو مثل وركى ملاكم Boxer وصدر مثل القلعة ، وإلا فإنه من الأفضل لها أن تبقى بلا زواج ، وأن تصبح عجوزا تعيش مع شقيقها ، هو أيضا ينبغى أن يبقى بلا زواج ـ ان الزوجة سوف تدمر كل هذه الرقة فيه ، آه لو ماتا معا فى نفس اللحظة .. ودفنا معا فى قبر واحد تنمو على جانبيه شجرتا سرو ، واحدة منهما نحيلة رقيقة مثل شمعة ، والثانية أنثوية متفرعة الأغصان !

وجذورهما تحت الأرض تتشابكان !

ولكن .. ها هو ذا العم « بوليكسيجيس » قد جاءها ليقول إن عليها .. أن تقبل « تيتيروس » شقيق الكابتن ميخايليس ، زوجا لها ، فتصبح بذلك زوجة رجل من عائلة ذات قدر .. رجل يعولها بعد أن بدد دياماندس أشجار الزيتون وحقل الكروم التى خلفا لهما والداهما ، ولم يعد باقيا لها سوى هذا المنزل .. وهو « الدوطة » اليتيمة التى أصبحت تملكها .. ولكن .. ! قد لاتمضى شهور قليلة قبل أن يأتى عليه هو الآخر ذلك الشقيق الأصغر الشره .. فماذا بعد ؟ ! ..

وتمتمت فى عناد وهى لاتزال تنسج على نولها : « الخطأ كله خطأ بوليكسيجيس هو الذى أوصلنى إلى هذا كله ! هو الذى أغرانى بأن أقبل ، ولكن الله عدل ، ولسوف يعاقبه على ذلك ، وإذا لم يفعل ، فإن زفرات الرجل الأعزب سوف تنقض على بوليكسيجيس مثل الرعد .. ولعلها أن تحرقه ! » ..

وضرب الكابتن بوليكسيجيس الباب الخارجي ففتحه ودخل ثم استدار نحو « على أغا » الذى كان ينتظر بالخارج وأشار إليه أن يدخل وينزل حمله ، وقال له فى بشاشة وهو يلقى إليه بقطعة من العملة الفضية .

ـ جوزيت خيرا يا على أغا ، فلتقض وقتا طيبا بهذه القطعة .

وتلقى على أغا قطعة العملة وأمسك بها فى قبضته بشدة كما لو كانت طائرا سوف يطير بعيدا عنه ثم انحني ليقبل اليد الكريمة .. ولكن بوليكسيجيس سحبها وهو يضحك قائلا :

ـ أنا لست أبا أو إماما يا على أغا .. إلى الملتقى !

ثم اخترق فناء الدار فقفز الكلب فى الركن الذى كان يقبع فيه وهو يشمشم .. ثم مالبث أن انزوى فى مكانه بعد أن عرف القادم الجديد ..

وعبر باب المنزل المفتوح رأى الكابتن بوليكسيجيس النول ـ ذلك الحيوان المنزلى الأليف ذا الأقدام والسيقان والبدالات والريش المعدنى والألسن والأمشاط والصوت الرقيق إذ يلف ويدور وكأنه صوت سفينة تشق الماء ..

واستدارت « فانجيليو » ورأت عمها ، فاستجمعت كل قواها لكى تبتسم ابتسامة ترحيب ، ولكن من بين شفتيها ، وأنفها وذقنها بدا أن الابتسامة لا تخرج إلا سما ! كان الحال قد انتهى بها إلى أن تصبح جامدة قليلة الكلام بصفة دائمة ، تحس دائما كما لو أن دورة مستترة تنهش أحشاءها ، وبدأت الصفرة تكسو وجهها وبدأ صدرها يهبط ويرتخى ..

ورأت على أغا خلف عمها ومعه السلة .. وأدركت كل شىء ، فقالت وهى تختلس نظرة إلى السلة ، ورأت مابداخلها من الأوانى المعدنية .. وأضاء وجهها للحظة ..

ـ أنت شديد الإسراف يا عمى جورج .

وضحك الكابتن بوليكسيجيس وهو يحاول أن يعيد الدم إلى وجنات أبنة أخيه :

ـ « لابد من يوم يتزوج فيه كل امرىء يا ڤانيليو ، وإذا كان حقل الكروم قد ضاع .. فلا بأس .. الناس يقولون إنه ليست هناك متعة أكبر من الزواج »

وانفجرت ڤانجيليو :

ـ « الناس يقولون .... » ..

ثم سكتت فجأة :

وجلس الكابتن بوليكسيجيس فوق الأريكة الصغيرة ورفع عن رأسه طربوشه (فقد أحس بالحرارة) ووضعه على إفريز النافذة ، بينما انحنت فانجيليو على ركبتيها وبدأت تخرج ما فى السلة من أوان معدنية واحدة بعد الأخرى .. وامتلأ البيت بالأوعية والأطباق والأباريق .. وبدأت تشع من وجه فانجيليو حمرة الدفء وهى منحنية تخرجها كلها ..

وقالت بنصف قلبها ! :

ـ جزاك الله خيرا ياعمى ، أنت فى مكان الأب بالنسبة لى .

ـ أنت تقولين ذلك بنصف قلبك يا فانجيليو ! ها أنت ستتزوجين ، ورغم ذلك فأنت يا طفلتى تكادين أن تبكى ، ارفعى هاتين العينين وانظرى الى ..

هيا .. ابتسمى .. ابتسمى ولو مرة واحدة .. اطلقى ولو صيحة واحدة تسرع بعدها انفاسك أكثر ! عندما تنسج العرائس آخر قطعة من ثيابهن ، فإنهن يغنين وهن يفعلن ذلك فتهتز بيوتهن - نعم ، بل أن الجيرة نفسها تهتز كما أن زلزالا أصابها ، إنها تسمى أيام العرس ! ولكنك تتصرفين كما لو كنت تنسجين كفنا لا ثياب عروس ! .

واهتاجت فانجيليو ، كلمات كهذه تثير الغضب من رجل نال كل ما يريد ، عادت لحظتها فى خطيبها ، أو كان من الممكن حقا أن تغنى به من أجل هذا الوجه الشاحب ؟ وأحست بطعم غريب داخل فمها ، وبأنها على وشك أن تنفجر مرخية العنان لنفسها .. ولكنها ترددت .. ماذا كان يمكن أن تقول ؟ ! إن الأمر سيان على أية حال .. إذا كان المرء سعيدا ، فلماذا إذن يصيح ؟ ! وإذا لم يكن سعيدا .. فلماذا أيضا يصيح ؟ ليس بمقدوره أن يغير من قدره شيئا ، والأفضل إذن أن يبقى ساكتا ..

ولكن الكابتن بوليكسيجيس لم يستطع أن يتحمل تلك الشكوى الخرساء من ابنة أخيه ، كان يوم العرس يقترب ، فى عيد الفصح سوف يكون الاكليل ، وقبل أن يأتى ذلك اليوم كان لابد أن يوضح الأمر لابنة أخيه ، كان يحس بأنها تنظر إليه بعينين رافضتين كارهتين منذ أن أتم خطبتها ، لابد أن يدعها تعرف - قبل أن تتزوج - إن الأمر كلفه شيئا يغرى به عريسها حتى يقبل الزواج منها ! لقد كان مترددا حتى آخر لحظة ، واضطر الكابتن بوليكسيجيس يوما إلى أن يفتح حافظة نقوده ويخرج منها خمس جنيهات ذهبية ويعطيها له وهو يقول : « خذ .. يا مدرس ! .. واعتبرها دوطة إضافية .. ولا داعى لأن تخبر أحدا - ولا حتى الكابتن ميخايليس أو العروس .. أو شقيقتى .. ها أنذا أطلى ابنة أخى بالذهب .. وأعطيها لك ! » .. هكذا استطاع أن يدبر الأمر .. فماذا حدث ؟ ! الآنسة العروس تشيح بوجهها كما لو كانت تشرب الكينين ! إن عريسها مقزز ! لعلها تريد لنفسها أميرا من الأمراء ؟ !

وخرجت فانجيليو من المطبخ وبيدها صينية مستديرة فوقها أقداح القهوة وكوبا من الماء البارد وبعض الكرز المحفوظ ، ووضعتها فوق مقعد فى مواجهة عمها .

- استمعى إلى يافانجيليو .

ثم ألقى بنظرة نحو الباب ...

ـ ألم يعد دياماندس بعد ؟ ! ألايزال شقيقك هذا السليم فى جولاته العابثة ؟

وردت فانجيليو فى اعتزاز :

ـ إنه شاب .. ووسيم .. وذلك من حقه .

ـ من حقه ؟ ! ماذا ؟ ! هل من حقه أن يسبب لك الخراب يا فانجيليو ؟ ..

ـ يسبب لى الخراب ؟ ! ولكن .. لو لم يكن معى .. إذن لكنت قد مت .. ماذا كان لدى بعد لكى أحيا من أجله ؟ دعنى أقل لك يا عمى ، إننى أحنى عنقى الآن .. وأقبل القيد الذى وجدته من أجلى ، أقبله حتى إذا ماتزوجت لم أجد شيئا يفرقنى عن شقيقى ، وإلا .. فليخطف الشيطان تيتيروس !

وابتلع « بوليكسيجيس » الماء البارد .. وكتم غضبه ، وتعمد أن يقضى وقتا أطول فى مضغ حبات الكرز المحفوظ كيما يمنع نفسه من أن يمد مخاليه فيمسك بابنة أخيه من شعرها ويطوح بها عرض الحائط .. وأخيرا .. بدأ يبرم شاربه وهو يقول :

ـ اللعنة ! .. إنه شقيقك وليس حبيبك ، هو أيضا سوف يتزوج ويكون أسرة .. ويومها لن يعود فيفكر فى الحانات ... !

وقفزت فانجيليو واقفة وقد توهج خداها وصاحت :

ـ أدعو الله ألا يكون هذا مكتوبا .. فإذا كان مكتوبا ، فإننى أدعو الله أن يمسحه ! ..

وصاح بوليكسيجيس وقد استبد به الذهول :

ـ ماذا دهاك يا فانجيليو ؟ ! أتحبينه أكثر من زوجك ؟ ! ولكن هذا أمر شائن ! أبعد كل الجهود التى بذلتها .....

وصاحت فانجيليو وهى تبصق بين أسنانها فى حنق :

ـ أنت بعتنى بقطعة خبز ...

ولم يعد في مقدور الكابتن بوليكسيجيس أن يسيطر على نفسه بعد ..

- بقطعة من الخبز .. اللعنة ؟ ! .. ربما يبدو لك الأمر تافها يا أميرتي ؟ .. يا لذكائك ! .. وماذا بالله يمكن أن يجد العريس ليرغبه فيك ؟ ! الشباب ؟ الجمال ؟ الثروة ؟ ! .. لقد بلغت الخامسة والثلاثين وتجعد وجهك مثل عنب الثعلب الجاف وأصبحت عجوزا بشارب ! وهذا الكلب السلاقي - أخوك - قد نهبك فلم تعودى بعد أكثر من خرقة بالية ! من الذى سينظر إليك الآن .. بل من الذى يمكن أن يرغب في النظر إليك أيتها المسكينة ؟ ! لقد أعمى الله عيني تيتيروس ، فقبل الزواج منك ..

ودفنت فانجيليو وجهها بين يديها وبدأت تبكي دون أن تتحرك .. واهتز قلب الكابتن بوليكسيجيس ، كيف خرجت هذه الكلمات من فمه ؟ ! وماذا يمكن أن يفعله الآن ؟ ! كيف يمكنه أن يهدىء الفتاة المسكينة ؟ !

وضع يده فوق شعرها الكثيف وقال :

- كفى كفى يا عزيزتي فانجيليو .. كفى بكاء ، سوف يكون كل شيء على مايرام بمشيئة الله ، إن رجلا طيبا سوف يرعى شئونك ، ثقى من هذا ، ما أسرع ما تزهر هاتان الوجنتان ويشيع فيهما الاحمرار وتعودين صغيرة من جديد ! وعندما يصبح لك أطفال ظرفاء .... »

وقالت فانجيليو في احتقار وهي تمسح الدموع من رموشها ..

- هر ! « تيتروسات » صغيرة !

- ربما لا يصبحون مجرد « تيتروسات » صغيرة ! سوف تجرى فيهم أيضا دماؤنا نحن ، وربما يصبح أطفالك مثل شقيقك !

وأصابتها الدهشة ! ... وأحست بالدماء تجرى في عروق صدرها الخابي .. وقالت وهي ترتعش .. « أسكت » ..

ونهض الكابتن « بوليكسيجيس » واقفا .. ومد يديه ليحتضن ابنة أخيه ولكنها ابتعدت عنه .

- حسن .. سوف نتحدث في يوم آخر يا فانجيليو ، سأخرج الآن قبل أن يعود شقيقك السكير ، فليست لدى رغبة في رؤيته هنا ..

ووضع طربوشه فوق رأسه واتجه نحو الباب ، وفى نفس اللحظة تناهى صوت خطو ثقيل ، وفتح الباب الخارجي بعنف وظهر الشقيق على عتبته لاهثا منهكا وقد وضع خلف إحدى أذنيه مسلوح حبق أصفر .. وخلف الأذن الأخرى سيجارة .. بينما تدلى معطفه متهدلا حول كتفيه ، وعندما رأى عمه عبس وجهه وزمم شفتيه « هنا مرة ثانية .. هذا الخاطبة ؟ ! فليتخطفه الشيطان ! » .. وتماسك ، ورفع قبعته واجتاز الفناء ودخل دون أن يرى الأوانى المعدنية فوق الأرض ، فتعثر فيها وسب ولعن !

وأشاح الكابتن بوليكسيجيس بوجهه متقززا .. وقال فى احتقار :

ـ الناس يشربون النبيذ .. ولكنهم لا يسكرون ! خذنى أنا مثالا .. الناس يجرون وراء النساء ولكنهم لا يهينون أنفسهم ، وخذنى أيضا مثالا .

ونخر « دياماندیس » باحتقار .. فلم يكن يحتمل كلمات عمه .. وكان أيضا يعرف نقاط الضعف فيه .. وخرج لسانه عن سيطرته : فاندفع يدمدم ..

ـ نعم الرجال يشربون النبيذ ولا يسكرون ، وهم أيضا لا يمضون إلى فراشهم ، ولكنهم يمتطون صهوات جيادهم ويركضونها ـ لانحو حى الأتراك جريا وراء إحدى الهوانم ، ولكن نحو مقاهى الأتراك بحثا عن الأغوات .. خذ أنت نفسك مثالا يا عمى .. خذ مثالا فى الكابتن ميخايليس !

واخترقت الكلمات قلب الكابتن ميخايليس ، فقد أحس بأن هذا الشقيق السكير كان على حق ..

ـ اللعنة عليك أيها التافه ! أنت تصلح فقط فى تبديد دوطة أختك فى الخمر والنساء والساعات والسلاسل .. لو أنك فقط تحسب حسابا للزمن ! .. ولكنك لاتصلح لشيء من هذا أيها الفاشل !

وصاح دياماندیس .. وقفز فوق الأوانى والأقداح يريد أن يمسك بخناق عمه ـ ولكنه تعثر وسط فوق الأرض محدثا صوتا داويا ..

وضحك الكابتن بوليكسيجيس فى احتقار وقال وهو يجتاز عتبة الباب ..

ـ أرجو لك أن تسعدى بشقيقك الصغير يا ڤانجيليو !

ـ يعلم الله أننى سأظل سعيدة به حتى آخر يوم فى عمرى ..

وانحنت تساعد شقيقها على النهوض من وسط الأوانى النحاسية المبعثرة وأجلسته فوق الأريكة ووضعت وسادة خلف رأسه وربتت عليه فى رقة ..

وفى منتصف النهار عاد « تراسوس » من المدرسة فى اضطراب شديد وصاح وهو يطوح فى الهواء بقبعته الحمراء التى صنعتها له شقيقته :

ـ ماما ! .. فرس أبى يثير الشرار بوقع حوافره على الأرض ! .. رأيته يمتطىْ صهوته على طول الشارع العريض وأصحاب الدكاكين والاسكافيون واقفون يشيرون إليه ، قال بعضهم أنه قادم من الحى التركى ، وقال آخر ، إنه متجه إليه ، ووقفت أنا هناك ورفعت قبعتى ولوحت له ، ولكنه لم يلتفت إلىَّ ؟ ! كان الشرار يتطاير من حوافر الفرس !

وقالت الأم وقد أفزعها إعجاب ولدها بأبيه ..

ـ كان السيد باراسكيفاس هنا يشكو إلى ، قال لى إنك أنت وأصدقاؤك اختطفتما ابنته أول من أمس .. ألا تخجل من نفسك ؟ !

وضحك « تراسوس » .

ـ لماذا فعلت ذلك ؟

وهز الصبى الوقح كتفيه .

ـ أحببنا أن نفعل ذلك ، وبالأمس كدنا نفعل شيئا بتيتيروس ! دبرنا أن نختبىء خلف الباب ومعنا حبل .. ونلقى أنشوطة حول عنقه عندما يدخل كما يفعلون عندما يمسكون بجواد برى وكما عرفنا منه هو نفسه أول من أمس .. كنا نريد أن نلعب لعبة مروضى الخيول !

وصاحت الأم :

ـ أشرار ! وماذا فعل بكم هذا الرجل الطاهر ؟ لماذا تريدون قتله ؟

ـ قتله ؟ ! .. نحن ؟ ! .. ولكننا نحبه ، كانت مجرد لعبة فكرنا فيها ، ولم يكن فى نيتنا أن نجذب الأنشوطة بسرعة ، كنا نريد فقط أن يخيفه لنرى كيف يتصرف !

ثم أخرج من تحت إبطه حبلا كان الغسيل ينشر فوقه فأعاده إلى مكانه ، ثم عبس بوجهه وشدد قبضته كما يفعل أبوه !

ـ ... وفي الدقيقة الأخيرة خاف الآخرون ، كانوا كثيرين جدا .. وكان منهم كثيرون من الجبناء ، ولكن لابأس .. مرة أخرى سوف انتقى أنا بنفسى ـ أقل عدد منهم وأكثرهم استعدادا ، وربما فعلتها وحدى ..

ودق الباب .. وظهر « على أغا » ..

ـ بالله عليك يا سيدتى ، أفندينا أصابه الجنون من جديد ، إنه يجرى وسط الحى اليونانى قادما إلى هنا ، أغلقى الباب ولا تدعيه يدخل .

ولم يتم كلماته حتى اندفع أفندينا يعوى إلى داخل الفناء .. وتألمت « كاتيرينا » لمنظره ، لم يكن يبدو على المخلوق المسكين مظهر بشرى . كانت ملابسه المصنوعة من الخيش ممزقة تهدلت منها خيوطها ، وكانت عيناه حمراوين منتفخين من البكاء ، وكان قد خلع عمامته ولوث فروة رأسه بطبقة كثيفة من روث الخيل ، وركع فى منتصف الفناء وبدأ يصرخ معولا :

ـ لقد دنست نفسى ، لقد أكلت لحم الخنزير وشربت الخمر وتفوهت بكلمات دنسة .. أيها الرجال والنساء .. سامحونى ! وعسى الله أيضا أن يرحمنى ويغفر لى ! سيدتى ، إذا سألك الرب غدا ، فقولى له إن الكابتن ميخايليس هو الذى دفعنى إلى ذلك بالرغم منى ..

وزحف على ركبتيه نحوها ليمسك بيدها ويقبلها .

ـ كونى رحيمة بى يا سيدتى ، أنا فى عجلة من أمرى .. أريد أن أنشر عذابى وعارى ، وها قد بدأت بك أنت ، وبعدها سوف أهرع إلى باب الباشا وإلى بيوت الأتراك الأخرين ، لابد أن يروا فروة رأسى .. لابد أن يعرفوا خطيئتى .. لابد أن يبصقوا على ، ولكننى أضع ثقتى فيك أنت ، إذا سألك الرب غدا ، فقولى له أن الكابتن ميخايليس هو الذى أجبرنى على فعل ذلك على الرغم منى ..

وضحك تراسوس ، وكان قد أخذ حبل الغسيل خفية ، وجعل منه أنشوطة ، بينما خرجت « رينيو » من المطبخ ووقفت تنظر إلى أفندينا وضحكة هى الأخرى .. ولكن « كاتيريتا » أحست بعينيها تبللهما الدموع .. وقالت فى رقة ..

ـ قف يا أفندينا .. قف .. سوف أفعل ما تريده ، سوف أشهد أمام الله أننى رأيت بعينى راسى كيف أجبرك الكابتن ميخايليس على ذلك ضد مشيئتك ..

ـ جزاك الله خيرا يا سيدتى ! والآن .. أسألك أن تقدمى لى معروفا .. هلا بصقت علىَّ ؟ !

ـ لا .. لن أفعل ذلك يا أفندينا ، قف واذهب مع بركات الله السبع ..

ـ إذا لم تبصقى علىَّ فلن أخرج ..

ثم استدار نحو على أغا ..

ـ ودورك أنت بعدها يا على أغا ـ نعم أنت .. كمسلم مؤمن .. وبعدها يجىء دور ميجالوكاسترو كلها .. قبل أن أغادر التكية ، نهض جدى من قبره وبصق على ، وأنت أيضا يا سيدتى لابد أن تفعلى إن كنت تؤمنين بالله !

واستدارت زوجة الكابتن بعيدا ..

ـ لا أستطيع لن أفعل .. انصرف .. وإلى الملتقى !

وصاح أفندينا فى ألم :

ـ لن انصرف ، نعم ، وحق الرسول محمد سوف أبقى هنا حتى تبصقى على وجهى .

وقالت الزوجة وهى تعود إلى المطبخ ..

ـ سوف أفعل ما أريده أنا لا ما تريده أنت يا أفندينا .

وصاح أفندينا باكيا ..

ـ فسوف أبقى إذن راكعا فوق هذه الحجارة حتى يطلع الفجر .

ثم بدأ يضرب رأسه فى الحجارة وهو يرفع صوت بكائه ويعوى مثل الكلب ..

وأشار « ثراسوس » إلى شقيقته ، ففهمت ما يريده منها وأخذت مكانا

قريبا منه خلف ظهر أفنديتا ، وبينما كان أفنديتا يضرب على صدره بقبضة يده ويعوى وعيناه معلقتان بالمطبخ ، ألقى « ثراسوس » الأنشوطة حول عنقه وأمسكت « رينيو » هى الأخرى بطرف الحبل ، وجذبه الاثنان .

وأطلق أفنديتا صيحة مخنوقة ، وهوى إلى الخلف وقد علت الزرقة وجهه وجحظت عيناه .. وطوح بيديه يريد أن يمسك بالأنشوطة حتى لايختنق ، ولكن يديه كانتا عاجزتين من شدة الرعب .

وصاح « على أغا » :

- بالله عليكما يا أولاد .. أنتما تخنقان هذا المخلوق البائس :

وسمعت زوجة الكابتن صرخة المسكين فعادت تجرى ، وجذبت الحبل من أيدى أبنائها .. وأرخت الأنشوطة ، ثم دفعت بأفنديتا نحو الباب المؤدى إلى الشارع وقالت :

- اخرج .. أخرج أيها التعس .. اخرج ! أخرج مع أطيب تمنياتى !

ثم دفعته بشدة فانكفأ على أرض الشارع ، وأغلقت دونه الباب .

وانفجر ثراسوس ورينيو بالضحك ، وقال الأول :

- أرأيت يا أماه ؟ ! .. هكذا يمسكون بالجياد ..

ثم عاد يقول وهو يعلق الجبل مرة أخرى بالقرب من مرجل الغسيل .

- الآن .. لن يستطيع تيتيروس الإفلات !

اندفع الكابتن ميخاليس كالعاصفة داخل الحى التركى وهو ممتط فرسه ولم تستطع الخمر أن تغطى على ذهنه بسحائبها ، وضغطت ركبتاه بقوة على جانبى الفرس وهو يحس بقوة لاحدود لها فى أطرافه وعضلاته ، قوة كانت أغلب فى تأثيرها عليه من الخمر التى عبها ، قوة لم يكن يعرف كيف يطلق نفسه من إسارها ..

لم يكن يستطيع أن يميز بوضوح أولئك الرجال الذين كان ينطلق بفرسه بحذائهم وبدت البيوت أمامه كما لو كانت أقصر .. وبدت الشوارع أضيق وسمعت (الجوارى) صوت فرسه ، فاندفعن إلى الطاقات ينظرن من

خلالها ، كن يعرفن الكابتن ميخايليس ولكن الشمس كانت تخطف أبصارهن فلم يستطعن تمييز وجهه جيدا ليتأكدن من أنه هو نفسه ، وتساءلت « أجلاجا » :

ـ ما الذى ينويه هذا الدب فى هذه الليلة المقمرة ؟ ! .. أيكون سكرانا ؟ ! » .

وقالت « ثاليا » وهى تحرك أنفها كما لو كانت تتشمم شيئا :

ـ « انظرى جيدا .. هناك شىء ما يحدث هنا .. لماذا ظل الكابتن بوليكسيجيس يتلصص داخل حينا منذ أمس ؟ ! لقد رأيته فى نفس اللحظة التى بدأ فيها الزلزال عندما اندفعت « أمينة » إلى الخارج وقد تظاهرت بالاغماء .. أليست صدفة عجيبة حقا أن يظهر فى نفس اللحظة ؟ ! .. أكانت صدفة حقا ؟ ! أم أنها كانت مرتبة من قبل ؟ ! وهكذا أفاقت من أغماءتها على يديه ... ! ومنذ ذلك اليوم تلطخ حينا بالعسل ! وها قد جاء دور الكابتن الدب البرى .. هذه الخنزيرة الملعونة ! إن كلا الفاسقين يستطيع أن يشم رائحتها على بعد ميل كامل ! » .

وقالت « فروسين » :

ـ صمتا ! صمتا ! .. أتسمعون صهيل جواد نورى بك ؟ !

وكان صوت الجواد المطهم النبيل يتناهى من الـ Konak التركى يحيى الفرس الشهوان .

وقالت « ثاليا » وهى تقهقه :

ـ أمينة تتأوه ! ..

ولكن سرعان ما احتبس لسانها داخل حلقها .. بينما صرخت شقيقتاها ، فعندما سمعت الفرس صهيل الجواد الفحل ، تراجعت كما لو كانت تريد أن تبدأ فى الرقص .

وصاح الثلاثة معا :

ـ سيقتل الكابتن ميخايليس !

ولكن الكابتن مالبثا أن ضغط بقوة على ظهر الفرس .. وغرس المهمازين فى جسدها ، فأحست بسيدها القاسى فوق صهوتها ، فأحنت رأسها وعادت تتحرك من جديد .. وغمغم الكابتن وهو يضرب رأسها بقبضته :

ـ اللعنة عليك ، وعلى هذا الدم الخار الذى يجرى فى عروقك !

وعندما أصبح قريبا من البحر ، أرخى لها العنان لتنطلق حرة على طول الأسوار الحصينة ، وأحس بهواء البحر يملأ صدره ، وهو يقتحم بها المتاريس التى كستها الاعشاب .. وبدأ يحدق فى البحر الأزرق العميق المزبد تلمع صفحته تحت أشعة الشمس .. وأطلق ذاته خلال الضباب إلى الشمال فى اتجاه اليونان .. وتنهد وهو يحدث نفسه :

ـ يا إلهى .. بك أنت سبحانك .. أستطيع أن أتحمل هذه الحياة .. بك أنت .. وليس بالناس .

ثم تابع سيره .

كان لايفتأ يجادل ربه كلما تذكر « كريت » التى تخلى عنها الكل .. وكادت عبارات الكفر تقترب من طرف لسانه .. لم يكن ينوح أمام الله ، بل كان غاضبا منه سبحانه ، لم يكن يطلب الرحمة ، ولكنه كان يطلب العدل .

وارتفعت من جهة الجنوب سحابة قاتمة لاتزيد فى حجمها على حجم زجاجة ماء .. ثم مالبثت أن أصبحت أكبر فأكبر حتى حجبت السماء وخنقت الشمس وجاءت ريح رطبة ناعمة من جهة البحر مست وجهه الشاحب .. فرفع بصره إلى السماء .. ودمدم فى حنق :

ـ ولكننى لا أستطيع أن أحارب بك أنت سبحانك .. فسوف أحارب إذن بالناس ..

وغرس كعبيه فى جنبى الفرس ثم اندفع مرة أخرى عبر الشارع العريض وكأنه البرق .. ووقف الكريتيون لكى يروه جيدا ، ومضى هو لا يلوى على شىء حتى بلغ « بوابة كانيا » حيث المقهى التركى الكبير والأغوات الأتراك المرموقون يسترخون بداخله .

من هذا المقهى كان الأتراك يتبادلون الرأى والمشورة كلما لاحت فى الأفق ثورة .. ومنه كانوا ينطلقون إلى المذبحة والمدى بين أسنانهم وفى

الأمسيات الربيعية ، وعندما تغيب الشمس : كانت أرضه تستقبل قطرات المطر .. فتشيع فى الجو رائحة الرطوبة ..

فى هذا المقهى كان يجلس وجهاء الشباب التركى فى حلقة فوق مقاعد مرتفعة وهم ينشدون أغانيهم الرتيبة ، وفى ليالى الشتاء ، كان قصاصوهم الموهوبون يضحكونهم .. وكان المؤذن هو الآخر يتردد على المقهى .. يمتحن الشباب التركى وينصت إلى أغانيهم الرتيبة ويشاركهم فى أمانيهم وحنينهم ، ويختلط عليه الأمر فى النهاية فلا يدرى ما إذا كانت هذه هى الجنة أم مجرد مقهى ، لم يكن هناك شىء ينقص المقهى ليكون جنة على الأرض ، الطباق الجيد للنارجيلة ، والنسائم الرقيقة من الحديقة المحيطة .

كان النهار قد جاوز نصفه ، وكان الأغوات قد انتهوا من طعامهم وجلسوا القرفصاء فى استرخاء فوق أبسطة من القش فرشت بها أرض المقهى ، وهم يدخنون النارجيلة ، وعيونهم نصف مغلقة من النعاس .. ويحتسون القهوة فى سعادة .

كان كل شىء قد رتب نفسه من أجل أن يمنحهم هذه السعادة ! فمنذ أجيال بعيدة ، كان آباؤهم الأول قد قسموا كريت فيما بينهم .. وأصبحت كرومها وزيتونها وأرضها الخصبة تركتهم لأبنائهم ، بينما تركت الأرض الجرداء لليونانيين ، وبين الحين والآخر كان الكريتيون يرفعون رءوسهم ، ولكن جنود الاناضول كانوا يتصدون لهم ويجبرونهم على الانحناء بالقوة الطاغية .

وظهر نورى بك حليق الذقن ، انيقا رشيقا مثل الأسد بشاربه الدقيق الأطراف المصبوغ بالصبغة السوداء ، المسحوب كالحديد وهو ينحنى يمنيا ويسارا فى تحية صامتة ، ثم اتجه إلى داخل المقهى ليجلس إلى جوار المائدة التى تهيأ فوقها بضاعة المقهى .. ليكون وحيدا ..

ومنذ ذلك اليوم الذى تعثر فيه جواده وسط المقابر .. وظهر أمامه شبح أبيه بشعره الأشعث الأحمر كالدم ، لم يكن نورى بك يهنأ بنوم أو طعام أو حديث ، كانت دماء أبيه تصرخ طالبة الثأر ، وكان ابناء القاتل وأخوته وأحفاده لا يزالون على قيد الحياة .. يتزوجون .. وينجبون ، ويحتفلون ويمرحون ، بل إن واحدا منهم تجرأ منذ وقت ليس بالبعيد على أن يدخل

حمارا إلى صحن مسجد القرية ! إلى متى يا ترى يمكن أن تحتمل هذه الاهانات ؟ ! وإلى متى يظل أبوه يهيم عارى القدمين بين الأرض والسماء ؟ ! .. لقد آن الأوان لأن يتخذ قرارا .. إذا كان رجلا حقا ..

وقال لصاحب المقهى :

ـ هات نارجيلة يا حسين ولا تدع أحدا يقترب منى .

وسمعت جلبة كالرعد على بعد .. وأدار الأغوات وجوههم تجاه الباب كانت السماء مغطاة تماما ، ولاح برق أصفر وأخذت الريح تصفر وقال أحد الأغوات :

ـ « الحرارة هى السبب ، سوف تمطر السماء »

وقال آخر :

ـ « من حظ المحاصيل » .. وقال ثالث :

ومن حظ أشجار الزيتون واللوز ـ الحرارة تعجل بنضجها » ...

ثم اتجه ناحية الباب يراقب الطقس .. وما أن بلغ عتبة الباب ، وقبل أن يرفع يده ليحمى نفسه .. قفز إلى الخلف فى ذعر بينما ظهر الكابتن ميخايليس فوق صهوة فرسه على مدخل المقهى وهو ينحنى ليرى الأغوات جالسين فى استرخاء يدخنون النارجيلة وهم شبه نيام ، واندفعت الدماء إلى رأسه .. ودارت الدنيا أمام عينيه ، فهمز فرسه ، فتراجعت لحظة ثم اندفعت داخل المقهى ..

ولم تكن هذه أول مرة يفعلها ، وكانوا هم يعرفون نزوات هذا السن ! .. أطاحت الفرس بعدة مقاعد فحطمتها .. وقلبت إحدى الموائد ، وتحطمت بعض الأوانى الصينية ، ثم اندفعت نحو المكان الذى كان يجلس فيه نورى بك ، وحيث كان يقف صاحب المقهى كعادته أمام الفحم المشتعل يضع أوانى القهوة أو يرفعها .. ثم توقفت :

وساد المقهى اضطراب .. وطوح الأغوات النارجيلات جانبا وهبوا واقفين ، الأكثر جراة منهم تحسسوا بسرعة خناجرهم تحت أحزمتهم الحمراء ، بينما رفع الشيوخ منهم أياديهم صائحين :

- احذر يا كابتن ميخايليس ، لاتثرها مذبحة !

ولكنه لم يتحرك .. وطرقع بسوطه فى الهواء وهو يصيح :

- اخرجوا جميعا .. أريد أن أشرب قهوتى وحدى !

ورغم أن المؤذن كان رجلا مسنا ، إلا أنه قفز من حيث كان يجلس القرفصاء .. وصاح بأعلى صوته :

- لن تجدى لعبتك هذه المرة يا كابتن ميخايليس ، لن تسخر منا كل عام ، هذه المرة لن تخرج من هنا حيا أيها الكافر !

وتقدم تركى جسور يحمى المؤذن وقد أسف لحاله ، ثم استل من منطقته خنجرا ذا حدين واندفع نحو الفارس ، ولكن الكابتن ميخايليس انحنى وأمسك برسغه حتى شلت يد الشاب التركى وأفلتت الخنجر فدسه الكابتن فى جيبه ثم رفع سوطه من جديد وصاح :

- إلى الخارج .. إلى الخارج !

وصاح الرجل العجوز :

- « الله الله ! » ..

ولم يدر لحظتها ماذا يفعل هل يبعث رسولا إلى الباشا يطلب جنودا ، أم يبتلع المرارة ويستسلم تجنبا لمذبحة ؟ ! .

ولم يتحرك نورى بك ، وظل يدخن نارجيلته وقد أحنى رأسه ، ولكنه كان يمسح المقهى بطرف عينه حتى غاب كل شىء أمام بصره ، لم يكن يرى لحظتها سوى صدر الفرس وبطنه الذين يتصبب منهما العرق .. وحذاء الكابتن ميخايليس .. وكانت أولى قطرات المطر قد بدأت تتساقط فى الخارج .. ورعدت السماء ، وأز زجاج الأبواب .. وصرخ المؤذن :

- « إذا كنتم تؤمنون بمحمد فدعونى أمزقه إربا كالسردين ! » ..

ولكن بعض كبار السن أمسكوا به من وسطه ومن أسفل أبطيه وأبعدوه ..

وظل نورى بك كما كان ، ينفث دخان النارجيلة من أنفه .. ها قد جاءت

الساعة ، لقد وعدت أبى ، ولقد كنت أصلى من أجل أن تحين فرصة كهذه .. وها هى قد لاحت ! هذا شقيق القاتل .. أبى نفسه هو الذى دفعه إلى هنا ، أمامى ، أمام فوهة غدارتى .. الآن نعم ! » ..

ولكى يثق أكثر .. تعمد أن يثير غضب قلبه :

« الآن تحرك يا قلبى ! تحرك .. واضرب ! أم تراك خائفا ؟ ! » .. وأحس بقبضتى يديه تكادان أن تحترقا كما لو كانت قد أصابته حمى ، ورفع بصره .. ورأى الكابتن ميخايليس يحدق فيه مباشرة ، ووضع نورى بك جانبا أنبوب النارجيلة ، ووقف فى بطء وتثاقل ثم اتجه إلى الفرس فأمسك بزمامها ، ثم استدار نحو صاحب المقهى الذى كان قد اختبأ تحت المائدة .. وقال :

ـ حسين .. هات قهوة للكابتن ميخايليس وسوف أدفع أنا الحساب ..

ورفع يده فى أسلوب آمر .. وأشار إلى الشباب التركى الذى كان يحيط بالفرس أن ينصرفوا .. وقال الكابتن :

ـ نورى بك ، أريد أن أشرب قهوتى وحدى ، لا أريد صحبة ، أخلوا المقهى تماما ، وقال نورى بك وهو يحاول أن يرسم الرقة على وجهه :

ـ أليس لى أنا الآخر ما أريده ؟ ! .. طلب بسيط يا كابتن ميخايليس ! .. طلب واحد .. لاتحاول إهانتى .

وانزلقت العصابة البيضاء من فوق رأسه ، فانحنى يرفعها ويضعها متأرجحة فوق رأسه .. وانتشرت فى جو المقهى رائحة المسك ، وارتعشت على الفور خياشيم الكابتن ميخايليس وتضخمت عروق رقبته .

وتسللت رائحة المسك فى أحشائه مثل السكين ، وأربكته !، الليل ، سياج الليمون ، الحجل ، الضحكات خلف الشباك ، صرير درجات السلم ، ثم فجأة .. جسد داخل إطار الباب ، جسد يتمايل ويملأ الهواء بأريج المسك .. وهذا الـ نورى نفسه .. وأطلقت عينا الكابتن ميخايليس بريقا كالشرار .. وأزاح نورى جانبا ، ثم همز فرسه وتحرك إلى وسط المقهى وصاح كالممسوس :

ـ أخرجوا .. أخرجوا .. أخلوا المقهى ! ..

وأحكم نورى بك العصابة حول شعره ، وعض شفتيه بقوة حتى أسال دماءهما ، وكان الأغوات قد غادروا أماكنهم وأحاطوا به وبينهم أثنان متحفزان خلف الباب وقد أمسكا بخنجريهما بينما تسلل كبار السن خارج المقهى الذى بدأ يخلو ..

وأحس « نورى بك » بالخجل .. وقال للأغوات فى هدوء :

ـ أخرجوا .. إنه سكران ، فلا تجادلوه ، سوف أبقى أنا حتى أطمئن إلى أنه لن يتمادى وحتى أطمئن إلى انه لن يرتكب ما يخجلنا ..

ولم يتحرك واحد منهم . وكان سليم أغا أعقل الأتراك لم يتحرك من مكانه حتى تلك اللحظة ، وظل يدخن نارجيلته دون أن يتكلم .. ولكنه الآن نهض واقفا ، كان شيخا وهبه الله الثراء والعلم والأسرة الطيبة .. والأولاد .. وسيما نفس وسامته فى شبابه .. اشار إلى الأغوات وقال فى لهجة واثقة :

ـ لا تفقدوا سيطرتكم على أنفسكم ، لن يخدم شيئا أن تستحم كريت بالدماء ، سوف تأتى الساعة حتما ـ إننى اراها رأى العين ـ حين تدفع اليونان الثمن .. وأستطيع مقدما أن أرى رأسه معلقة بالمسامير أعلى باب الباشا .. صبرا .. وهيا بنا الآن ..

ثم اتجه نحو الخارج فى خيلاء .. يتبعه الأغوات .. وأصبح المقهى خاليا ..

وبرم الكابتن ميخايليس شاربه وهو ينظر إلى نورى بك ، وضحك وبرزت أصابعه المخلبية .. ودق قلبه فرحا ، واستدار نحو صاحب المقهى الذى كان قد بدأ يطل من خلف المائدة .. وقال :

ـ حسين .. ضع الاناء على النار .. واصنع لى قهوة .. بلا سكر !

الفصل الخامس

كانت العاصفة قد انتهت ، وأسقطت السماء حملها ، وبدت « ميجالوكاسترو » كأنما قد ارتفعت فأصبحت جزءا من السماء ، وغمرت مياه الأمطار الشوارع وأظلمت الدنيا إلا من خيوط البرق هنا وهناك ، تبدو حول المآذن ، وفى الشارع العريض كان يلمع وجه الكابتن ميخايليس فيبدو عبوسا جريئا وهو يمضى إلى بيته والفرس من تحته يلمع صدرها الذى بلله العرق والماء .

وكانت « نوة » من ذلك النوع الذى لايدوم أكثر من نصف الساعة ، ثم تلتها ريح قادمة من الجبال تحمل سحائب متفرقة تبدد من خلالها زرقة السماء الداكنة ، وأشعة الشمس فى مولدها الجديد تتحدد فوق المدينة التى بللتها الامطار ، وبدت كأنها تضحك ، وأخذت فوق الأسطح تضرب أجنحتها المبللة بينما المدينة تخرج من العاصفة نشيطة شابة من جديد ، وأريج أزهار العسل والحبق يغمر الجو .

وفتح « الكابتن ميخايليس » الباب بضربة واحدة ، وساقت زوجته الفرس إلى خطوته دون أن تتكلم بينما اندفع هو إلى الحجرة وعلق الخنجر التركى فوق مذبح وأمام أيقونة « القديس ميخائيل » .

كان الكابتن ميخايليس يغلى بالخجل والعرق والمطر .. وأحضرت له ملابس جافة أرتداها فأحس بالانتعاش وتمدد فوق فراشه وقد أغمض عينيه ، وسرعان ما عانقه نوم هادىء شفوق .

وبينما كان هو يستريح ، كان أبناء « ميجالوكاسترو » يتجمعون ، أتراكا وكريتيين ، مبكرين فى بيوتهم ذلك المساء ، كان الرجال يتهامسون ، وكانت النساء يجلسن وهن يستمعن ويتنهدن ولا يقلن شيئا ، ترى ، أقدر لكريت ـ التى تخلى الجميع عنها ـ ألا تستريح ؟ ! أتعود المذابح من

جديد ، ونعود نحن فنفقد رجالنا ؟ ! .. كذلك كن يفكرن ، وأين نذهب نحن ؟ ! مرة أخرى بأطفالنا وأوانينا وأوعيتنا وثيابنا فوق الظهور ؟ أما الكريتيون الحذرون من أصحاب الحوانيت وحقول الكروم فقد كانوا يلعنون الكابتن ميخايليس وانتهاكاته السكيرة التى تجر معه كثيرا من الرجال إلى المتاعب ، وأما الآخرون ـ المغامرون ـ فكانوا على العكس .. فخورين بهذه الاثارة الجديدة لتركيا ..

وتجمع الأتراك من ناحية أخرى ، بعضهم فى التكايا ، والآخرون فى قصر نورى بك ، كانوا يلعنون ويهددون دون أن يعرفوا كيف يغسلون الاهانة ، وأخذ المؤذن يحرك النار الكامنة فى صدورهم بينما كبار السن الأكثر تعقلا يحاولون أن يخمدوا هذه النار ، أما « نورى بك » فقد جلس فى الركن .. يفكر .. دون أن يقول شيئا ، وأخيرا تعبوا من الضجة ومن ذبح الكريتيين فى مخيلتهم ، فاختاروا من بينهم ثلاثة ليتجهوا فى صباح اليوم التالى إلى « الباشا » ليطلبوا منه أن يشدد وطأته على الكريتيين ، أهو « باشا » أم قطعة من الـ Halva ؟ كم مضى من الزمن منذ أوقف شنق الكريتيين على الشجرة الجرداء أو وضع رءوسهم وأيديهم فى خشبة التشهير ؟ ! إذا استمر على ذلك فسوف يجرؤ هؤلاء الكفار إذن على كل شىء وسوف يجرؤ هذا الكابتن المجنون ـ وليعاقبنا الله إذا كنا نكذب ـ على اقتحام المساجد ذاتها بجواده ليخرج الناس منها بسوطه ، يجب أن يشنق أو يوضع فى خشبة التشهير حتى لو كان ذلك لمجرد تحذير أتباعه ووضعهم على الجادة ، هكذا ينبغى أن تتصرف تركيا ! ولكن هذا الباشا يعالج الأمور مع هؤلاء الكريتيين بأسلوب ناعم ، إن هذا المخلوق الضعيف يتحدث عن العدالة ! إنه يلعب « الدامة » مع المطران ، ويشرب معه المصطكى ويأكل « البقلاوة » ويجلس الاثنان طوال الليل وهما يتهامسان بالأسرار !

وفى صباح اليوم التالى ، اتجه الثلاثة إلى القصر وآذانهم لاتزال يدوى فيها طنين التعليمات التى حملها إياهم الآخرون ، سار المؤذن فى الوسط ، وإلى يمينه « سليم أغا » وإلى يساره ـ غارقا فى أفكاره ـ سار « نورى بك » كانت خطواتهم كأنها محسوبة .. ولم يكن أحدهم يتحدث إلى الآخر ، فقد كان كل منهم يحاول أن ينسج خيوط أفكاره ـ ما الذى سيقوله للباشا .. وكيف ؟ ! ..

كان « سليم أغا » صاحب دخل سنوى كبير من الزيت والقمح واللوز والعنب ، ومن ثم فقد كان إلى جانب السلام ! وكان المؤذن يحتضن القرآن إلى صدره .. وكان نورى بك موزعا لا يستقر على رأى ، كان أبوه قد ظهر له مرة أخرى فى نومه وهو لايزال فى الثياب المهلهلة وقد كسته الأقذار ووضع تحت وسادته خنجره الثمين ذا المقبض الأسود ، ولكنه حين استيقظ فى الصباح لم يجد شيئا ، كان قلبه على وشك أن يتحطم ، إن الرجل العجوز لا يثق بى ، لقد كان يتنهد ، وأخذ الخنجر مرة أخرى ، إنه يخشى ألا اشرف هذا الخنجر .

وجلس الباشا عابسا متوعك المزاج ينتظر الثلاثة فى الديوان الكبير ، متاعب جديدة ! الكلاب والقطط سوف تتقاتل من جديد ! هؤلاء « الكفار » يريدون الحرية ـ عليهم اللعنة ! والآخرون يدفعوننى إلى ذبح كل الكفار ـ عليهم اللعنة هم أيضا ! إن العبودية يا كفار يا محترمون ، أمر قرره الله ! إن عبيدى ـ أغواتى ـ هم أيضا شىء قرره الله ، إنهم يحرثون الأرض ، وينظمون أمور التجارة ، ويجمعون الضرائب ، فمن ذا الذى يريد أن يذبح الدجاج الذى يبيض ذهبا ؟ !

وظهر الخادم المغربى : « لقد وصلوا يا أفندينا الباشا » ..

ورد الباشا بصوت مرتفع : « فليدخلوا .... » .

ودخل الثلاثة واحدا إثر الآخر ، وانحنوا .. ثم أخذوا أماكنهم فى الديوان دون أن يتكلموا .. جالسين القرفصاء ..

وكان المؤذن أول المتكلمين ، فتح فمه الواسع وأخذ يتكلم ويتكلم ، كان ذا وجه رخو ناتئى العظام ، بصدغين غائرين ولحية بيضاء شعثاء كحزمة قش ، وتؤلول بين حاجبيه فى حجم ذباب الخيل يكسوه الشعر ويبدو كأنه

عين ثالثة فى وجهه ، أخذ يتكلم ويتكلم ، وكلما سمع صوته زاده حدة ، ثم أخرج القرآن من صدره وأخذ يدفع به إلى الأمام وإلى الخلف وهو يقرأ ، وأحس الباشا بشىء كالدوار ، فرفع غليونه عن فمه وقال :

ـ يا أفندينا الشيخ ، أنت أصبتنى بالدوار ، تكلم ببساطة حتى أستطيع أن أفهمك ، أنا من الأناضول ، بطىء الفهم ! فى كلمة واحدة ! ماذا تريد ؟ ! .

وقال المؤذن وقد وقف شعر تؤلوله :

ـ أريد عملا ..

وتنهد الباشا واستدار إلى « سليم اغا » ..

ـ وأنت يا « سليم آغا » .. ما رأيك ؟ ! هل ترى ذلك أنت أيضا ؟ !

وأجاب الملك ذو الشعر الرمادى :

ـ نحن نريد السلام يا أفندينا الباشا ولانريد مذبحة ! إن عامنا هذا عام طيب ، شهر مارس قد جاء بمزيد من الأمطار ، منحت المحاصيل قوة ، الزيتون أيضا يبشر بخير وسوف يكون لنا محصول طيب وزيت وفير هذا العام والحمد لله على ذلك كله ، السلام مطلوب إذن يا أفندينا الباشا ! « كريت » هذه ، وحش ضار ، فلنحرص على الا نوقظه من جديد ـ إنها وحش يفترس الرجال ! وماذا إذا كان مجنون قد اقتحم مقهانا ؟ ! ثم إنه كان ثملا ، فلنغلق عيوننا ـ فإن من مصلحتنا أن نفعل ذلك . نحن إن بادلنا ضربة بضربة مثل الخنازير ، فسوف نضيع ، إن تناطح الخنازير ينقلب فى النهاية إلى مأساة يا أفندينا الباشا ، افتح سجلاتك وضع فيها اسم هذا الكافر ! إن اسمه « الكابتن ميخاليليس » وسوف تجىء حتما ساعته ، أنت الباشا ، وأنت الذى تقطع الرءوس ..

ثم استدار إلى المؤذن وهو يقول :

ـ ذلك هو رأيى يا أفندينا الشيخ ، ومعذرة إذا قلت لك : أنت لاتملك أشجارا ، ولا كروما ولا حقولا ، وإنك لاتعرف أحزان الأرض والرجال والنساء ، ولكن سلنى أنا .. سل الأشجار والزرع ، أتراها تريد مذبحة ؟ ! كلا .. إنها لاتريد إلا السلام ..

وصاح المؤذن وهو يشير إلى القرآن ..

ـ أنا لا أسأل الأشجار والزرع ولا أسأل الناس ، ولكننى أسأل الله سبحانه !

ثم عاد فأخرج القرآن وفتحه ، ولكن الباشا رد يده وهو يقول :

ـ تستطيع ـ مادمت تقصد ـ أن ترى لكل سؤال جواب فى القرآن ..

تريد مذبحة ؟ ! افتح المصحف وستجد ـ مادمت تقصد ـ تبريرا لها ، وإذا فتحه سليم اغا فسوف يجد كلمات أخرى عن السلام .. وكلا الأمرين من عند الله .. كلاهما من عند الله .. فاهدأ إذن ..

ثم استدار إلى نورى بك :

ـ وانت يا نورى بك .. ماذا ترى ؟ ! مذبحة أم سلاما ؟ ! ..

وحك نورى بك ساقيه عدة مرات بقبضة يده ، وهو يفكر فى إجابة سديدة ، وكان قد استغرق وقتا طويلا لكى يصل إلى رأى ، لم يكن بالقطع يريد السلام ، فقد صبرت تركيا طويلا ، وازداد اليونانى وقاحة ، وقد جاءت اللحظة التى ينبغى أن تفصل فيها رأسه عن جسده ، ولكنه هو أيضا لا يريد مذبحة ـ فلم يكن شرهاً للدماء ، ولم يكن شيخا يقرأ القرآن ويعتسف فيه النار ..

وضايق انتظاره الباشا :

ـ حسن ؟ ! ، إننى أسألك مرة أخرى ، اتريد السلام أم تريد مذبحة يا نورى بك ؟ !

وقال نورى بك وهو يحاول أن يكسب مزيدا من الوقت :

ـ لقد ضاع منا الطريق المباشر والسهل يا افندينا الباشا ..

ـ إنه لم يضع يا رجل ، ولكننا نحن الذين أصابنا العمى فلم نعد نراه ، أم ترى وجدته أنت ؟

ـ أعتقد ذلك يا افندينا الباشا .

ـ أرجو ذلك ! تكلم إذن واطلقنا من إسار هذا العمى .

ـ لا سلام .. ولا مذبحة .. المذنب يدفع وحده الثمن ..

ـ الكابتن ميخايليس ؟ ! .. هل تقصده ؟ !

ـ امنحنى الحرية يا أفندينا الباشا فى الا أذكر من يكون هذا الذى اقصده . انت الباشا ، وان أنت تدخلت فسوف تتكلم الأسلحة وسوف نسبح فى الدماء ، دعنى أنا آخذ بالثأر نيابة عن تركيا ! وقريبا .. سوف

تعرف من يكون المذنب .

- هل سنقتله ؟ !

- سوف أقتله .. نعم ، ولكن ، لن يعرف أحد من يكون القاتل ، ثق بى .

وقفز المؤذن فى غضب وهياج وصاح :

- ليس المذنب رجلا واحدا ! .. إنهم ألوف ، وكلهم يستحقون المشهرة ، هذا فقط هو الذى يعينه الحفاظ على السلام ! إن اليونانى لا يفهم غير ذلك اقطع رأسه إذا أردت ، وبعدها - وبعدها فقط - سوف يهدأ ! ..

ولكن عقل « سليم أغا » كان مليئا بالاشجار والكروم ! .. فقفز هو الآخر وبدأ يصيح .. وأصبح صوت المؤذن كالجرس - فكيف يوقفه ؟ وتحول الموقف بينهما إلى ضربات يتبادلانها ، وحال « نورى بك » بين الاثنين بينما ظل الباشا جالسا فوق الديوان لا يتحرك .. إن هؤلاء الأتراك الكريتيين يديرون رأسه ، كلهم على حق .. وكلهم على باطل ! وأنى له إذن أن يدرك الحقيقة ؟ ! .. ثم إنه - وهذا هو الأهم - يحس بحاجة شديدة إلى النوم ، فلم تكن ليلته طيبة - لقد أكل وشرب أكثر مما ينبغى أن يأكل ويشرب ، وأصبح من الضرورى الآن أن ينتهى من هذه الحكاية ، ومن ثم فقد نفض عن نفسه التعب وصاح :

- أنتم ؟ ! ! ألا تخجلون من أنفسكم ؟ كفوا عن الشجار ، قلت لكم كفوا ! نورى بك .. أنت على حق ، تلك طريقة الجمل ، الطريقة المثلى ، افعل إذن ما يلهمك به الله سبحانه ، إننى أمنحك الحرية فى أن تفعل ذلك ..

والتقط « سليم أغا » عصابة رأسه البيضاء من فوق الأرض ثم استدار نحو نورى بك قائلا فى ضراعة :

- إننى أباركك فيما أنت مقدم عليه إن أنت تصرفت بحذر ، وقتلت بحكمة ، لاتثر علينا وحشية اليونانيين واحفظ السلام من أجلنا .

وصاح المؤذن :

- لن أدع قانونى يوطأ بالأقدام ، سوف أخطب فى المسجد وأوقظ تركيا !

ولكن كلماته أعادت الحياة إلى الباشا الذى رفع قبضته وصاح :

- يا شيخ ! أنا هنا مسئول عن « ميجالوكاسترو » وحق النبى الأشرف لألبسنك كمامة مثل الكلب المسعور ! اسمع ! لن تكون هناك مذبحة - فاطرح هذه الفكرة عن رأسك - طالما اننى لم أتلق أوامر من القسطنطينية .

ثم وقف وأدار رأسه جانبا (لأنه أحس بتعب فى معدته) وعاد يصيح :

- اذهبوا ، فأنا مشغول ، أفعل ما اتفقنا عليه يا نورى بك ، ولكن كن حريصا ، الحرص يا أولادى ، لأن هؤلاء يونانيون .. اللعنة عليهم ! ولولا وجودهم فى طريقنا لكانت تركيا قد ابتلعت العالم كله .

ثم صفق بيديه فبرز الخادم المغربى .

- أوصل البكوات إلى الخارج .

وبينما كان يجرى هذا اللقاء ، كان هناك ثلاثة آخرون بارزون - يونانيون هذه المرة - يحثون الخطى فى طريقهم إلى المطران : هادجيسيفاس ، والكابتن الياس ، والعجوز ما فرودس الشهير باسم « البقة الوردية » .

كان الأول أعرج شاحب اللون متأنقا ذا لحية رمادية علتها صفرة دخان التبغ ، سافر فى شبابه إلى فرنسا ليصبح طبيبا ثم عاد وقد دارت رأسه ، وأصبح مجنونا بالتنقيب عن الآثار حيث ينقد العمال ليحفروا الأرض من أجله فى الأماكن التى توجد بها الأطلال أو فى أماكن مهجورة من الساحل ، وحتى فى كهوف « بسيلوريتيس » . ولقد ظل يحفر ويحفر ، وعثر على أياد وأقدام من الرخام وأطباق غطتها كتابات غريبة ، وأوان فخارية .. كان ينقلها جميعها إلى مقر الأسقف حتى ملأ بها حجرة ضخمة ، ولكن الحجرة لم تعد تتسع لهذه الكنوز ! ومن ثم فقد بدأت تخرج إلى ساحة الكنيسة وهدد المسيحيون بأنهم لن يرسلوا زوجاتهم أو بناتهم إلى الكنيسة حتى لا يشاهدون هذه التماثيل القديمة المخجلة .. العارية تماما ! .... لقد كانت نصيحة طيبة تلك التى تلقاها .. « هادجيسيفاس » الكبير بألا يرسل ابنه إلى فرنسا حتى لا تتلف روحهُ هناك ، وها قد ثبت بالفعل أنها كانت

نصيحة فى محلها ! فقد عاد الابن بمعول معه أخذ يحفر به ويحفر ويحفر . ولقد قيل أنه كان يبحث عن الخنزيرة الذهبية ذات الثمانية أولاد ، ولكن كيف له أن يجدها وقد انفق كل ما يملكه أجورا للعمال ؟ ها هو ذا يجرى الآن فى ردائه الشاحب وبحذائه البالى ، يحدث نفسه فى الطريق ، وعن قريب ولاشك ، سوف يقذف الناس بالحجارة . والوحيد الذى كان يحترمه - وتأمل ! - هو المطران الذى أعطاه مكانا بالقرب من مكانه هو بالكنيسة ، والذى يقدم له خبز التضحية قبل أن يقدمه لأى شخص آخر . وهكذا ، فإن المسيحيين فى الجزيرة كانوا يختارونه متحدثا باسمهم لدى المطران والباشا .. وعندما حدث مرة وألقت بعض السفن الأفرنجية مراسيها فى الميناء ، كوجه هو إليها وظل يثرثر مع الفرنجة طويلا دون أن يفهم الكريتيون كلمة واحدة مما قال ، هذا المسكين ! - أم أنه كان حقا يتكلم بلغات أجنبية ؟ !

أما الثانى فهو الكابتن « إلياس » الذى كان من تذكارات عام ١٨٢١ ! .. إنسان متغض الوجه .. طويل كبرج بلا نافذة أو باب ، ذو جسد جعلته طلقات الرصاص مثل الغربال ، عريض المنكبين ناتىء العظام صوته مثل قصف الرعد - إذا قال لأحد « طاب يومك » فكأنه يلقى إليه بصاعقة ! وكانت عينه اليسرى قد انتزعت من محجرها بشوكة على يد أحد الباشوات الأتراك ، ولكن اللجنة الوطنية الأثينية بعثت إليه بعين زجاجية - أول عين زجاجية تراها كريت ، وكان الكابتن يستخدمها بديلا عن عينه المفقودة ، فيتطاير منها الشرر إلى هؤلاء الذين لا يملك لهم ضرا ، وكان يخلعها فى المناسبات الرسمية ويبقيها داخل كوبة من الماء ويمثل بحضرة المطران أو الباشا بعين واحدة ليذكرهما بعام ١٨٢١ ، وكان الاثنان الآخران قد جعلا مكانه بينهما .. وسار معهما منحنيا فوق عصاه فى طريقه مرة أخرى إلى المطران بعين واحدة ..

وأما الثالث - « مافروديس » العجوز .. البقة الوردية - فقد كان أعزب مشاكسا كريها وبائسا ، جائعا طوال الوقت .. فإذا تناول طعاما ظل يئن ويرتعش من البرد ويلعن ويسب إذا ارتدى معطفا يدفئه ، وكم من أرامل ويتامى ألقى بهم فى قارعة الطريق عندما كانوا مدينين له ببعض النقود ، كان يجمع المال ويجمع : الذهب والجنيهات ومزارع الكروم والحقول

والبيوت والسفن البخارية ، وحين يسأله أحدهم ، لماذا لايتناول وجبات منتظمة ، كان يقول :

ـ « وماذا أكل ؟ وأين أكل ! لا شيء من هذا كله لي ، كل شيء ملك الأمة ، وليس من حقي أن أقسى شيئا منه » .

وعندما اندلعت ثورة ١٨٧١ ، توجه إلى المطران ومعه وثيقة مختومة وقال « سيدي الأسقف ، خذ هذه الورقة ، أنني أهب كل ثروتي لمجلس شيوخ ميجالوكاسترو ، إن الثورة تحتاج إلى أموال ، فبع إذن كل ما أملكه وحوله إلى أسلحة » .. وسأله المطران والدموع في عينيه : « وأنت يا مافروديس ؟ كيف ستعيش » .. « ولماذا تقلق علي يا سيدي الأسقف ! ! سوف أطرق الأبواب وأتسول » .. واهتم به المطران بعدها وجعل له مخصصات شهرية ، ولكنه مالبث أن بدأ يعود كعادته إلى الحرص ، فكان لا يأكل ولا يشرب ولا يرتدي ثيابا لائقة .. وبدأ يقرض الناس بالربا الفاحش وينمي رأسماله من الأرامل واليتامى حتى كون ثروة جديدة ، وها قد أصبح عجوزا .. إحدى قدميه في القبر ! .. وقد كتب وصية جعل فيها أمواله مرة أخرى للأمة ، ولكن عقله كان مثل الفأس في حدته ، فإذا أدلهمت الأمور أخذ ينبش يمينا ويسارا حتى يجد المخرج ، ومن أجل هذا بعث به المسيحيون لكي يكون متحدثا باسمهم .

كان المطران ينتظر الثلاثة جالسا فوق ديوان مريح في مقر الأسقفية وأمامه انجيل مفضض فوق قاعدة من خشب السرو على هيئة ملاك بأسطر جناحيه ، وفوقه علقت ثلاث صور : إلى اليمين صورة بطريرك القسطنطينية ، وإلى اليسار صورة القيصر ، .. وفي الوسط صورة مسجد أيا صوفيا ، وكانت الشمس تتسلل خلال ألواح النوافذ الزجاجية الملونة وتلقي بأضواء زرقاء وبنفسجية على الحائط المكتظ بصور المطارنة والأساقفة الموتى والأحياء بلحاهم البيضاء كالثلج أو السوداء كالقار ، وبقلنسواتهم وتمائمهم وعصيهم التي يتوكأون عليها ، وكان البعض منهم يبدو بشوشا ذا عينين سمحتين ، كثيف الشعر مثل كبش لم يجز صوفه ، بينما كان البعض الأخر يبدو بشعا بعينين جاحظين وفم واسع ورقبة غليظة يمسك بعصا .. كما لو كانت عصا شرطي ! وكان من بينهم أيضا المطران الحالي أيام كان أرشيماندريتا في « كييف » .. كم كانت نظراته أيامها

تعكس القوة والنبل ! هذا البطل الصغير .. يبدو فى الصورة وكان الله سبحانه قد خلقه لكى يصبح قائدا عظيما أو نبيا ، أو لكى يصبح رجل دين مرعبا فى إقباله على الحياة ! ولكن المسيح قد اختاره لنفسه بكلمات كانت بالنسبة إليه أكثر عذوبة من العسل المصفى .. وقاد خطاه على مهل لكى يصبح ما وصل إليه ـ مطرانا .

والقى بنظرة إلى صورته وهو شاب .. ثم تنهد وقال :

ـ لقد تقدمت بى السن ، وعلتنى الصفرة مثل الكرنبة ، واقترب اليوم الذى سوف أقف فيه أمام مقعد الحق ويداى فارغتان . كم من مطارنة لكريت سوف يقفون أمام القاضى الأبدى الأزلى يحملون فى أيديهم عدة الشهادة ـ المدى والفئوس والسياط والخوازيق ، وأنا وحدى الذى سيقف خالى اليدين .. يا إلهى .. امنحنى شرف أن أموت من أجل شرفك ، ومن أجل شرف ابنتك المسكينة !

ودخل « مورزوفلوس » بوجه شاحب :

ـ لقد وصل الكبار ياسيدى ، وهم ينتظرون .

ـ فليدخلوا ! . وخذ أنت الصينية الفضية الكبيرة وأدرها عليهم ، أنهم سادة .. كما تعرف ..

وتردد « مورزوفلوس » لحظة على عتبة الباب ، ونظر إليه المطران فى دهشة :

ـ هل هناك شىء آخر يا مورزوفلوس ؟

وقال مورزوفلوس ووجهه يعكس القلق :

ـ سامحنى ياسيدى .. سامحنى على مافعلت يا سيدى .

وابتسم المطران وقال :

ـ هون عليك يا مورزوفلوس ، سوف يسامحك المسيح ، فاعتمد على رحمته !

ـ إن ذنبى كبير ..

ـ ولكن رحمته أيضا واسعة .. اذهب الآن !

ودخل الثلاثة الكبار ، وقبلوا يد المطران .. وجلسوا فوق الديوان ، وأخرج كل واحد منهم مسبحته وانتظروا حتى يكون المطران هو البادىء بالكلام .

وتكلم المطران ، وهو ينظر عبر النافذة :

ـ الطقس رائع يا أولادى ، يا لها من أيام طيبة ! يا لروعة الشمس ! إنها تحية خاصة من الله ! الربيع ! القديس جورج ! كيف حال المحاصيل الآن يا مورزوفلوس ؟ .

ـ الحمد لله ..

وقال الكابتن الياس :

ـ حال المحاصيل طيب يا سيدى ، ولكن حال الرجال سيء ، أنا مع العمل البطولى حين تكون هناك حاجة إليه ، فإذا لم تكن هناك حاجة إليه .. فهو حماقة !

وقال هادچيسافاس :

ـ كبار السن يقولون ...

ولكن الكابتن الياس رفع يده فى غضب وقاطعه قائلا :

ـ دع كبار السن فى حالهم يا هادچيسافاس ، لقد ماتوا وانتهى أمرهم ، نحن نتحدث عن الأحياء ، فى هذه اللحظة يعقد الأغوات الكبار مؤتمرا مع الباشا ، والله وحده يعلم ما انتهى إليه ، الكلاب حتى الآن ، فلنكن إذن على حذر .. ما رأيك أنت يا سيدى المطران ؟ ! ..

وقال المطران :

ـ أنا أيضا سمعت بانتهاكات الكابتن ميخاليس الجديدة ، ولكم أنا آسف على هذا الفاس .. آسف من أجل هذا الرجل ، لسوف تحطمه الخمر ..

ـ ولسوف يحطمنا هو ! ينبغى أن نكبح جماحه وإلا ..

وقال هاچيسافاس :

ـ لا تثوروا بحق الله ! إن أمامنا الكثير لكي نفعله في كريت . إن الأرض مباركة وتخفي من الكنوز أعظمها ـ تماثيل ، صور ، قصور ملكية ، .. فكيف بالله يستطيع أحد أن يواصل اكتشافاته وسط ثورة ؟ .. ينبغي علينا إذن أن ....

وقال الكابتن إلياس مقاطعا :

ـ قلت لك دع أناس الماضي في حالهم ، فلتتخطفهم الشياطين ! .. دعهم يتركوننا في سلام ! تكلم يا مافروديس . إن عقلي المسكين لا يستطيع أن يصل إلى حل .. أما أنت بعقلك مثل الفأس .. قاطع حاد ، فاقطع لنا إذن حلا ... !

وأسعدت هذه الكلمات البقة الوردية ! .... فضحك وقال :

ـ إذا سمح لي سيدي المطران ..

وقال المطران :

ـ ما الذي يضحكك بحق السماء ؟ إن عقلك مثل عقل المرأة ، إن مصلحة مملكة المسيح تعمل الآن عملها ..

وأجاب مافروديس العجوز :

هللويا .. مزمور قصير يا سيدي المطران ! انهض الآن يا سيدي واذهب إلى الباشا ، إنه رجل طيب ، وأناضولي على خلق ولا يحب المتاعب ، قل له كل ما يمن الله به على لسانك كذبا كان أو صدقا ، كن معه ناعما ... اطلب منه أن يسامحنا لأن الكابتن ميخاليس كان ثملا ، وأننا نحن سنجبره على أن يلزم النظام وأنه لن يعود إلى مثل ما فعل . واحمل له معك شيئا من الهدايا أيضا ، صندوقا للطباق مثلا .. أو قطعة كبيرة من العنبر من أجل غليونه الطويل ، إن الأسقفية لديها من مثل هذه الأشياء الكثير يصلح لهذه الأوقات الصعبة ! اعطه شيئا .. إنه مثل الكلب ، الق إليه بعظمة ليعض فيها ما شاء له العض ! وسوف يكف معها عن النباح .. أما محاربنا الشهير هنا .. فسوف يكون له حديث مع الكابتن ميخاليس ، وعسى الله أن يكون معه وهو يؤدي هذه المهمة !

وصاح الكابتن « الياس » وهو يهز رأسه :

ـ على باب الأصم .. تستطيع أن تدق ما شاء لك الدق ، فإنه لن يسمعك ، إنه مثل الحائط ، ولكننى سوف أحادثه على أية حال ، أنا رجل عجوز حاربت عام ١٨٢١ ، وربما ينصت إلى ما سوف أقوله له .. وبصرف النظر عن ذلك يا سيدى المطران ، فأنا أظن أن مستشارنا المحترم يصدر فى رأيه عن عين العقل ، خذ عصاك واذهب إلى الباشا .. وبسرعة ! .. بسرعة قبل أن تنزل الضربات !

وجاءت الصينية الفضية المستديرة ، القهوة ، والكعك والمربى ، وصمت الكبار ... وتناهت عبر النافذة رائحة أشجار الليمون المزهرة ، وطارت نحلة وحومت فوق الرءوس الأربعة .. ثم اختفت حين أدركت أنهم ليسوا أشجارا مزهرة ، وبدأ الثلاثة الكبار يشربون قهوتهم فى جرعات كبيرة وهم يمصمصون شفاههم ، لقد أنهوا مهمتهم بسرعة ، ووصلوا إلى قرارهم بسهولة ويسر .. وها قد جاءت القشدة فى موعدها المعتاد تماما ! وسأل « هادچيسافاس » المطران أن يسمح له بأن يلف لنفسه سيجارة .. وفعل الاثنان الآخران مثله ، وما لبثوا أن بدأوا يدخنون وعيونها نصف مغلقة .. وبدأت سحائب الدخان ترتفع .. وتحجب صور البطريرك والقيصر وأبا صوفيا ..

ومد المطران يده وفتح أحد الأدراج ثم قال :

ـ يا أولادى .. سوف أطلعكم على صورة هامة ، لاتذهبوا بعيدا ، فأنتم تعرفون صديقنا مورزوفلوس ، إنها من صنعه ، إنه شديد الخوف ، ولكنه جامح الخيال أيضا ، إنه يرى أشياء لا نستطيع نحن أن نراها ـ ليس لأنها غير موجودة .. ولكن لأن الله سبحانه أسدل على عيوننا أستارا كما نفعل نحن بالخيول حتى لا تنحرف يمينا أو يسارا وحتى تبقى مثبتة فى وجهتها إلى الأمام فحسب ، ولكن الله سبحانه ـ وهو وحده يعلم السبب ـ قد رفع الحجاب عن أمثاله من أصحاب الرؤى ..

ثم أخرج من الدرج صورة ملفوفة فى قطعة من الكتان الأبيض ، ومد بها يده إلى المتحدثين الثلاثة .

وتناولها الكابتن « الياس » وأسندها فوق ركبتيه وحدق فيها بعينه الواحدة .. ثم قال :

- إنها صورة الصلب .. الصلب ، ولكنى لا أستطيع أن أميزها جيدا
وانحنى « مافروديس » لينظر .. ثم صاح :

- سامحنى الله .. إن عينى ترتعشان .. ولكن ... ؟

وصاح « هادچيسافاس » وقد أخرج من جيبه عدسة مكبرة :

- شيء مدهش ! .. إنها فكرة رائعة ! بارك الله فى يديك يا مورزوفلوس ! ، إنه الصلب ، واقسم بشرفى ، لو أننى كنت أسقفا لعلقتها فى مذبح ا لكنيسة .

وضحك المطران بمرارة وهز رأسه الطيب الذى يشبه رأس أسد .

وقال « مافروديس » العجوز :

- يا إلهى .: ولكن الذى فوق الصليب ليس هو السيد المسيح ! .. لقد أخطأت ، إنها امرأة تحمل أحزمة من الرصاص وغدارات فضية وقال المطران بصوت هزته المشاعر :

- إنها كريت .. كريت يا أولادى . وهذا الصليب يرتفع فوق كومة من الجماجم والعظام ، السماء ملبدة بالغيوم السوداء .. وثمة برق تكشف أشعته الدير فى خلفية الصورة إلى اليمين ، انظروا إلى برج الدير .. وانظروا إلى طواحين الهواء أمامه وإلى القباب والحوائط ذات الأبراج حولها ، إنها « اركادى » ، وها هى ذى « كريت » مصلوبة على صورة أم معذبة ترتدى السواد وينساب دمها إلى أسفل فوق بقايا عظام أبنائها ، وإلى الأسفل من الصليب - وعن يمين ويسار - يقف اثنان من الفرسان ، واحد منهم ذو شعر أشيب رمادى ، والآخر فى شرخ الرجولة يضع فوق رأسه طربوشا عريضا ..

وقال « مافروديس » العجوز :

- هناك كلمات تخرج من فمها .. إنها تقول ...

وتساءل الكابتن الياس وهو ينحنى أكثر إلى الأمام ليقرأ :

- ماذا تقول الكلمات ؟ !

وحرك « هادچيسافاس » عدسته المكبرة فى بطء وقرأ : « إلى .. إلى .. لما شبقتنى ...... » .

وقال المطران مترجما ...

ـ يعنى ... إلهى .. إلهى .. لم تركتنى ..

وظل الأربعة صامتين وهم يحدقون فى صورة الصلب الجديد وأخيرا صاح « مافروديس » وقد فغر فمه :

ـ أليست هذه خطيئة يا سيدى ؟ ! .. كريت كأنها المسيح ؟ !

وقال المطران وهو يتنهد :

ـ إنهما واحد .. إنهما واحد .. ولكن ...

ـ ولكن ماذا ؟ !

ـ ولكنها تستحق ذلك ..

قالها المطران وهو يحدق فى المرأة المصلوبة .. كريت ..

وكم كان « مورزوفلوس » رائعا حين رسمها : المعاناة التى ترتسم على وجهها ! خداها المثلومتان ! عيناها السوداوان المعذبتان ! .. شفتاها الدقيقتان الملتويتان تكادان أن تسمع الانات منهما قدماها العاريتان اللتان تناثرت بقع الدم فوقهما .. وفى أسفل الصورة يبدو حذاؤها فى لون القشدة ! ...

وفجأة ، طوح الكابتن « الياس » بطربوشه جانبا فى حركة عنيفة ـ وكأنما قد وصل إلى قرار بالغ الأهمية ـ ثم رفع الصورة وقربها من شفتيه .. وظل هكذا لحظات طويلة وكأنهما لا يستطيعان الفكاك ! بينما كان صدره العريض يعلو ويهبط فى عنف ، ولم يستطع « مافروديس » العجوز أن يحتمل أكثر من ذلك .. فقد اختطف الصورة ودموعه تنحدر من عينيه وانحنى فوقها يقبلها وهو ينتحب ،بينما كان « هادچيساڤاس » يجفف الدموع من عينيه هو الآخر ، ويقف ناظرا عبر النافذة إلى أشجار الليمون المزهرة .

وأخذ المطران الصورة .. ورسم علامة الصليب وقال وهو يقبل القدمين

العاريتين الداميتين .. قدمى كريت :

- إننا نقدس عذابك هذا..

ثم استسلم الأربعة لأحزانهم ...

وكان المطران أول من تمالك نفسه ، فلف الصورة بقطعة القماش ووضعها فى مكانها داخل الدرج ثم استجمع قواه ونهض واقفا ، وقال :

- انصرفوا محفوفين بالبركة .. والله يبسط فوقكم يد العناية ..

وقال الكابتن الياس :

- ينبغى علينا نحن أولا أن نبسط هذه اليد يا سيدى ، إذا لم يجد الله سبحانه يدا بشرية تمتد ، فلن يمد هو يده لأحد .. تذكر ذلك !

- صدقت .. صدقت يا كابتن الياس ! سوف أذهب الآن لأقابل الباشا على الفور . وأسأل الله أن أجده معتدل المزاج !

وانحنى الثلاثة يقبلون يد الباشا السمينة البيضاء ، وأخذ الكابتن « الياس » عصاه واتجه نحو الباب وخلفه زميلاه ، وسار الثلاثة عبر فناء الكنيسة .. وهز الكابتن رأسه وهو يرى أرض الفناء مكدسة بالأيدى والأرجل والرءوس من بقايا التماثيل المصنوعة من الرخام ، وبالأطباق التى رسمت عليها صور ساذجة وغمغم فى غضب :

- الرجال القدامى .. الرجال القدامى !

وانحنى « هادجيسافاس » وبدأ يقرأ فوق الصخور ، فصاح الكابتن « الياس » فى زميله الأشيب :

- دعهم فى حالهم .. إنهم السبعة والسبعون حماقة ! سوف أمضى الآن إلى الكابتن ميخايليس ، أما أنتم فلكم أصدقاؤكم الأتراك .. و« سليم أغا » بالذات .. تحدثوا معه الآن وعلى الفور .. وأسأله الله أن يجنبنا ثورة أخرى قبل أن يحين موعدها المناسب . إن كريت قد خسرت كثيرا ، وهذا يكفيها الآن !

وعلى باب المطران وقف « باربايانيس » ينتظرهم وقد وضع على الأرض سلته المليئة بالثلج الملفوف بالقش والصفيحة الملأى بالشراب وهو يصيح

بين الفينة والفينة وكلما مر به أحد :

ـ « بارد كالثلج .. بارد كالثلج اشتر شراب الجنة ! » .

كان رجلا عجوزا بائسا ذا رأس أصلع وعينين مستديرتين رماديتين صغيرتين براقتين ، وعنق طويل ملأتها التجاعيد والكهوف ، وصوت حاد يخرق آذان الناس . وكان الأتراك والمسيحيون يرونه مجنونا لأنه لم يكن يخشى هؤلاء أو أولئك ، ويقول ما يعتقده بصراحة ، يلعن ويكفر مرة في حق المسيح وأخرى في حق محمد وثالثة في حق السلطان ، وقد حدث مرة في أحد أعياد الفصح قبل بضع سنين أن وقف أمام مصطفى باشا ذلك الرجل الدموى يعد له شرابا مثلجا لينعشه ، وفى تلك اللحظة بدأت روحه تصاب بما تصاب به فجأة من اختلاط ! فأخذ يندب قتلى الكريتيين فى « أركادى » ويقفز فى الهواء كأنما تلسعه النيران ولحظتها كان الباشا والأفندية الجالسون معه فى الكشك القريب من الأقباء الثلاثة يدخنون غلايينهم الطويلة .. كانوا جميعا يستمتعون بتلك التسلية ! أما الذين سمعوا ذلك العويل فقد أسرعوا بالهرب .. كريتيين وأتراكا .. وذلك ضايقه ! فانحنى والتقط غصنا أخضر أخذ يلوح به فى الهواء فى جنون وكأنه يمسك بسيف فى يده ، كان يريد أن يثير الباشا ويخرج عينيه من محجريهما ، وأن يتوعده .. وفجأة بدأ يغنى بصوت حاد : « إيه يا سيفى اللامع المطيع .. لسوف تذبح كل الأتراك ... » .

وأصاب الذهول الكريتيين والأتراك معا ، ولم يعرفوا لحظتها ماذا يفعلون ، وظلوا يحدقون فى الباشا وكأنهم يستلهمونه مايمكن أن يفعلوه ، ولكن الباشا ـ لدهشتهم ـ صفق بيديه وقد انفجر ضاحكا ، يالها من تسلية ـ هذا الحطام الآدمى الذى يتوعد الأتراك بغصن أخضر !

صاح الباشا :

ـ براڤو كابتن باربايانيس ، تعال هنا ...

وانفجر الأفندية ضاحكين هم أيضا .. وبدأ الناس يشاركون بدورهم فى الضحك ، بينما تابع « باربايانيس » رقصه وغناءه وصياحه ..

وصاح الباشا :

ـ هذا يكفى .. أنت الآن فعلت بنا كل شىء ، وها هى ذى تركيا ملقاة

فوق الأرض ! تعال هنا .. قلت لك تعال هنا أيها الفارس الأحمق .. أنا أحبك ، وسوف أهديك سيفا حقيقيا وأضع فوق صدرك وساما .. فاصغ إلى الآن جيدا ، سوف أمنحك الحرية كل عيد فصح فى أن تتمنطق بسيفك وتضع الوسام فوق صدرك وفى أن تخطر فى شوارع ميجالوكاسترو مثل الباشا من أول « كانيا » وحتى بوابة المستشفى .. ومن الجديدة حتى بوابة الميناء ، ولك الحرية كل يوم فى أن تقول كل ما يتفتق عنه رأسك الأحمق .. حتى فى أن تلعننى أنا .. فأنت أحمق .. وكلماتك لا قيمة لها .. منذ أعوام يا باربايانيس وأنا لم أضحك مثلما ضحكت اليوم .. ومن أجل هذا فإننى أشكرك ..

ومنذ ذلك اليوم زادت جرأة باربايانيس ، وأصبح الأتراك يتحملونه فى نفس الوقت الذى يجدون فى تصرفاته التسلية ! وهكذا أصبح باربايانيس هو الرجل الوحيد الحر فى ميجالوكاسترو ، وكان هو أول من يشم رائحة المتاعب إذا بدا أنها مقبلة ، وكان هو الذى يصيح بأعلى صوته مع الشراب فى الصيف والساليبى فى الشتاء ، بكل ما يدور فى أذهان الكريتيين ولا يجرأون على الافصاح به ، وعندما كان يتمادى فى ذلك كان يتلقى أحيانا لكمة فوق أذنه ، وربما يقذفه الأتراك بقشور الليمون والطماطم الفاسدة ، ولكن ذلك كله لم يكن يمنع لسانه عن العمل .

ومنذ أمس .. بدأ باربايانيس يشم فى الجو رائحة البارود ، وقد رأى الكبار الثلاثة يتجهون إلى مقر المطران فى الصباح الباكر ، وذلك أمر بدا معه وكأن برغوثا يلعب فى صدره ! ومن ثم فقد حط رحاله هذا الصباح أمام باب مقر المطران .. وانتظر .. لابد أن يعرف ماذا يجرى ! .. لقد اقترب عيد الفصح ، وسوف يتمنطق بسيفه ويصنع فوق صدره الوسام إياه وينفث كل غضبه هناك بالقرب من الأقباء الثلاثة عندما يجلس الباشا والأفندية ليستمعوا إلى الفرقة الموسيقية .. ولحظتها سوف يكون فى مقدوره أن يمنح بعض الرضا والراحة لهؤلاء الكلاب المساكين الذين لا يستطيعون أن ينطقوا بحرف واحد !

وعندما رأى الإثنان الكبار يظهران ، رفع سلة الثلج بيده ووضع الصفيحة تحت إبطه وتقدم نحوهما ، وقال :

ـ طاب يومكما يا كبار ، انتظر لحظة حتى أعد لكما شرابا يغشكما ،

فالجو حار وقال الكابتن « الياس » :

ـ دعنا في حالنا ياباربايانيس ، فنحن لانريد شرابك .

ـ لاتكن وقحا هكذا يا كابتن الياس ، فأنا لا أخاف منك ، أنا أحمق كما تعلم ، ولست أخاف من الباشا أو حتى من السلطان ، فكيف أخافكم أنتم أيها الأعيان والفرسان وأنتم تتبولون فى سراويلكم ؟ ! باربايانيس معه سيفه ، ومعه أيضا خطاب حريته .. وكل الذى يدور فى أذهانكم يستطيع هو أن يقوله بلا خوف .

وقال « البقة الوردية » فى رقة :

ـ ارجو أن تكون بخير يا باربايانيس : إكبح لسانك فالوقت لم يحن بعد ، وسأله باربايانيس برقة مثله :

ـ ومتى سيحين الوقت ؟ ! أريد أن أعرف .

ورفع الكابتن اليسا عصاه .. فجمع باربايانيس بضاعته وابتعد .

وضع المطران التميمة الذهبية حول عنقه ، جانب منها يمثل الصلب مصنوعا بالميناء الملونة ، والجانب الآخر يمثل القيامة ـ ووضع فى جيبه صندوق الطباق الفضى العتيد المصنوع فى أشهر محال « جانينا » حيث مطرانها الذى أهداه أياه .. صديق له ، ثم التقط عصاه واتجه نحو مقر الباشا سائرا على قدميه يتبعه أحد الشمامسة .

وكان الباشا فى ذلك الحين قد استسلم للنعاس ، وتمدد فوق بعض الوسائد اللينة ، وبدأ يحلم : رأى أنه يسير داخل حديقة بيته فى مدينة « بروسا » والأشجار تمد فروعها المثقلة فوقه وقد أزهر بعضها وبدت الأخرى محملة بالثمار ، وخيل إليه وهو يدخن غليونه الطويل ويتجول داخل الحديقة أنه فى الجنة وأن الرسول محمدا سوف يرحب به فى أى لحظة .

ولكنه رأى نفسه فجأة فى جانب آخر حيث شجرة زيتون عارية أحرقتها صاعقة ومالت بها وجردتها من أوراقها وبراعمها ، وقد علقت بغصونها ثلاث ثمرات لفاكهة غريبة ، بنادق ورصاص وخناجر وعصابات للرأس سوداء .. يالها من شجرة زيتون ملعونة تلك التى تحمل السلاح بدل الفاكهة ؟ .. وصاح الباشا فزعا وارتد إلى الخلف ليعود إلى داخل حديقته

المزهرة المثمرة ، ولكنها كانت قد غاضت بعيدا ولم يعد يرى حوله سوى صحراء موحشة ، وصخور تكدست خلفها أحراش من البنادق والفدارات الفضية ..

وصرخ الباشا وهو يصحو من نومه منتفضا :

ـ كريت ! .. كريت !

وفى نفس اللحظة فتح « العربى سليمان » الباب ، وقال :

ـ أفندينا الباشا .. باشا اليونانيين الكبير قد وصل ، وهو الآن يصعد الدرج وقال الباشا وهو يمسح العرق البارد عن جبهته :

ـ لقد رأيت حلما سيئا ..

ـ هل أخبر هذا الوحش الكبير بأن ينصرف ؟ !

وانتبه الباشا وقال :

ـ كلا .. دعه يدخل أيها الغبى ، ائمة الكفر هؤلاء أحسن من يفسر الأحلام .. وسوف يفسر لى حلمى .. دعه يدخل ..

ودخل المطران .. وتبودلت التحية .. والتقى الرجلان ذوا المكانة فى ميجالوكاسترو .. كانا أشبه بملكين أشيبين داخل هذا المجتمع .. ولكل مملكته ! هذا الحى التركى ، وهذا الحى اليونانى وكلاهما يلعن الآخر ، والهلال والصليب مرتبطان .

جلسا جنبا إلى جنب فوق الديوان العريض ، وأشعل الباشا غليونه بينما أخرج المطران مسبحته وبدأ يلعب بحباتها الأبنوسية السوداء وهو يفكر كيف ينبغى أن يبدأ الحديث ، ومن خلال النافذة المفتوحة بدت مبانى الحرس إلى اليسار .. وإلى اليمين ، بدت الشجرة العتيقة الجرداء إلا الأوراق الصغيرة ، وعلى مقربة منها بدت النافورة الفينيسية الشهيرة بأسودها المصنوعة من الرخام ..

وتمطى الباشا وبدأ :

ـ إنه الصيف يا أفندينا المطران ، يا الله ! .. ما أسرع ما تمر الأيام !

أنها عجلة ولا تتوقف عن الدوران ونحن معها ندور ، يجيء الصيف فيقول المرء .. ما أشد حرارته ! .. أننى أختنق ! » ، ولا يكاد المرء ينتهى من هذه الكلمات حتى تهب الزوابع وينهمر المطر ويدفن المرء نفسه فى عباءته ماذا يقول دينك عن هذه الأمور الغريبة يا أفندينا المطران ؟ !

وقبل أن يجيب المطران .. عاد الباشا يسأل :

ـ هل تؤمن بالأحلام يا أفندينا المطران ؟ ! من أين تجيء ؟ ! ومن الذى يبعث بها ! !

وأجاب المطران :

ـ بعضها يبعث به الله .. والبعض الآخر من الأرواح الشريرة .

ـ وكيف يفرق المرء بينها ؟ ! أى منها من الله ؟ ! وأى منها من الأرواح الشريرة ! !

ـ لابد أنك حلمت يا أفندينا الباشا ، إن الحلم لا يزال باديا على جفنيك واستطيع أن أراه .

ـ بلى .. من أجل هذا أسألك .

ـ عسى أن يكون خيرا يا أفندينا الباشا .. دعنى أسمعه منك .

ـ هل تعرف شيئا عن الأحلام ؟ !

ـ أحيانا يلهمنى الله سبحانه .. حسن ؟ !

وتنهد الباشا .. وقص حلمه .. وأضاف بعض الزخارف حول شجرة الزيتون ، فقد ذكر أنه كانت هناك رءوس عدة معلقة على غصونها !

وأحنى المطران رأسه ، فقد كان يفكر فى طريقة يستخدم لها ذلك الحلم ليدعم هدفه ..

وتساءل الباشا قلقا :

ـ أهو من الأرواح الشريرة ؟ !

وأجاب المطران :

ـ بل من الله .. ولكن كيف لى أن افسره يا افندينا الباشا ؟ قد يقلقك هذا التفسير ؟ !

وصاح الباشا فى دهشة :

ـ فأنت لاتعلم إذن أن المسلم الحق لا يهزه شىء ؟ .. إنه يعرف أن كل شىء يحدث فى هذه الدنيا مكتوبا من قبل .. وأن أحدا لا يستطيع أن يدفع هذا المكتوب ، ولو أن الباشا أرسل إلى الآن فرمانا يطلب فيه راسى لما هزنى ذلك أو ضايقنى .. ربما أعولت وانتحبت ، بل إننى كنت سأفعل ذلك بالقطع ، ولكننى لم أكن لأهتز أو أتضايق ، فذلك يكون هو أيضا مكتوبا ومقدرا من قبل ، فهل اعترض على مشيئة الله ؟

تكلم إذن بلا خوف يا أفندينا المطران ، ولكن حذار من الكذب ، قل الحقيقة كلها .

واستجمع المطران نفسه لحظات ثم قال :

ـ الحقيقة التى رايتها فى الحلم هى قلب الرجل الطيب .. إن قلبك هو الحديقة يا افندينا الباشا ، وهى مفتوحة بالليل لتدخلها وتجوس خلالها ، والذى رأيته فى نومك هو الاجابة على طبيعتك : أن تجوس فى طمأنينة وسلام وسط الأشجار المورقة المزهرة فى « بروسا » .. المدينة التى ولدت فيها .. أن قلبك حديقة ، ولكن المكتوب والمقدر هو أن تصبح باشا وأن تتولى هذا المنصب فى كريت ...

وتنهد الباشا وقال :

ـ ماذا أقول لك يا أفندينا المطران ؟ ! هذه هى الحقيقة .. كأنك تقرأ ما بقلبى ، ولكن أكمل ..

ـ عندما تكون قرية المرء أمامه يا أفندينا الباشا ، فإنه لايحتاج إلى دليل يقوده إليها ، أشجار الزيتون المثقلة بالأسلحة ـ تلك التى رأيتها فى الحلم ـ هى كريت .. وأنت ذهبت ووقفت تحت الشجرة العارية المحترقة فأظلم وجهك ، وهنا بدأ مصيرك يضطرب .. وانه لأمر مثير للشفقة حقا انك استيقظت دون أن تعرف ما حدث بعد ذلك ، ولعل الله قد كتب لك بعد أن

يمنحك سبحانه حريتك من الآن لتفعل ما ترغب فيه ، فالمسئولية الآن إذن مسئوليتك أنت ..

وقال الأناضولى الطيب :

ـ نعم .. لعل الأمر ما تقول يا افندينا المطران ، وأقسم بالشمس التى تضيىء فوقنا إنه يمكن للمسيحيين وللأتراك أن يعيشوا كالأخوة .. اليونانيون يعملون والأتراك يأكلون .. والاثنان معا يعيشان عيشة سعيدة ..

وصاح المطران وقد وجد لنفسه نقطة البداية التى كان يريدها :

ـ وذلك أمره فى يديك أنت ! بمقدورك أن تهيىء الحب لهذه الجزيرة ، إن الله جعلك تحلم بهذا الحلم فى الوقت المناسب !

ـ ماذا تعنى بذلك يا افندينا المطران ؟ ! لست أفهم !

ـ انت سمعت ولاشك أن المسيحيين والأتراك فى ميجالوكاسترو قد بدأوا يستجيبون للاثارة لأن فارسا ثملا ـ كما قالوا ـ اقتحم بجواده مقهى تركيا ..

وصاح الباشا وقد برقت عيناه :

ـ وهل يبدو لك ذلك الأمر تافها ؟ ! هذا الكافر قد أهان تركيا !

وقال المطران بلهجة حماسية :

ـ إن تركيا لاتهان بهذه البساطة ، إنها دولة قوية يا افندينا الباشا .. دع جانبا هذا البطل السكير ، فقد كنت تسألنى عن حلمك ، وأعتقد أن الله سبحانه يلهمنى أن افسره لك .. ولكن إذا كان ذلك يضايقك ..

وقاطعه الباشا فى ابتهال وهو يضع يده على ركبتيه :

ـ كلا .. واقسم لك بالنبى ! .. فأكمل بحق ما تؤمن به ..

ـ إن السموات السبع فتحت ، وقد جاءك الرب فى منامك يا افندينا الباشا وأراك الطريق .

ـ أى طريق .

ـ الطريق الذى تختاره ، هناك طريقان ، واحد اخضر .. والآخر أحمر .. وبمقدورى أن أراهما معا فى ذلك الحلم ، وبمقدورك انت أن تختار بينهما كما تشاء .

وقال الباشا معترضا:

ـ لا .. ليس كما أشاء أنا ، بل كما يشاء الله ..

ـ ولكن ربما يكون الله سبحانه قد منحك حرية الاختيار فتستطيع من ثم أن تختار الطريق الأحمر فتبدأ عمليات الاعدام وتحيل كريت إلى شعلة من اللهب ، أو أن تختار الطريق الأخضر فيتحول كل شىء إلى لبن وعسل ، يصبح الأتراك والمسيحيون اصدقاء مرة أخرى ، وتبارك الدنيا اسمك ، عليك الآن أن تختار !

وقال ذلك وهو يخرج من جيبه صندوق تبغ ثمينا حتى لا يدع للباشا وقتا للتفكير .. ثم قال فى رقة :

ـ أنت خبير يا أفندينا الباشا وتعرف الشىء الكثير عن التحف ، وهذا الصندوق من روائع مدينة « چانينا » .. على جانب منه نسر ذو رأسين ، وعلى الجانب الآخر هلال محفور بفن رفيع ، وكأنما يرمز إلى نفس ما تعمل أنت من أجله المسلمون والمسيحيون يعيشون معا إخوة .. ولأننى أعلم ما بقلبك ، فقد أردت من زمن أن أقدم هذا الصندوق هدية لك ، وها قد جاء الوقت .. وعسى أن يمنحك الحظ السعيد !

ثم وضع الصندوق الفضى فى راحة يد الباشا الممدودة ..

وقال الباشا وهو يبدى إعجابه بالهدية :

ـ والله إن اليونانيين هؤلاء .. جنس خالد ، انتم تصيدون الذباب .. مرة بالعسل ، وأخرى بالخل ! .

ثم انحنى وربت بأصابعه السمينة على الصندوق برقة :

ـ نعم .. دعنى أقل لك يا أفندينا المطران ، لقد أمطر هذا الصندوق من « چانينا » قلبى سعادة ورقة .. كانت زوجتى الأولى ـ وعسى أن تكون سعيدة فى عالمها الآخر ، حيث هى الآن ـ على قدر فائق من الجمال وكانها

« السيدة فروسين » .. وكانت هى أيضا من « چانينا » ..

ثم تنهد وقال :

ـ ولكن .. كيف يمكن أن تفهم ذلك ؟ فأنت لم تعرف النساء فى حياتك ، وساد صمت .. وأخذ المطران يداعب حبات المسبحة وينظر من خلال النافذة إلى الشجرة العارية الضخمة التى بدأت فى بطء تحرك أوراقها تحت السماء الزرقاء ، وأخيرا فتح فمه ليعيد الحديث مرة أخرى إلى الأرض :

ـ إن المحاصيل تبشر بخير يا أفندينا الباشا ..

وانتزع الباشا نفسه من الماضى العذب .. وعاد إلى ميجالوكاسترو !

ووقف المطران ، ووقف الباشا أيضا وقد مد يده .

ـ إلى اللقاء يا أفندينا المطران ، كلانا امرؤ يخاف الله ، وقد قسمنا كريت فيما بيننا بحكمة ، فلتحكم قبضتك على المسيحيين ، وسأفعل أنا نفس الشىء مع الأتراك ..

ثم سكت لحظة .. وقفزت إلى طرف لسانه عبارة ، فسعل ، وحك رأسه .. وقرر فى النهاية أن ينطق بها :

ـ إن الضجة فى وقت الأعراس أمر مألوف ، ولكن .. حتى إذا سمعت فى الأيام القادمة صوتا يبدو معه وكأن هناك عملية قتل ، ... فتظاهر بأن هذا الصوت لم يصل إلى أذنيك ..

ـ قتل ؟ ! ..... قتل يا أفندينا الباشا ؟

ثم قال وهو يحدج التركى الأشيب بنظرات حادة :

ـ إن الله ينهى عن القتل !

ـ لا تهتم ! .. فلعل تركيا سكيرا هو الآخر أن يقتل فارسا يونانيا .. مثل هذه الأشياء يمكن أن تحدث ! .. إن العالم ملىء بالحمقى .. ولكن ، عليك أنت يا مطران أن تتصرف كالأطرش .. تماما كما تصرفنا نحن كالعميان عندما لم نر يونانيا بعينه يقتحم مقهى تركيا ليهيننا ، الآن تتصرف أنت

كالاطرش يا افندينا المطران ، مع أطيب تمنياتى !

واحس المطران لحظتها كأن ثعبانا يلتف حوله .. ولكنه تظاهر بأنه لم يفهم ..

ـ الله كبير .. وهو يحاسب حتى السلاطين والباشوات ..

وقال الاناضولى العجوز وهو يبتسم بخبث :

ـ ... ويحاب المطارنة ايضا يا افندينا الباشا ..

وافترق الاثنان الكبار فى ميجالوكاسترو .. افترقا قبل أن يحتدم بينهما النقاش ..

ومضت الأيام .. وأدرك ابريل منتصفه ، وبدأت الأشجار تكتسى ببراعمها وازاهيرها بينما كان بعضها يهب ثماره ، وتبعثرت ميجالوكاسترو تحت شمس الربيع ، وبدأ الرجال والنساء يقاسون داخل جدران بيوتهم ، فقد وقعوا فريسة عصابتين غاضبتين لكل منها إله ، وكان الرجال والآلهة يشحذون مداهم ! لم ينتبه واحد منهم إلى البحر الرطب البارد الذى كان يبتسم مثل الدراق ، ولا إلى الشمس التى كانت تزدهر كل صباح مثل عباد الشمس .. ولا إلى النجوم ..

وعاد « الكابتن ميخايليس » إلى دكانه صامتا منقبض الصدر ، ولأول مرة عجزت الخمر عن أن تبهج قلبه ، فقد نهض بعد كل ما شرب وهو يحس بالتوتر وبمزيد من الغضب ، ومن ثم قد تجنب الشرب من جديد وبدأ يكتفى بكسرة من الخبز سرعان ما يغادر المائدة بعدها ، ولم يعد يفتح فمه فى البيت طوال اليوم .. وامتنع أيضا عن النوم .. كان يجلس طوال الليل فوق سريره وهو يدخن ويتطلع من خلال النافذة الضيقة .. ويظل هكذا مفتوح العينين لأنه كان يعلم جيدا إن نام فسوف تقحمه الأحلام المهينة .. لا .. حلم واحد لا يتغير ، ... شيطان واحد لا يتغير يأتيه كل ليلة .. ألم تعد الخمر كافية لأن تقهر هذا الشيطان وتقهر معه مهانته ؟

ولم يكن نورى بك هو الآخر قادرا على أن ينام ليس لأن فكره غسل إهانة تركيا والانتقام لأبيه كانت تنهش جسده فحسب ، ولكن لأنه كان أيضا قلقا على زوجته ، فمنذ ذلك اليوم الذى جاء فيه الكابتن ميخايليس إلى بيته ..

وأمينة ترفض أن تضمه بين ذراعيها . كانت تقول له فى عناد : « لقد أهانك ، لقد أهانك الكابتن ميخايليس ، ومن ثم فسوف أهينك أنا أيضا ، تلك هى العادة بين النساء التركيات » ..

وانتقل نورى بك إلى ضيعته الريفية عسى أن يلهى نفسه عما يستبد به .. وكان الطقس دافئا ، ولعل الهانم أن تخرج كعادتها كل عام لتقضى فصل الصيف وسط الحدائق والمياه الجارية .. ولا شىء يستعصى على الله سبحانه ، فلعلها كذلك أن تتغير أفكارها وينمو حبها يانعا من جديد ! من أجل ذلك كله كان يستحث العمال كيما ينتهوا من طلاء الأبواب والنوافذ ، وينشئوا مظلة من الأخشاب .. ومن أجل ذلك أيضا أمر بشراء مجموعة من طيور الكناريا من « سميرنا » .. وعدد من الببغاوات من الاسكندرية لكى تسلى « أمينة » .. ولعل ذلك أن يرقق مزاجها !

ولكن أمينة ظلت ملازمة لوسائدها الناعمة خلف ستائر الشرفة المطلة على الشارع .. تشرب « الشربات » ! وتمضغ اللبان وتتطلع إلى المارة لا فرق بين يونانى وتركى .. فكلهم بالنسبة إليها رجال فحسب !

وسألت مربيتها العجوز :

ــ وما المسلم أو المسيحى أو اليهودى يا ماريا ؟ ! هناك فقط صنفان من الرجال : عجوز وشاب .. ذو لحية بيضاء وذو لحية سوداء ، وأنا أحب الصنف الأخير ..

وفى كل أمسية وحين تغيب الشمس وتبدأ الأزقة فى الاظلام ، كان يمر رجل يونانى يضع فوق رأسه طربوشا ضخما ، وينتعل حذاء برقبة طويلة ، ويقترب من المكان .. ويلقى بنظرات الحب من خلال ستائر الشرفة ..

وفى أحد الأيام سألت « أمينة » مربيتها المغربية :

ــ من يكون هذا اليونانى يا ماريا ؟ ! ترى أين رأيته قبل الآن ؟ ! يبدو لى أننى رأيته فى أحلامى !

وأجابت المربية :

ــ إنه الرجل الذى أفاقك من اغماءتك يوم الزلزال .. كابتن « بوليكسيجيس » .

ـ إنه يبدو وسيما ! وبحق روحى ! إن على وجهه ترتسم امارات الزهو . إنه يتمايل .. ويشرئب .. ويضرب الأرض بحذائه ! .. اسمعى ! .. إن المسكين يتنهد مثل العجل ! .

وضحكت « أمينة » وهى تمضغ اللبان وترشف « الشربات » وقد انتابها شغف نحوه ، واغمضت عينيها بأهدابهما الطويلة ثم ابتسمت فى سعادة وهى تقول لنفسها :

ـ « سوف افعل ما أريد .. وإذا أردت ، فسوف أدخله إلى فراشى ، وإذا أردت فسوف أبقيه فى الشارع يتسكع فيه مثل الكلب .. ألست امرأة ؟ سوف أفعل إذن ما أريد » ..

وفى منتصف ليلة من الليالى وقد خلا الشارع من المارة ، أخذ الكابتن « بوليكسيجيس » مكانه المعتاد أسفل الشرفة ، وكان القمر ساطعا بضوئه ، ورائحة الياسمين وزهر العسل تعبق الجو ، والبلابل فى حديقة نورى بك تطلق أغاريد اشتياق يائس للحب ! ، وصوت أمواج البحر تتناهى من الميناء وهى تتنهد هى الأخرى وتمسح صدرها بجدران القلعة ..

ولم تكن أمينة ليلتها قادرة على النوم ، كانت تحس بالحرارة ، فخلعت ثياب النوم وتسللت إلى الخارج .. فرأت الرجل تحت ضوء القمر مضطربا مستندا إلى أحد أعمدة الباب الخارجى ، وعرفته على الفور ، وأغرقت فى الضحك وهى تلكز المربية التى تكومت نائمة مثل الارنب .. وقالت :

ـ المسكينة ! تعالى وألق نظرة ! يكاد أن يغمى عليه ، وأنا أريد أن أنزل لكى افيقه من أغماءته تماما مثلما فعل معى ! مارايك ياماريا ؟ ! إن نورى بك فى الضيعة الآن !

ـ يا طفلتى امينة .. تلك تكون خطيئة كبرى ..

ـ انزلى اليه واطلبى منه أن يصعد ..

وقالت المرأة فى توسل :

ـ أمينة ! .. يا طفلتى ...

ـ تأكدى أولا من أن المغربى الذى بالباب نائم ..

وتنهدت « ماريا » وهى تقول :

ـ إنه نائم .. لقد سمعت شخيره ..

ـ والكلب ؟ ! .. هل هو موثق ؟ هيا .. اسرعى أيتها الدجاجة الحمقاء .. لاترتعشى وأظهرى شيئا من الحماس وأنت تؤدين عملا ! إن الله خلق الرجال والنساء من أجل هذا أيتها المخلوقة التعسة ! آه .. ما أروع القمر هذه الليلة .. وما أدفأ الريح ! الياسمين مزهر .. والبلبل مجنون ! هيا .. قوديه إلى هنا .. لقد طالما كنت أقول لنفسى : بوسع المرأة أن تكون محترمة فى الشتاء .. أما فى الربيع ... ؟

وانحنت « أمينة » إلى الأمام ورأت أن الكابتن « بوليكسيجيس » لايزال فى مكانه يحدق إلى الشرفة « لا يهمنى الآن نورى .. ولا يهمنى والكابتن ميخايليس صعب المنال .. ويكفينى الآن هذا الرجل ! » .. وأسرعت إلى مشطها ومرآتها لتصلح شعرها فى لهفة .. وعطرت أبطيها بالمسك .. ثم دفعت المربية بيدها : « قلت لك اذهبى ! » ..

وأمسكت المرأة المغربية برأسها بكلتا يديها وهى تتعثر هابطة الدرج ..

ونثرت « أمينة » ما تبقى من المسك فوق جسدها ، ووقفت لتجذب المصباح خلف الباب وهى تغمغم : « كنت أريد رجلا آخر .. ولكنه متوحش وصعب المنال ، لا يهم .. فهذا الرجل يلائمنى » ..

وأرهفت السمع ، وتناهى إلى أذنيها صوت الباب يفتح ببطء ، ونبح الكلب مرة واحدة .. وبدأ وقع الخطوات يصبح واضحا فى الفناء .. ثم فى مكان الرجال .. ثم فوق الدرج .. وانحنت إلى الخلف فوق وسائدها وهى تتهيأ لارتداء ثياب النوم ، ثم مالبثت أن صرفت النظر ، فتركت ضوء القمر يسبح بلا عائق فوق صدرها وجسدها ، واقتربت بخطى وتناهت إلى خياشيمها المرتعشة رائحة رجل ! فبللت بلسانها شفتيها عدة مرات ، وأغمضت عينيها .. وانتظرت .

ووصل الكابتن « بوليكسيجيس » .. وأصبح على عتبة الباب ، وحدّقت أمينة من خلال أهدابها الطويلة ، ورفع هو يده إلى عينيه وكأنه أصيب بالدوار ، وبدأ قلبه يدق فى جنون ، وبسطت الشركسية ذراعيها ، واستلقت

على ظهرها ، وكأنما كانت تلك هى الاشارة المتفق عليها ، فقد قفز الكابتن بوليكسيجيس نحوها قفزة واحدة ... وأطفأ المصباح .

اقترب ابريل من نهايته ودخل المسيحيون أسبوع الآلام وهم فى خوف شديد ، ولم يكن فى مملكة المسيح مثل الكريتيين من يشاركون فى عمق وبدموية وباسلوب خاص فى آلام السيد المسيح ، كان المسيح وكانت كريت يمتزجان معا داخل قلوبهم ، فآلامهما واحدة ! اليهود صلبوا المسيح ، والأتراك صلبوا كريت ، وكان الكريتيون يحسون فى أعماقهم كيف كانت آلام المسيح تعظيم يوما بعد يوم وهم يحسون بالضعف أكثر وأكثر من شدة ما يعانونه من الصلاة والصوم حتى بدأ ينمو فى قلوبهم اتهام غاضب يبحث لنفسه عن مخرج بالقوة .. كانوا يتطلعون إلى الأتراك بنظرات وحشية ، وكانوا يمنعون أنفسهم بصعوبة بالغة من ضرب اليهود القلائل – من الصاغة والمرابين – الذين تزدحم بهم حارة اليهود بالقرب من الميناء ، والذين كانوا يغلقون أبوابهم على أنفسهم فى ساعات مبكرة أثناء الأمسيات المقدسة والخطيرة فى أسبوع الآلام .

وكان الجو العام فى ميجالوكاسترو فى هذه المرة أكثر خطورة وتهديدا من ذى قبل ، لأنه – فى مواجهة المسيحيين الغاضبين – كان هناك الأتراك الذين لم ينسوا بعد الجرح الذى أصابهم به الكابتن ميخاليس والذين تجمعوا ليلا أمام كنيسة « القديس ميناس » حيث كان المسيحيون ينتحبون من أجل المسيح ، وكانوا فى تجمعهم هذا يرفعون عقائرهم بالسباب واللعنات ويحاولون بالغناء المرتفع أن يهينوا الكريتيين ويحقروهم ، أما هؤلاء فكانوا ينتظرون كل ساعة ليعرفوا متى وكيف سيضرب الأغوات ضربتهم ، ومن ثم ، فقد بدأ يرتفع وميض النار تحت الرماد .

وهكذا مرت من الأسبوع المقدس أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء .. وكانت ساعات المساء ناعمة سماوية تفتحت فيها زهور البنفسج فناء كل بيت ، وفى الجمعة السعيدة خرجت الفتيات يقطفنها ليضعنها فى باقات من ورود آخر ابريل فوق – قطعة القماش التى تحمل صورة المسيح – وأغلق المسيحيون حوانيتهم بمجرد أن بزغت شمس اليوم التالى وانقضوا على اللحوم والأسماك والزيتون وحساء السمسم والخس والخرشوف ، وأخذوا يذرعون ساحات بيوتهم ، ينصتون وينتظرون ، ودق جرس كنيسة « القديس

ميناس » في تردد ونحيب مع الشفق الشاحب .. ذلك الكلب يعرف أننا في أسبوع الآلام ؟ .

وقال « ديمتروس » وهو يتنهد :

ـ هذا محض جنون ! أو نحن الآن مقبلون على الوقوف في وجه الباشا ؟ ..

أضرب البيضة بالحجارة تذهب إلى الشيطان .. واضرب الحجارة بالبيضة تذهب البيضة أيضا إلى الشيطان .. هذا رأيي ..

وطوال تلك الأيام كان الكابتن ميخاليس بعيدا عن الكنيسة ، كان يمجد الله ويصلى له ، ولكنه لم يكن يحتمل القسيس ، وكانت عادته أن ينتظر حتى تخلو الكنيسة من القسس وأرديتهم والنساء وثيابهن والرجال وسراويلهم .. وحين كان المكان يخلو تماما من كل هؤلاء ، كان هو يقوم بالزيارة ويشعل شمعة ، ولكنه كان يدخل الكنيسة صباح كل خميس القربان قاصدا أو بدون قصد حتى في وجود كل هؤلاء وكان يرسم علامة الصليب ويفتح فمه ليتلقف جسد المسيح ودمه فيحس بأن نارا تتأجج بداخله .

ولكنه ـ ولأول مرة في هذه السنة ـ خرج ممتطيا صهوة فرسه بلا هدف ، وانطلق إلى مقربة من ضيعة « نورى بك » .. ثم توقف وعاد وهو يستنشق هواء البحر بقوة .. ولكنه لم يعد إلى العشاء المقدس وظل يردد لنفسه مرة بعد أخرى : « طالما أن هذه الروح الشريرة لاتزال في أعماقي .. طالما أن هذه الروح الشريرة باقية بداخلي .. فلن أعود إلى العشاء الرباني » ..

لم يكن هناك في السنة أطول من يوم الجمعة السعيد : لقد كان يمتد طوال خمس أمسيات . ورسم المسيحيون علامة الصليب وفتحوا أبوابهم واندفعوا صامتين خاشعين في أزقة ميجالوكاسترو ليتعلموا مرة أخرى في هذه الأمسية كيف يقاسى الرب على أيدى البشر .

وحين كان أسبوع الآلام يمضى ازداد اضطراب الكريتيين فعندما بدأت قراءة دروس الانجيل الإثنى عشر يوم خميس القربان وبينما كان المطران يتبعه البابا مانوليوس ثم الشماس يقرأون في أصوات خشنة قصة يهوذا

وكيف خان المسيح ، كان الأثر يشتد عليهم فيحسون وكأنهم يلهثون خلف المسيح من « أناس » إلى « فيافا » إلى « بيلاطس » .. تماما كما لهث « عمر قريونى » وهو يجرى إلى مصطفى باشا وإلى السلطان يطلب العدل .

واستمعوا فى صبر نافذ إلى الدروس السبعة الأولى ثم مالبثوا أن انطلقوا إلى فناء الكنيسة حيث أقيمت دمية من القش والخرق القذرة المهلهلة تمثل « يهوذا » اندفعوا نحوها بسكاكينهم ومشاعلهم ليمزقوها ويحرقوها ، ومنحهم ذلك بعض الراحة التى استطاعوا بعدها العودة إلى الكنيسة لسماع باقي الدروس .

وفى صباح الجمعة السعيد بدأت الأجراس تدق دقاتها الحزينة ، ونشرت قطعة القماش التى تحمل صورة المسيح فوق القبر المقدس الذى يتوسط الكنيسة .. وفتحت أبواب الكنيسة على مصاريعها .. وظل الكريتيون يدخلون ويخرجون ..

ووقف « مورزوفلوس » فى ساحة الكنيسة وقد أرهقه الصيام والصلاة .. وحوله وقف « ديميتروس » و« كاچابيس » و« فيندوسوس » والسينيور « پاراسكيفاس » الحلاق ، وكانوا جميعا قد أحنوا رءوسهم وهم يستمعون إلى كلمات « مورزوفلوس » وهو يحكى لهم كيف أن الباشا قد بعث أمس بخادمه سليمان إلى المطران وهو يحمل معه أرنبا ، هدية منه إليه ، وكيف أن المطران غضب وأعاد الأرنب مع الرسول وحمله إلى الباشا رسالة تقول : « نحن فى أيام الصيام ، إن اليهود قتلوا المسيح .. ونحن نبكيه » .

وقال باراسكيفاس :

- لم يكن ينبغى أن يعيده إليه .. إنها إهانة ..

وقال « كاچابيس » :

- بل كان ينبغى أن يفعل ذلك ، إن هديته هذه هى الإهانة ، ألم يكن

لم يكن هناك نهار فى السنة كلها أطول من نهار الجمعة الكبيرة ، لقد طال بما يزيد على خمس مرات ، وضل طريقه ، وتوقف لايريد أن يتحرك ، يأخذ خطوة إلى الأمام وخطوة إلى الخلف كأنما لا يريد أن ينتهى إلى

مساء .. وأحس المسيحيون الذين أضعفهم الصيام بمزيد من الضعف وهم يمرون بروائح المخابز وكانت النساء يؤدين أعمال البيت وكأنهن ممسوسات ، كن ينظفن الحجرات ويبقين النار مشتعلة ، وكانت ساحات البيوت مهيأة .. وكانت القلوب تدق ! .. كان الكل ينتظر غروب الشمس ، ويترقب حلول الليل الداكن الزرقة كيما يهتف من أعماقه : « المسيح قام ! » .

وظلت زوجة « كراسوچورچيس » تتطلع إلى الشمس وهى تحسب الوقت . وبدا لها كأن نجم التبريك لن يظهر فى السماء ، وكادت رائحة الدجاج المطبوخ وفطائر « الكسترده » تؤدى بها إلى الإغماء ! .

وكانت « بنيلوب » قد بدأت في تلوين البيض منذ خميس القربان فخرج من بين يديها كأجمل مايكون ، وبدأت الآن تعد الحساء فى المطبخ ، بينما السيد « ديميتروس » يجرى بناء على أوامرها حاملا الأوعية والأوانى بين البيت والمخبز : « أسرع يا عزيزى ديميتروس ! تجلد يا بطلى العزيز ! المسيح يقوم هذا المساء ، وسوف احتاج إليك هذا المساء يا كنزى ! هل تسمعنى ؟ كل هذه اللحوم وهذه الفطائر لا ينبغى أن تضيع سدى » !.

واستجاب الله لدعاء زوجة « كراسوچورچيس » .. وغربت الشمس ، وغمرت رائحة الفصح ميجالوكاسترو كلها فى الغسق . وامتلأت أحياء المسيحيين بالضجة والبهجة وبدأت النساء فى تجميل أنفسهن .. حتى « ڤانچيليو » بدأت هى الأخرى تهندم نفسها ثم جلست فى الفناء تنتظر أخاها ، ترى هل سيأتى ؟ أم أنه لن يأتى ؟ ترى .. أيصحبها وحدها للمرة الأخيرة إلى احتفال الفصح ؟ فى العام القادم سوف يكون معهما « تيتروس » ..

واقترب الليل من منتصفه ، وبدأ المسيحيون يتجمعون فى ساحات بيوتهم ينتظرون دقات الأجراس ، فالمسيح كان قد بدأ يتحرك من قبره ويستجمع قواه ليحرك الصخرة الثقيلة ، وقفواجميعا على أطراف أصابعهم فى ساحات بيوتهم إلى نوافذها وقد أرهفوا السمع وانتظروا .. إثنان فقط فى ميجالوكاسترو كلها لم يكونا مع الله فى أفكارهم تلك الليلة ، واحد منهما كان فى تلك الليلة المقدسة يحتضن المرأة الشركسية ، والآخر كان يجلس فوق سريره وسط الظلام يدخن سيجارة أثر أخرى وأفكاره كانت تجرى مثل

الكلب خلال أزقة المدينة .. وتتوقف لتنبح أمام باب أخضر ..

وتجمع المسيحيون فى الفناء الأمامى للكنيسة ، وهم يحدقون فى مطرانهم ولما يشعلوا بعد شموعهم .. وكان المطران قد صعد إلى المنصة المزخرفة تحت شجرة الليمون المزهرة وقد ارتدى ملابس عيد الفصح ، وفتح الانجيل الفضى ، وتوهجت الجباة والوجوه وقد داعبتها أنفاس الليل الرطب .. وفجأة انطلقت الأصوات كالرعد : « المسيح قام » .. واضاءت الشموع : وقام المسيحيون كلهم مع المسيح .. وأطلق البعض رصاصات غداراتهم الفضية ، وبدأ « مورزوفلوس » بكل البهجة والفرحة يدق الأجراس الثلاثة ـ القديس ميناس ، والحرية والموت .. وكأنها تتمايل جميعا لتقول : « كريت لم تمت ، كريت حية لاتموت ! » ..

وأمسك « باربايانيس » بسيفه الطويل ، ووضع وسامه المصنوع من الصفيح ! وبدأ يروح ويجىء والأتراك والمسيحيون ينحنون له ساخرين ضاحكين ، ليرد هو على كل تحية بإيماءة الباشوات ! وكان قد استأجر صبيا من الشارع ودهن وجهه بالسخام : الآن أصبح له عبد يتبعه خطوة خطوة !

وانطلق « شاريلاوس » بشاربه المدهون حديثا بالشمع .. يزور الناس راكبا عربة وواضعا فوق رأسه قبعة من القش اشتراها له البعض أخيرا من أثينا ، ومسندا ذقنه على عصا رأسها رأس أسد .. ومتطلعا إلى الناس بنظرات حاقدة ، فلن يكن بمقدوره أن ينسى أن لهم أجسادا صحيحة ليس له مثلها ..

وعندما اقترب المساء خرج المسيحيون رجالا ونساء وقد ارتدوا ثياب الفصح يدورون حول « الأقباء الثلاثة » ، وتطايرت الضفائر الحريرية فى شعور الفتيات ، وإلى الشمال ، كان البحر هادئا فى حمرة الورد ، إلى الجنوب كانت الجبال تتألق وأشجار الزيتون تتوهج فضية اللون وفوق الجميع ألقت السماء سترها البنفسجى الحريرى الناعم ، ثم مالبثت الظلال أن امتدت .. وبدت وجوه أبناء ميجالوكاسترو المغذاة جيدا .. آمنة مسالمة وهى تجول من أجل غذائها .. وفجأة تألق كوكب الزهرة فى ضحكة منتصرة .. عاليا عاليا فوق الرءوس ..

الفصل السادس

استيقظت عائلة « الكابتن ميخايليس » نتية مع الفجر فى القرى الأربع التى ضربت فيها بجذورها منذ عهد الأسلاف ـ « بيتروكيفالو » ، و« أيانى » و« كروسون » و« البرج الأحمر » ـ واتجهت كلها إلى ميجالوكاسترو لتحضر عرس الشقيق الأصغر « تيتيروس » تجمعت كلها فى القرية الأم للعائلة ـ بيتروكيفالو ـ حيث يعيش الكابتن « سيفاكاس » الجد الأكبر والبالغ من العمر مائة عام ، بعضهم جاء راكبا بغلته والبعض الآخر جاء ممتطيا صهوة جواده وكلها محملة بالثياب الحمراء وبهدايا العرس : خراف مشوية ، وخنازير رضيعة وجبن من كل صنف وزقاق من الجلد لحفظ النبيذ والزيت ، وأوعية ملأى بالعسل ، وبالزبيب ، والتين .. وحقائب من اللوز ..

وظهر الكابتن « سيفاكاس » على عتبة الباب فى أحسن ثيابه الصوفية الثقيلة وقد انتعل حذاءه الأسود ، برباطه الأسود الطويل وعصاه ذات المقبض المزدوج ، وتدلت لحيته لتغطى كل صدره ، وبرقت عيناه تحت حاجبين كثيفين ، وبرزت من الأكمام الواسعة لقميصه الأبيض الناصع ـ ذراعان نحيلتان معروقتان كساق شجرة زيتون عتيقة ، وجال ببصره حوله ، فرأى الشارع كله مزدحما بالأبناء والأحفاد وأبناء الأحفاد .. فأحس بالسعادة ..

وصاح فيهم وهو باسط ذراعيه :

ـ « مرحبا بكم ألف مرة يا أولاد ! » حقل ملىء بالزهور والأعشاب ! » ..

وأجابته صيحة فرح واحدة من كل الجمع البشرى الخارج من صلبه :

« نحن سعداء برؤيتك ! ... فلتسعد فى مملكتك أيها العجوز ! » ..

وتقدم اثنان من أحفاده بفرس ليمتطيه وقد أمسك واحد منهما بزمامه وأمسك الآخر بالركاب ، وأوقفا الفرس قريبا من حافة النافورة القائمة فى الفناء ليسهل عليه امتطاؤه ، ولكنه أزاح بيده الحفيدين ضاحكا وهو يصيح :

ـ هل تظنون أننى هرمت فلا أستطيع أن أمسك بالركاب ؟

ثم قبض على ناصية الفرس بيده .. وبقفزة واحدة أصبح فوق السرج .. وصاح الجميع ..

ـ متعك الله بالصحة والسعادة يا كبير ! فلتعش الف سنة ! ...

ورد العجوز ذو اللحية الرمادية وهو يثبت عصابة الرأس :

ـ تكفى خمسمائة سنة !

كان قد أنجب اثنى عشر ولدا وأربع بنات .. وكلهم وحوش مفترسة ! كان الشارد وحده هو الشاذ ، فهو نحيف هزيل يعجب المرء كيف خرج من صلب هذا الرجل .. ولقد بحث مع زوجته مرة حال هذا الولد :

ـ « إنه لن يصلح راعيا ، فليست لديه القدرة على التسلق ، ولن يصلح فلاحا ، فليست لديه القوة على حرث الأرض ، ولن يصلح بحارا ، فالبحر يسبب له المرض ، إنه لن يصلح لشىء على الاطلاق !

وقالت المرأة العجوز التى كان الابن الأصغر أثيرا لديها :

ـ يمكن أن يكون قسيسا .

ـ قسيسا أو معلما ، ولدينا قسيس فى القرية ، ولكن ليس لدينا معلم بعد ..

وبعث به إلى ميجالوكاسترو ليتعلم ، وهكذا أصبح ابن الكابتن « سيفاكاس » هو المعلم « تيتيروس » ..

ولقد أستراح الكابتن « سيفاكاس » لخروجه من البيت بعيدا عنه ، فقد كان يخجل أن يدعوه بابنه ! وظل فى مزرعته مع وحوشه العشرة الآخرين الذين كان يفخر بهم فيقول دائما :

ـ « عندما يتناول أولادى طعامهم يهتز البيت حتى ليسأل الغرباء : أحدث زلزال ؟ ! كلا .. إن أولاد سيفاكاس يتناولون طعامهم فحسب !

ولكن ملك الموت جاء ووقف على عتبة البيت وأجال بصره حوله ، هنا ، يبدو المكان مزدحما بالفرسان أكثر من اللازم ! وهكذا أخذ ملك الموت نصيبه منهم : بعضهم أخذه أخذة شريفة وبأساليب مختلفة فى الحرب ، والآخرون اختطفهم فى خبث وهم فوق أسرتهم ، ورغم ذلك فقد بقى عدد كاف منهم كما كان يعتقد « سيفاكاس » ، فقد أنجبوا له أحفاداً وأنجب الأحفاد أولادا ، ان الواحد يترك خلفه مئة ، والمئة تترك خلفها ألفا حتى تمتلىء بهم كريت ، ترى ، كم سيختطف منهم الأتراك ؟ مهما بلغ عدد من يختطفونه فسوف تبقى منهم على أية حال خميرة يعلو بها العجين .

ورفع « سيفاكاس » يده وقال :

ـ باسم الله ياأولاد .. إلى الأمام ، حتى تزوج الابن الأخير ..

وفى مقدمة الموكب كان الرجل العجوز .. وخلفه قليلا وإلى اليمين وإلى اليسار منه ركب أكبر أولاده الذى تقدمت بهم السن ولكن ما تخلت منهم القوة ، « مانوساكاس » الفلاح الثائر أبدا من « أيانى » ، و« فانوريوس » قائد حرب العصابات وراعى القطعان ، ذو الوجه القاسى والذى تفوح منه دائما رائحة الجبن والماعز ، وكانت مملكته هى كل جبال « لاسيثى » ، وعندما كانت وحشة الجبال تضايقه كان يهبط من القمم الجرداء إلى السهول ويبحث عن الثور الذى يملكه « جاجى نيكولاس » من « بيتروكيفالو » ، فإذا عثر عليه أطلقه من وثاقه إلى شجرة الزيتون العتيقة ومضى يصارعه حتى ينتهى ما ينتابه من الضيق .

ولكنه ـ بالرغم من ذلك كله ـ كان يخاف من وحش واحد فى هذه الدنيا ، زوجته « ديسبوانيا » ! كانت امرأة صفراء البشرة زرقاء العينين لو أنك نفخت فيها لسقطت إلى الأرض ، ولكن « فانوريوس » المتوحش كان يرتعد أمامها ، وفى كل مرة كان يهبط فيها إلى القرية ليقضى بضعة أيام فى بيته وينجب من زوجته طفلا .. كان يتصرف امامها برقة ويتمثل السلوك الانسانى ! كانت الرغبة فى الشراب يستبد به ، ولكنه لم يكن يشرب ! كان يود لو انطلق على سجيته فى السباب ، ولكنه لم يكن يفعل ، وكان يشعر

بالرغبة فى أن يبصق فى الحائط كعادته ، ولكنه لم يكن يبصق ! فكان يضبط أعصابه وينتظر إلى أن يحل الليل وإلى أن تتوجه زوجته إلى فراشها ، وبعدها كان يخرج مخلبه من النافذة ويجذب أى رجل عابر بالصدفة من قفاه ويدخله إلى الحجرة ثم يجلس في مواجهته يشرب معه على مهل ، ودون أن يحدث أدنى صوت ، فإذا مر آخر كان نصيبه كالأول ، يجلس معهم .. ويضع كل منهم أصابعه على حواف كأسه حتى يضمنوا ألا تحدث الكئوس أصواتا وهم يمسكون بها .. ويظلون فى شرب متصل حتى يقرر « فانوريوس » أنه قد اكتفى ، فإذا به يمسك بهم من أقفيتهم ويعيدهم إلى الطريق بنفس الاسلوب الذى أدخلهم به ، وعندها فقط يزور زوجته فى فراشها ، وهكذا ـ وبهذه الطريقة ـ أنجب أولاده الكثيرين !

وارتفع الغبار فى الطريق عاليا تحت حرارة الشمس ، وكان الكابتن « سيفاكاس » يدير وجهه الملتهب إلى الخلف بين الفينة والفينة ليلقى نظرة خاطفة إلى الركب الذى يتبعه .. خلفه يجىء « مانوسـاكاس » و« فانوريوس » ، وخلفهم يجىء الأحفاد ـ الرجال منهم ـ وبعضهم كان متزوجا ، وخلف هؤلاء يجىء أبناء الأحفاد وقد نبتت لحى بعضهم ، وإلى اليمين خلف كل هؤلاء يجىء موكب النساء يقاقين ! .

ثم عاد ينظر أمامه فى اتجاه « ميجالوكاسترو » دون أن يخوض فى حديث مع أولاده ودون أن يبتسم وكان يحس بالرضا والطمأنينة ، فى مكانهما المناسب ، ولم يكن يحتاج بعد لشىء أو لأحد ، وكانت الكلمات فى الأيام الأخيرة تبقى محبوسة فى أعماقه ، فإذا أحس بسر يقلقه ، وينهش فى داخله لم يفض به لمخلوق .. ولكنه كان يفضى به لله وحده .

والحق أنه منذ زمن ليس بالبعيد كانت تنتاب تفكيره تأملات غريبة ، لأول مرة بدأ « سيفاكاس » العجوز يفكر فى الموت لقد اقترب اليوم الذى سيقف فيه أمام الله ، وقد كان العجوز يرتعد كلما فكر فى ذلك .. كان الموت فى تصوره أشبه بجبل أسود تحيط به أمواه مندفعة يشده إليها العطش ، ووحوش مفترسة يشده عنها الخوف ، وتذكر كيف انه انزلق مرة فى إحدى الثورات فوق « الجبل القاسى » خارج « ميجالوكاسترو » ، وأمضى هناك ليلة واحدة والأتراك منتشرون حوله .. وكيف تقدم فى بطء وهو يتسلل منحنيا والسكين بين أسنانه ، حتى تناهت إلى سمعه أصوات خافتة ، ولمح بريق سجائر مشتعلة ، وسمع أصوات قعقعة الأسلحة ورآها تلمع وسط

الظلام .. وتذكر كيف ظل يتسلل هاربا وسط الظلام وهو يرتعش .. الآن ، يبدو له الله سبحانه مثل ذلك الجبل ..

كانت « ڤانچيليو » قد عادت لتوها من حمامها الساخن وأخذت « رينيو » تصفف لها شعرها بمشط عاجى أعطاه لها عمر أباها « إيدوميناس » وتضع الأحمر فوق خديها ليخفى الصفرة التى تعلوهما ، والمساحيق فوق أنفها حتى يبدو أقل طولا ، بينما العروس صامتة أمام المرآة ، وكانت « بينيلوب » وزوجه « كراسوجورجيس » تقومان بتزيين سرير العريس وهن يرددن أغنيات الزواج وينثرن أزاهير الليمون فوقه وهن ثملات بعض الشىء .. وكانت الزوجتان .. ربتا البيت الحاذقتان - « كاتيرينا » زوجة الكابتن « ميخايليس » و« كيريسانتى » شقيقة « بوليكسيجيس » .. تجهزان الذ أنواع الطعام بينما « على أغا » يعد الأطباق والسكاكين والشوك بعد أن يجمعها من الجيران .

ودخل « ديامانديس » وقد علق عباءته فوق كتفيه فى غرور ، وألقى بتحية نائمة ، ثم حدق فى البيت بعينيه الواسعتين المستديرتين ، وهو يزم شفتيه ويلعب بسلسلة ساعته فى عصبية ، لم يكن مرتاحا لكل هذا الذى يجرى ، فقد تم كله على خير وجه دون الاستعانة به ، وهو شقيق العروس ! لماذا بحق الشيطان يجىء هذا المخلوق ذو المعطف الطويل والعوينات المتثاقلة ليقتحم حياتهم ؟ وصعد الدرج فى خطى متثاقلة ، ونظرت إليه زوجة « كراسوچورچيس » نظرات ذات مغزى ، كانت تعلم أنه ما اشترى الساعة إلا ليستعرض بها ، فلم يكن يعرف بعد كيف يحدد بها الوقت ، حتى لقد كان أصدقاؤه يتندرون معه بذلك .. وهكذا سألته فى سخرية ..

- كم الساعة الآن ياديماندس ؟ !

والتفت خلفه فى غضب وقال :

- لقد توقعت الساعة يا امرأة .. إنها لاتعمل ..

- لقد توقفت الساعة يا امرأة .. إنها لا تعمل ..

ثم ابتعد عنها .. ورأى كيف يدللون شقيقته ، يدللون الضحية ويعدونها للتضحية ! وتهيأ للنزول ، ولكن شقيقته أحست به فاتجهت نحوه وقد

امتلأت عيناها بالدموع .

وتدخلت « بينيلوب » :

ـ نحن نزين العروس ، فالرجال الآن فى الطريق إلينا ..

وجذب الرجل الأنيق شعرة من شاربه وقذف بها فوق السرير وهو يقول :

ـ عسى أن تجلب الحظ ..

ثم هبط الدرج متثاقلا وهو يتنهد .

ارتفعت أصوات الصهيل وقعقعة السرج فى المساء ، وامتلأ الشارع الضيق بالفرسان ، فقد وصل الكابتن « سيفاكاس » وقطاره خلفه ، وفتحت أبواب بيت « فانچيليو » على مصاريعها وملأت الجو على الفور رائحة الرجال والأجساد التى بللها العرق ممتزجة برائحة اللحوم المطبوخة والجبن .. وأخذ الرجل العجوز « فانچيليو » بين ذراعيه وقبلها ، واندفع إليها كل أقاربها الجدد يقبلونها بدورهم ويغرقونها فى رائحة العرق والماعز ، والأنفاس المخمورة .. وزال الطلاء من فوق خدى العروس من كثرة ما مسحته الشوارب واللحى التى لامست وجهها ، فأسرعت إلى غرفتها لتطليهما من جديد بالأحمر والمساحيق .

ولم يكن المكان ليتسع للضيوف فى حجرات الطابق الأسفل ، ومن ثم فقد ذهبت النسوة إلى غرفة النوم ، بينما ذهبت البعض منهن إلى المطبخ ليضعن الهدايا ، أما غالبية الرجال فقد انتشروا فى ساحة البيت .. وساد الطنين المكان ..

وصاح الكابتن « بوليكسيجيس » وهو يصعد ويهبط محييا ابنة أخيه :

ـ لا تحدثوا هذه الفوضى يا أولاد .. لاتحدثوا هذه الفوضى ، نحن هنا فى ميجالوكاسترو .. ولسنا فى الجبال !

وتخلص « تيتيروس » و« إيدومينياس » من العناق والتحية ، وبدأ الاثنان يتهامسان وقد جلسا إلى ركن من الأريكة ، وأخبر « تيتيروس » سراب زوجته فى حماس وإخلاص كم من تقاليد الزواج القديمة لاتزال تحيا بين هؤلاء الناس ، هؤلاء اليونانيون جنس خالد لا يموت .. وكان سعيدا ،

لا لأنه سيتزوج ، ولكن لأنه سيتزوج وفقا للعادات القديمة ، وأخبره « ايدوميناس » بأنه قد بعث بالأمس انذارا إلى ملكة انجلترا ، وأنه سوف يتلقى بلاشك ردا على هذا الانذار بعد ايام قليلة ، ثم قال في اطمئنان :

ـ الله نسأل ياولدى أن يكون يوم زواجك يوم فأل حسن ، وأن تتحرر كريت .

وظهر الكابتن "ميخاليليس" الذى رفع قبعته فى احترام وانحنى يقبل يد أبيه ثم صافح أشقاءه وأبناء عمومته ، وتظاهر بأنه لم ير الكابتن "بوليكسيجيس" ، ثم دخل البيت وجلس إلى جوار أبيه وانحنى العجوز ليهمس فى أذن ولده .

ـ تبدو لى نظرات العروس حزينة ياميخاليليس .

وأجاب الكابتن ميخاليليس :

ـ لتناسب نظرات العريس !

وهز العجوز رأسه وضحك ضحكة جافة .

ولكن حديثهما صادف من يقطعه . فقد دخل القسيس بجيوبه الواسعة . والشماس بلحيته التى تشبه لحية دب وحشى . و"مورزوفلوس" بمبخرته الفضية . ونهض الجميع واقفين .. ونزلت العروس مع عرابها الذى أمسك بيدها ، وملأ "مورزوفلوس" مبخرته .. وبدأ الترتيل ، وأحنت العروس رأسها وقد وقف أفراد العشيرة الوحشية كلهم بأنفاسهم ودمائهم الحار وشواربهم ـ وقفوا بالقرب منها يحدجونها بنظراتهم . هذه المرأة النحيلة سوف تدخل عشيرتهم وسوف تمتزج دماؤها بدمائهم . أتكون النتيجة طيبة ؟! كلهم رعاه وفلاحون يعرفون جيدا عن الماشية : أى جدى أو ثور يناسب هذه العنزة أو البقرة ليخرج نتاج قوى يثرى القطيع . وكانت النساء يعرفن كل شىء عن الديوك والدجاج والأرانب ، ويقيمن الزوجين الصغيرين .

ـ إن العروس نحيلة جدا . وصدرها ضامر . كيف يمكن لمثل هذه أن ترى أطفالها ؟

ـ لاتنزعجى ، سوف تدر لبنا ، هل تذكرين ـ العام الماضى ـ تلك العنزة "ماقرادا" . كانت جلدا على عظم ، ولم يكن أحد يرى ضرعها إلا بالكاد !

.. ولكنها انجبت ، وأصبحت تعطى فى "الحلبة" الواحدة - قد لاتصدقين ! - ربع جالون من اللبن !

- ليست لها أرداف .. كيف تحمل هذه طفلاً ؟

- لاتنزعجى ، سوف تسمن الآن . كلهن يسمن بعد الزواج .

وهكذا مضت النساء ، تهمسن بينما القسيس "مانوليس" يرد كلمات العرس : "رقص اشعيا ....." .

وعندما انتهت الطقوس ، تولى العراب استبدال التاجين واندفع الأقارب مرة أخرى نحو العروسين يتمنون لهما حياة طويلة وشيخوخة كريمة .. ثم بدأ القضم والنهش حول المائدة الموسوقة بالطعام . ولم يذكر العريس بعد ذلك كيف حدث ذلك كله ، فقد غطت أفكاره سحابة فلم يعد يذكر إلا أنه كان يميز بصعوبة تلك الوجوه والأصوات - وأباه وهو جالس وقد أمسك بيديه خنزيراً مشوياً أسنده إلى ركبتيه ، والى يمينه الكابتن "ميخايليس" وإلى يساره الكابتن "بوليكسيجيس" ، وأخيرا تذكر أن "ديامانديس" شقيق زوجته دخل دون أن يحنى أحدا وقد أرخى قبعته إلى عينيه ، ثم إتجه مباشرة إلى المطبخ ليشرب ويحتفل بداخله ، وأن الكابتن "بوليكسيجيس" قفز من مكانه وخرج ، ثم مالبث الجميع أن سمعوا أصوات نقاش حاد وزجاج يحطم .

وجز الكابتن "ميخايليس" على أسنانه وكاد يقفز من مكانه هو الأخر ولكنه عدل عن ذلك وظل جالساً ودماؤه تغلى بينما جاءته ابنته "رينيو" بالطبق وقدمت له شراب كرز طازجاً أحس بالهدوء بعد أن شربه ، فتفضل على الفتاة بنظرة ودوده وهو يحس بأنه رأى هذا الوجه من قبل فى مكان ما .. من تكون ياترى ؟ لقد ظلت طوال المساء تخدمه دون تطفل وتحضر له كل مايريد : الماء ، والنبيذ ، والطعام والسجائر ، وتسرع فى احضار ذلك كله . وأشار الى زوجته التى كانت توزع اللحم على الضيوف وسألها وهو يومىء ببصره إلى "رينيو" :

- من تكون هذه البنت اللطيفة ؟ لقد رأيتها من قبل فى مكان ما .. ولكن أين ياترى ؟! .

وتنهدت كاتيرينا :

ـ إنها ابنتك !

وأحنى الكابتن "ميخايليس" رأسه ولم ينطق بعدها .

وعاد الكابتن "بوليكسيجيس" غارقا فى عرقه ، واتجهت كل العيون اليه وحاول هو أن يرسم على شفتيه ابتسامة وهو يقول :

ـ إنه سكران ، فاعذروه .

ثم جلس إلى جوار الكابتن "ميخايليس" وكأنما يريد أن يتقرب اليه لينسى تصرف ابن اخيه . واهتزت خياشيم الكابتن "ميخايليس" بالرغم منه : رائحة المسك تفوح من صاحبه . ولكن الكابتن "بوليكسيجيس" مضى فى محاولته تخفيف حدته ، فمنذ أيام وهو يصده بجفاء . لماذا ؟ وبعد أن شرب عدة كئوس من النبيذ لتمنحه الشجاعة ، انفجر معاتبا فى اتهام :

ـ ماذا فعلت ياكابتن "ميخايليس" حتى تكرهنى هكذا ؟

وجاءت الاجابة :

ـ أشم فيك رائحة تركية !

وتساءل "بوليكسيجيس" وقد احمر وجهه خجلاً :

ـ وكيف عرفت ؟

وحدق الكابتن "ميخايليس" مباشرة فى عينيه ، وأحس بقلبه فجأة يقفز إلى حلقه حتى ليكاد يخنقه . فقد فهم . وضغط بقدميه على المقعد الذى احضرته له "رينيو" ليضع قدميه فوقه حتى سمع صوت صرير ثنايا الخشب ووصلاته . وقال من بين أسنانه :

ـ الآن أعرف . ألا تحس بالخجل ؟ .. ومع امرأة تركية ؟

وقال "بوليكسيجيس" :

ـ سوف تصبح مسيحية .

وقفز الكابتن "ميخايليس" وقد أحس بالبيت يدور أمام عينيه .

ـ وبدلا من أن تصبح هى مسيحية ، لماذا لاتصبح أنت تركيا ؟ إذن

لاستطعنا أن نتخلص منك .

... ثم اتجه إلى الفناء ليشم الهواء النقى .

وكان اليوم التالى قد بدأ يتسلل ، ولكن الجميع كانوا لايزالون يأكلون ويشربون وارتفعت اغنيات الحب على انغام آلات بدأ البعض يعزفون عليها ، بينما راح البعض الآخر يرقص رقصة الصفوف الخمسة وهو يغنى . أما العروسان فقد جلسا صامتين غائبين على حافة الأريكة دون أن يحس أحدهما بالرغبة فى النهوض إلى سرير العرس المزين بالورود . وتمدد الجد العجوز بالقرب منهما وقد أسبل جفنيه دون أن ينام ، ولكنه كان يستمع إلى ضجة أحفاده حوله . وإلى كل الأصوات والأغنيات والضحكات الصاخبة . وكان يحس بالسعادة وكأنه شجرة ضخمة من أشجار السهوب تسقط فوقها الأمطار وتمتص جذورها السعيدة الماء .

وبعينين ناعستين أشار الكابتن "ميخايليس" إلى زوجته :

ـ هيا بنا !

وجاء يوم جديد ، وسطعت أشعة الشمس فوق ساحة العرس فكشفت عن أكوام من العظام وفتات الخبز والرجال النائمين المتكومين بلحاهم وعباءاتهم الصوفية الواسعة . وارتفعت فوق "ميجالوكاسترو" حيث اليوم يوم الثلاثاء التالى للفصح .. وسوف تفتح الدكاكين أبوابها ويتمنطق أصحابها كل بمئزرته . ومست أشعتها فى رقة أشجار الزيتون والحقول وتوقفت عند ضيعة نورى بك وكأنها تبتهج لمرأى النوافذ المطلية حديثا والياسمين المزهر . اليوم أيضا قد وصلت من الأسكندرية أربعة ببغاوات : اثنان داكنا الخضرة ، والأخران فى لون خضرة البحر وفى صدورهما صفرة . كما أن نورى بك كان قد استقدم "الابراهيمى" ، ذلك الطبال الاعمى الذى قد يعجب امينة هانم . وها قد مر أسبوعان لم يعد فيهما نورى بك الى "ميجالوكاسترو" .. وظل يعد فيهما ـ كطير عاشق ـ العش الذى ستقضى فيه وليفته فصل الصيف . كان مشتاقا اليها ، وكان قد بعث اليها أول أمس برسالة يقول لها فيها إنه قادم إليها وإنه لم يعد يحتمل فراقها أكثر من ذلك ، ولكنها أجابت العربى الذى حمل إليها الرسالة ، بأنها تشك فى أنها حامل : وأن نوبات الألم تنتابها وأنها من ثم لاتستطيع أن ترى

أحدا سوى "حميده" العجوز الحكيمة التى تتردد عليها وتمارس معها فنون العلاج فتحس بعدها بالارتياح ، وأنه إذا كان يحبها حقا فعليه ألا يعود قبل أن تضع حملها .

ولكن ذلك وحده لم يكن مصدر قلقه : أن يظل بعيدا عن محبوبته أكثر مما ابتعد ، فقد ارسل اليه الباشا مساء أمس خادمه العربى يخبره فيها أنه مر وقت أطول من اللازم .. ولم يف بعد بوعده ، وأن الاهانة لم تغسل بعد ، وأن الأغوات يتهامسون وأنه مهما كانت طبيعة الأفكار التى تراوده فإن عليه أن ينتهى من هذا الأمر على الفور .

ثم إن أباه أصبح الآن يزوره فى نومه بانتظام دون أن يتكلم ودون أن يبقى طويلا واقفا أمامه ، كان يكتفى بأن يمر إلى جواره بقدميه العاريتين وفى خطوات متثاقلة ووسط اسماله المهلهلة دون أن يستدير لينظر اليه ، ثم لايختفى ، بل يظل موجودا طوال الليل بوجهه الحزين .

ولقد تصادف فى ذلك الصباح أن تلك القبيلة اللعينة التى قتلت أباه مرت بحذاء ضيعته وهى فى طريقها بعد عودتها من العرس . وقد أغلق باب الضيعة بعنف وصعد إلى الطابق الأعلى .. ودخل غرفة نومه واتجه الى النافذة يحدق من خلال ستائرها الخشبية فى العجوز ذى المائة عام ، رب الأسرة التى تسير خلفه فى فخار .. جيش كامل ! .

وبينما كانوا يسيرون بحذاء باب الضيعة ، جذب "مانوساكاس" عنان فرسه واخرج غدارته الفضية وأطلقها فى الهواء وهو يصيح :

- إننى أطلق النار على درعك يانورى بك ..

وخلف النافذة كان نورى بك يعض شفتيه دون أن يقبل التحدى واستدار "مانوساكاس" الى رفاقه وصاح :

- إن الكلب أثار الضجة لأننى أدخلت حمارى إلى المسجد مع المصلين ، حسن بعد غد يجىء عيدهم الأكبر ، وبحق ثقتى فى أن اسمى هو "مانوساكاس" لسوف ادخل هذه المرة خنزيرا !

وارتفعت صيحات ضيوف العرس وضحكاتهم .. ثم خفتت وسط سحابة الغبار .

وأحس نورى بك بالدم يملأ عينيه ، فهبط الدرج وفتح زجاجة ثم جلس فى الخارج أمام الباب ليهدىء من ثورته بالشراب . ولكنه لم يستطع أن يظل هكذا جالسا . ولاحظ الفوضى التى أثارتها تلك البغال والخيول اللعينة فى الأرض أمام الباب ، فاتجه الى وسط الطريق ورمى ببصره نحو الشمس حيث كان اعداؤه قد اختفوا وسط سحابات الغبار . وأمال الزجاجة وأسال منها قدر خمس أو ست جرعات على الأرض وهو يغمغم قائلا :

ـ فليهدر دمى هكذا إن لم أفعل ما قررت فى هذه الساعة أن أفعله .

ثم أحنى عنقه إلى الخلف وظل يشرب حتى بدأت الريح تشتد ، فعاد إلى الداخل ووضع غدارتيه فوق الوسادة وحشاهما واطلق طلقتين اطمأن معهما على أن غدارتيه تعملان على مايرام ، واخرج خنجره ذا الحدين من غمده واختبره فى رسغه فوجده قاطعا كحد الموس . وظل طوال نهاره يروح ويجيء داخل البيت أو يقتفى آثار البغال والخيل على الطريق ثم يعود وقد تجدد غضبه وهياجه .. وعندما حل الليل ذبح أرنباً وأمر بإعداده على الطريقة المفضلة لديه ، ثم مضى يلتهمه بشهية مفتوحة ، حتى اذا انتهى من الطعام جمع حفنة من زهور الياسمين نثرها فوق وسادته . ولأول مرة منذ زمن طويل راح فى غيبوبة نوم هادىء لايقطع هدوءه شىء ، كما أن أباه كذلك لم يزره فى تلك الليلة .

واستيقظ فى الصباح منتعشا مبتهجاً وأخذ يصفر بفمه . وكانت الديكة قد استيقظت هى الأخرى وبدأت تحيى شمس الصباح . وتساقط الضوء من السماء فوق أوراق الشجر ، وأخذت النافورة المقامة فى مواجهة الباب تحدث أصواتا شبيهة بأصوات الدجاج ، وخرج الجواد من حظيرته يستقبل النهار بصهيله وكأنما قد رأى مهراً أمامه . وكذلك كان نورى بك يتهلل للنهار الوليد .

نزل إلى فناء البيت فاستقبله كلبه العجوز "كارتسوميس" بالنباح مرحباً ، واتجه الى الفرس قربت عليه وأمر بأن يغسل جسده بماء دافىء واتجه هو بنفسه ليملأ له دلوا من البئر ليشرب منه كما أعد له كمية من العلف ثم عاد إلى الداخل فأمر الطاهى بأن يعد له بعض الأصناف الطيبة من الطعام وأن

يملأ له زجاجة من شراب الليمون .. وبسرعة .. لأنه سوف يخرج على الفور قبل أن تشتد حرارة الشمس .

وسألته المرأة العجوز :

ـ هل أنت ذاهب إلى ميجالوكاسترو ؟! وهل ستحضر معك سيدتنا ؟

ودون أن يجيب على سؤالها اتجه الى غرفة النوم ونثر بعض الصبغة السوداء فوق شاربه ثم ارتدى ملابسه الرسمية وطيب شعره وأذنيه بالمسك ، ثم دس الغدارتين الفضيتين والخنجر ذا الحدين فى جيبه ونزل إلى فناء البيت مرة أخرى ووقف عند الباب مشعاً متألقاً كالشمس .

وتقدم اليه تركى عجوز يحمل كيساً فوق ظهره : كان مصطفى بابا ، الذى يجمع الأعشاب ويعد المراهم لمداواة الجروح ، والذى يعالج اليرقان والقوبة ويشفى من الرقى الشريرة ، ويظل ينتقل بين القرى اليونانية والتركية وهو ينادى : "طب ممتاز ، وأدوية مفعولها لايخيب .. وحياة طويلة !" ثم يخرج من كيسه ـ حسب نوع المرض ـ حبوب العرعر ، والخربق الأخضر ، والسذاب ، والشيبة والماندراجورا : كان رجلاً مباركاً يتنقل مداوياً دون أن يأخذ على عمله أجراً سوى أن يأكل كسرة خبز أو يشرب جرعة ماء ويكتفى بهذا من الحياة .

وعندما أبصر نورى بك ، أمام الباب ، توقف وأخذ ينظر اليه بفزع وسأله نورى بك ، وهو يبعد الكلب ويشده من سلسلته المربوطة بعنقه .

ـ ماذا أصابك يامصطفى بابا ؟ لماذا تنظر إلى هكذا ؟

وانحنى الرجل العجوز وقال فى اعجاب :

ـ أنت اليوم غاية فى الأناقة يانورى بك ..

ثم أضاف فى صوت خاشع ..

ـ .... أكثر من اللازم

وضحك نورى بك ، فقال الرجل العجوز :

ـ لاتضحك يابك ، إن هناك حدوداً للرجال والنساء ، وخرق هذه الحدود خطيئة ..

- أناقة فائقة ، وعطف بالغ ، وشرف مكين .. هل ذلك كله خطيئة
وتنهد الرجل العجوز :
- إنها خطيئة يابك .
- كيف ؟ لست أفهم ذلك يامصطفى بابا ؟
- ولا أنا ياولدى ، ولكن ، هكذا قانون الخالق ، كن حريصاً يانورى
ومرة أخرى رفع يده إلى صورة ثم إلى شفتيه فجبهته وقال :

- الى اللقاء يابك .
وتراجع بضع خطوات .. ثم توقف . وضحك نورى بك .
- هل تريد شيئا يامصطفى بابا ؟ هلا تناولت الإفطار على مائدتى
- لست جائعا يانورى بك .. معذرة ، ولكن فقط ..
- ولكن ماذا ؟ تكلم بصراحة يامصطفى بابا ..
- أود أن أقول شيئا ، ولكنك ستضحك .
- أنت رجل مبارك . تكلم فلن أضحك .
- لطخ وجهك بالدخان وارتد ثياب كل يوم وانتعل حذاء مرقعا ! كان لدى
حذاء مرقع .. ودع جانبا غدارتيك الفضيتين .. خفف من أناقتك يانورى
وانفجر البك ضاحكا .. وارتسم الأسف على وجه الرجل العجوز النحيل
وغمغم يقول :

- طالما أن الله فوقك ، فلا تضحك ينورى بك !
ثم انحنى مرتين .. واستأنف سيره .
وعاد نورى بك تياهاً بنفسه إلى الفناء حيث كان جواده ينتظره ، وكانت
الخادم العجوز تمسك بحقيبة سرج مليئة بالأطعمة وشراب الليمون ، وأجال
نورى بك بصره حوله ورأى البيت يتلألأ كأنه حديث البناء ، وأشجار
الزيتون واللوز والرمان مثقلة بالثمار ، وأشجار التين تنتشر عريضة
بأوراقها الداكنة الخضرة ، والببغاوات تنفض ريشها فى أقفاصها وسط
عرائش الكروم .. ولا هبة ريح واحدة .

وتردد قلب نورى بك لحظة . إلى اين سيذهب ؟ ولماذا ؟ لماذا يترك
وراءه كل هذه الهبات الالهية ؟ كانت ضيعته جنة لاينقصها شىء . ثم

المرأة سوف تلين وترق ، وسوف تعود .. وسوف يردد الفناء أصداء ضحكاتها المتألقة ، وسوف ينضج الرمان وتزداد حلاوة التين وتضع الببغاوات بيضها فى حجم اللوز لتفقس أفراخا ذوات أجنحة صفراء خضراء وردية .

وتنهد ! ورأت الخادم العجوز سيدها . كانت تتبعه كظله يوما بعد يوم وساعة بعد ساعة . لقد تربى على يديها ، وهى لم تتزوج ولا عرفت فى حياتها رجلا .. ولكنها لم تندم يوما على ذلك ، فقد كان هذا الرجل بالنسبة اليها زوجا وابنا .. وكان بالنسبة اليها ايضا .. إلها ! لم ترفع يوما بصرها لتسأله ، فكل ما كان يفعله هو الصواب ، وكل ما كان يأمر به هو الحق .. والسعادة كل السعادة فى أن تطيع وليس أمامها سعادة أفضل من ذلك . ولكن قلبها اليوم مثقل ، عادت تسأله :

- إلى أين أنت ذاهب ياسيدى ؟
واستدار نورى بك فى دهشة .
- ماذا حدث لك ياأمى الصغيرة ؟ لماذا تسألين ؟
ثم وضع أطراف قدمه فى الركاب وقفز فوق السرج . ووضعت المرأة العجوز يديها المعروقتين فوق عنق الجواد وغمغمت فى فزع :

- إلى أين أنت ذاهب ياسيدى ؟
وأجابها :
- اهتمى أنت بشئون البيت !
ثم نخس الجواد بالمهماز .
- كان الله معك ياولدى ..
ورأت سيدها ينخس جواده مرة أخرى ويختفى وسط أشجار الزيتون فضية الأوراق ، وأحست لحظتها بغصة فى حلقها .. ولكن قلبها رغم ذلك كان صلبا كالحجارة . وقالت بصوت مرتفع وهى تغلق الباب بالمزلاج :

لقد شرب ماء الخلود .. وهو لايعرف الخوف !

بعد أيام الفصح عاد "مانوساكاس" إلى الحظائر القائمة على سطح

جبل "سيلينا" ، وكانت الحرارة شديدة ، وقد بدأ جز الصوف ، وكان ذلك يعنى إحتفالاً رائعاً فى الجبال : كان الرعاة يجزون أصواف الماعز والأغنام ويطلقون النكات وهم يقومون بعملهم ، وكانت النساء يصعدن الجبل ويشعلن النيران لتسخين الماء الذى ينظفن به الصوف ، وكان "مانوساكاس" هو وأولاده والرعاه الصغار قد اقاموا فى ذلك اليوم حفرة خارج الحظيرة وضعوا فيها حملاً ميتاً بكل جلده وغطوها بكمية من الفحم المتوهج .. وانتظروا حتى ينضج اللحم داخل الأرض .

وأمسك "مانوساكاس" كبشاً ضخماً وضعه فوق ركبتيه وأخذ ينزع خصلة إثر خصلة من الصوف الملبد وإلى اليمين منه أكثر من عشرين من الخراف التى انتهى جز صوفها وإلى اليسار منه خراف لم يجز صوفها بعد وأمامه كومة الصوف تفوح منها رائحة الدهن . وكان "مانوساكاس" يدندن وهو فى رائق البال ، وهبت ريح باردة من الجبال .

كانت سنة طيبة ، فقد ازداد عدد القطيع . وكان ولداه الأكبران "تودورس" و"ياناكيس" يعدان الجبن داخل كوخ قريب من الحظيرة ويضعانها داخل جرار عميقة من النحاس توضع بعد ذلك إلى جوار أكداس من الجبن الجاف والطرى محفوظة داخل مخازن الجبن الرطبة .. والشكر لله .. فهناك أسفل السطح فى "أيانى" ، تنمو المحاصيل والكروم .. كما أن فرسه قد وضعت مهراً صغيراً .

واستراح "مانوساكاس" قليلا وجال ببصره حوله .. ثم إلى أسفل فى السهل : بلى .. الأرض مثل الأرنبة ، دائما حبلى فالحيوانات فيها حبلى ، والأشجار حبلى ، والنساء حبلى .. كريستينا ! كونى فتاة لطيفة واحضرى لى شيئا من شراب الليمون أبرد به جسدى ! .

وكانت زوجته كريستينا تقلب النار وسط الحظيرة . كانت لاتزال إمرأة قوية العضلات ثابتة المفاصل والعظام .. ولكنها كانت زاوية مجففة ! .

ولم يكن فى مقدورها بعد أن تنجب أطفالاً .. ومن أجل ذلك كانت تشكو إلى الله ، فالنساء لايستطعن الانجاب إلا بعد أن يتعدين سن السبعين !

كانت تردد ذلك وهى تشكو إلى الله . ولقد تريد واحدة من النساء أن تنجب دستتين من اطفال حتى يهدأ بالها ، ودستتان من الأطفال عدد يكفى ! عشرون ولداً ، وأربع بنات ، وعندما يصبح لها أول حفيد ، ينتابها شعور اشبه بدغدغة النوم ، وترسم علامة الصليب وتبتهل : ياإلهى .. آه لو كنت إلى جوارك وأنت سبحانك تخلق هذا العالم ! إذن لكنت قد كشفت لك عن أسرار لايعرفها إلا نحن النساء .

وسمعت صوت زوجها .. وأجابته على الفور :
ـ بكل سرور ياعزيزى "مانوساكاس" . هل تريد شيئاً تأكله ؟ لقد أعددت بعض لحوم الضأن .
ـ هاتيها معك .
وبدأ يأكل وهو سعيد بالدنيا .. ثم مالبث أن سمع وقع حوافر .. وصوت حجارة تتدحرج .

من ياترى يأتى الى الجبال فى هذا الوقت ممتطيا صهوة جواده ؟ ونهض "مانوساكاس" فى دهشة وفمه لايزال ممتلئاً بالطعام ونظر عبر الحائط الحجرى للحظيرة وهو يحجب بيده ضوء الشمس عن عينيه .. ورأى جواداً أسود يتسلق الجبل فى خطوات قصيرة والحجارة تتطاير إلى الجانبين منه .

وقفز "مانوساكاس" وهو يغمغم :
ـ عاقبنى الله إذا كنت أكذب ، ولكنى اعتقد أنه هو نفسه الكلب فنورى !
ثم اتجه مندفعاً إلى الحظيرة وتوقف عند مدخلها :
ـ إنه يريدنى !
وبقفزة واحدة أصبح داخل الحظيرة وأخذ حقيبته من فوق الحائط ، وكانت زوجته قد عادت تنحنى فوق الوعاء وهى تؤجج النار تحته . ولم تلاحظ شيئاً .

وأخرج هو من الحقيبة سكيناً قصيرة ثبتها إلى وسطه ، وشد الحزام جيداً ثم جذب عصاه المصنوعة من خشب البلوط وعاد ليقف عند مدخل الحظيرة .

وكان الفارس فى تلك اللحظة قد تجاوز السنديانة الضخمة ذات الأوراق الكثيفة والتى تقف داكنة وحدها . وكان يضع حول رأسه عصابة رأس بيضاء والغدارتان تلمعان تحت أشعة الشمس ولم يستطع مانوساكاس أن يميز جيداً وجه نورى المستدير المتألق بشاربه الأسود .

وعاد يقول :
ـ انه يريدنى ! مرحبا إذن بالكلب ، إذا كان قد جاء لهذا ونادى زوجته :
ـ كريستينيا ! أعدى المائدة فقد جاءنا ضيف !
وتناهي اليه صوت زوجته من الداخل وهى تسأله فى دهشة :

ـ من ؟!
وأجاب "مانوساكاس" :
ـ شيطان ! قلت لك أعدى المائدة !
وتقدم ليستقبل الفارس . ورآه "نورى" فرفع يده .. ومن بعيد تناهى صوته المتقطع الساخر :
ـ طاب يومك ياكابتن "مانوساكاس" .
ـ مرحبا ياكابتن "نورى بك" .. من تريد ؟
وأجابه "نورى بك" ضاحكاً وقد برقت أسنانه وانقبضت وجنتاه :
ـ أريد الكابتن "مانوساكاس" .. هل تعرفه ؟!

وبرقت عينا "مانوساكاس" فى غضب .. ولكنه تمالك نفسه وقال :
ـ ومن ذا الذى لم يسمع عن أعماله البطولية ؟
وحاول أن يضحك ولكن شفته العليا وحدها التى تحركت وكشف عن أسنانه .. ثم استطرف يقول :
ـ منذ أيام قليلة مضت فحسب ، أدخل حماراً إلى المسجد ليشارك المصلين .

ـ أنا أيضا سمعت بذلك . أخبرنى به طائر نحس ، وقد جئت خصيصاً لأرى هذين الكتفين اللذين حملا هذا الحمار .
ـ ولكنك لن ترى كتفى يانورى بك ، فلا تفكر فى ذلك ، مانوماساكس لايكشف عن كتفيه .

وضحك نورى وهو يقول :
ـ عندما يرى الخطر محدقاً به فسوف يكشف عن عجزه وليس فقط عن كتفيه !
ثم الهب بسوطه أذن الجواد فتراجع مستجمعاً قوته وقفز نحو مانوساكاس الذى لم يتحرك من مكانه ولكنه أحس بالدماء تجرى فى رسغيه وثبت مكانه .. إن نورى بك قادم لزيارته . فصبراً إذن ! وشد قبضته ، ولم يستطع أن يكبح جماح لسانه :

ـ لم يستطع كلب بعد أن يعضنى إلا إذا كان مجنوناً يانورى بك .. فانتبه جيدا لنفسك .
ـ ولكننى وحش مفترس يامانوساكاس ، ومن ثم فلست أحب أن أتغنى بمدائح عن نفسى .. إننى أظل صامتاً .
ـ حسن ؟! فلماذا جئت إذن الى مملكتى ؟! ماذا تريد ؟!
وعض نورى بك شاربه ولم يقل شيئاً . وظل "مانوساكاس" ينظر اليه بدوره وهو واقف مكانه دون أن يقول شيئاً ، ولكن قلبيهما كانا يدقان .. ويكادان يقفزان خارج صدريهما .
واخيرا قال نورى بك بصوت هادىء بطىء يزن كل كلمة :

ـ مانوساكاس .. انت أهنت تركيا إهانة بالغة .. ويجب أن تدفع الثمن .
ـ كنت أسلى نفسى ! فدع إذن جامع الضرائب يحضر وحدد أنت مايجب أن أدفعه له .
ـ لقد حضر بالفعل .
ـ أنت ؟!
ـ نعم .. أنا ، تركيا التى أهنتها . هى التى أرسلتنى . ومن العالم الآخر تلقيت رسالة من أبى الذى اغتالته قبيلتك . هناك حساب ضخم سوف نسويه مع قبيلتك يامانوساكاس . منذ يوم أو يومين اقتحم أخوك مقهى تركيا وأخرج منه الأغوات . ان ميجالوكاسترو تصرخ طالبة الثأر . وربما لا أمس أخاك بسوء ـ فهو شقيقى بالدم ـ ولكننى سأمسكك أنت .

وتحسس مانوساكاس حزامه وإطمأن على الخنجر ، وقال :

ـ فلنبتعد قليلاً عن هذا المكان ، حتى لاتسمعنا الزوجة .. ثم إن أبنائى أيضاً داخل الكوخ .

وترجل نورى بك ، فقد رأى أنها ليست رجولة منه أن يظل ممتطيا صهوة جواده بينما عدوه راجل على قدميه . ولف زمام الجواد حول ذراعه .

ـ هيا بنا ..

وتحرك الأثنان .. وأخذ الجواد يصهل بشدة وهو ينثر الحجارة بضربات حوافره .

كانت السكينة تلف الجبل ، والشمس فى كبد السماء ، وكان أبناء مانوساكاس خارج الحظيرة مع الصبية الرعاه قد كشفوا الحفرة وأخرجوا الحمل المشوى الذى كان قد نضج تماماً ، واحاطوا بهم : بعضهم جلسوا القرفصاء والبعض الآخر انحنى جالساً على ركبتيه ، وبدأت أسنانهم تعمل كالطواحين ، والوعاء الخشبى يدور من فم إلى فم ولا أحد منهم يعير الجبل اهتمامه . حتى الأغنام التى تخففت من الصوف ، كانت هى الأخرى قد انتثرت فى الظل وقد خرجت السنتها وأخذت تحدق فى دهشة فى أصوافها المجزوزة .

وتوقف الرجلان عند شجرة السنديان الطويلة كثيفة الأوراق ، والقى كل منهما بنظرة خاطفة إلى الأرض المنبسطة حول جذعها الضخم .. وقالا معاً :

ـ المكان هنا يصلح ..

وربط نورى بك جواده إلى شجرة سنديان أقصر من الأولى وإلى جانب منها فى مكان لايستطيع الجواد أن يرى منه شيئاً مما سيجرى ، أما "مانوساكاس" فقد نظف المكان من الحجارة والأغصان الرقيقة المتساقطة ، وحين عاد "نورى بك" أسعده أن يجد المكان نظيفاً وقال :

ـ لقد أحسنت تنظيف المكان فأصبح الآن كافياً .

ـ نعم .. إنه كاف جداً . ونستطيع أن نقيم فيه وليمة إذا نحن أردنا ، ونستطيع أيضا إذا نحن أردنا أن يقتل أحدنا الآخر ، فأيهما تختار يانورى ؟

وأجابه نورى بهدوء :

ـ أن نقتتل ، فالشرف يطلب ذلك يامانوساكاس .

ـ نعم .. فإن أحدهما لايحجب الآخر .

ورد نورى بك بهدوء :

ـ هيا نقتتل ..

ـ كما تشاء

وشد حزامه أكثر حول وسطه ، وشمر أكمامه ، بينما شد "نورى بك" عصابة الرأس البيضاء ، وأخرج مسدسيه من جرابيهما الجلديين وعلق أحدهما فوق أحد أغصان الشجرة ، بينما أمسك بالثانى ، وكان "مانوساكاس" يراقبه .

ـ علقه جيداً ، فأنا أحب هذين المسدسين ، وسوف أخذهما لنفسى بمجرد أن أقتلك .. كتذكار !

وأعد نورى بك مسدسه للإطلاق ، ووقف "مانوساكاس" فى مواجهته دون أن يتحرك . وقال "نورى بك" :

ـ مانوساكاس .. بالأمس مرت قبيلتك بضيعتى وتوقفت أنت وأخرجت مسدسك وأطلقته فى الهواء وأنت تقول لى : إننى أطلق النار على درعك يانورى بك ! وها أنذا أقبل التحدى .. ولو تخطفنى الموت !

وأطلق رصاصة مرت فوق رأس "مانوساكاس" ثم شب واقفاً على أطراف أصابعه وعلق المسدس بجانب الآخر .. والدخان لايزال يتصاعد من فوهته .

أوخذ كل منهما مكانه فى مواجهة الآخر وقد باعد مابين ساقيه .. وغلى الدم فى عروقهما .. وانتظرا . وحاول كل منهما أن يثير الآخر بالسباب والتعريض ، ولكن ذلك لم يكف لتهيئة الإثارة الكافية .. وأخيراً قال "مانوساكاس" :

ـ قد يحضر إلىَّ هنا الكابتن "ميخايليس" ليتعامل معك ، هل تذكر كيف أمسك بك يوماً من حزامك ورفعك فوق السطح ؟ ولكننى أنا أيضاً سوف أقذف بك الآن بنفس الطريقة .

واندفع إلى الأمام ليمسك الآخر من وسطه ، ولكن "نورى بك" راغ منه ، وخطا خطوة إلى الخلف ثم استل خنجره ذا الحدين ، وأخذت عينا الأثنين وهما ترميان بالشرر :

ـ كافر !

ـ كلب !

وقفز نورى الى الأمام رافعا خنجره ، ولكن "مانوساكاس" انحرف جانباً حتى كاد نورى بك يسقط على الارض ، واندفع مانوساكاس منحنياً نحو نورى بك وضربه فى بطنه برأسه ضربة كادت تفقده وعيه ولكنه تماسك واستجمع قوته . وبينما كان غريمه لايزال منحنياً ، دمع بالخنجر عميقاً فى جسده .. وطقطقت العظام ! وانبثق الدم غزيرا ليلوث "نورى بك" وهو يخرج الخنجر من جسد "مانوساكاس" وأطلق نورى صيحة فرح طاغ وهو يلعق حد الخنجر بشراهة حتى كسا الدم شفتيه ولحيته :

ـ هذه من أجل والدى ، إننى أثأر لدمه .

وانحنى "مانوساكاس" وهو يتمايل مستنداً إلى جذع الشجرة ، غمغم يقول :

ـ كلب ! .. لقد نلتنى .

وأجاب نورى

ـ لقد انتهى الحساب .

ثم بدأ يقترب فى خطوات وئيده متعرجة مثل الأسد ، وقد أخذت خياشيمه ترتعش .

وغمغم "مانوساكاس" .. وهو يحس بأن قواه تخور وتمنعه من الاندفاع إلى خصمه .

ـ اقترب من هنا .. اقترب من هنا ..

وأثار صوته نورى بك .. فاقترب أكثر وقد رفع خنجره ثم صاح هادراً :

ـ وهذه أخرى .. ضربة أخرى فى القلب ياكافر ، من أجل تركيا التى أهنتها أنت وأخوك الكابتن "ميخايليس" .

وعندما أصبح أكثر قرباً منه ، قفز كالبرق ليغرس الخنجر فى قلب عدوه ، ولكن "مانوساكاس" إنحرف جانباً فاصطدم الخنجر بجذع الشجرة وتحطم